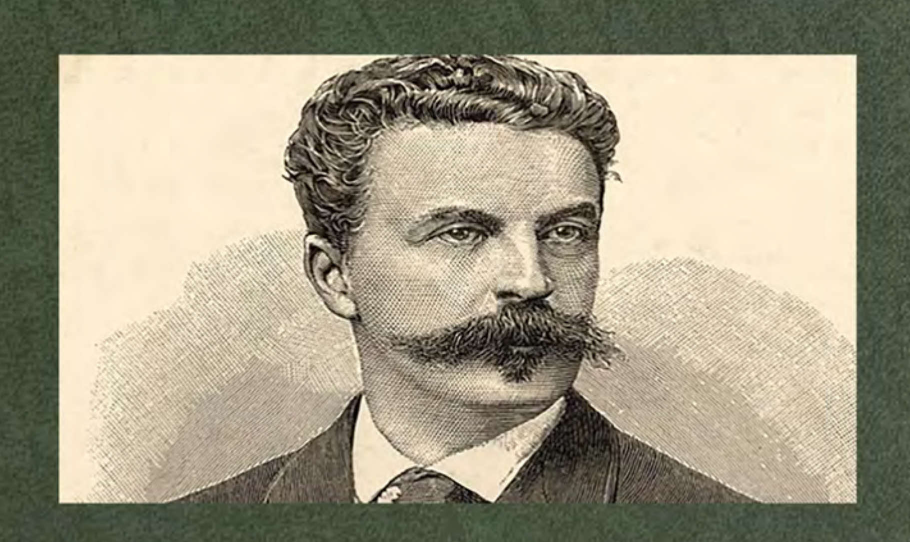



أبو عبدو البغل

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

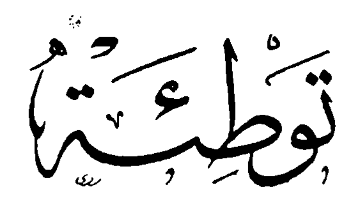
جي ده موپاسان

قوي كالموت

سلسلة عيون الأدب العالمي
٦

ابراهيم الحلو





كانت الغاية من الرواية والقصة ـ قبل جي دي موباسان ـ الموعظة وإزجاء النصح واغداق الدروس الاخلاقية ، لذا نجدها قليلة الجدوى عديمة النفع ، ذلك ان المرء بطبعه يكره الامر والنهي ان ينصبا عليه كما ينفر ممن يتشح بمسوح الواعظ ويعلو المنابر ليضع في مسمعيه قوله : لا تفعل هذا وافعل ذاك !

أما « موباسان » فقد اتجه الى الغاية نفسها منتهجاً سبيلا أقصر واكثر استقامة إذ جعل شاغله تصوير جمال الحياة وقبحها جميعاً ، فخرج الخير والشر متعانقين ، في كتاباته ، غير مفترقين ؛ لانهما في حياة الناس كما خطهما بقلمه البليغ .

واكتفى بان يريك القبح باسمج أشكاله دون ان يقول لك : لا تفعله !

واكتفى بتركك تعيش الجمال الخالد بابدع الوانه دون ان يدفعك اليه قائلا : دونك إياه ! هذا هو العبقري الروائي موباسان الذي فهم الحياة كما لم يفهمها كاتب من قبل .

* * *

يعتبر الكاتب الروائي الفرنسي « جي دي موباسان » علماً من أعلام القصة في الأدب العالمي الحديث ، فهو صاحب مدرسة مجددة طوحت بالأساليب القديمة وعصفت بالطريقة الكلاسيكية وأرغمت الرومنطيكية على الانحناء ! ولم تكن هذه المدرسة الجديدة التي ابتدعها موباسان إلا المدرسة الواقعية التي تجنح الى تصوير الانسان كما هو لا كما يجب ان يكون ! فكأن الكاتب الواقعي ذاك الرسام الصناع الذي ينقل عن الطبيعة مظاهرها وخلجاتها على علاتها ، فلا يمسح

بيد الرفق على جراحاتها ليلئمها ، ولا يشوه حقائقها باصبغة زائفةدخيلة وانما عليه ان يعطيك صورة صادقة عن الحياة فتراها جميلة في قبحها وقوية في ضعفها ومرة في حقيقتها ، فليس من طبعه ولا في خلقه ان يهول لك المعايب ولا ان يعظم لك الفضائل ولا ان يجعل لك من الابطال أنصاف آلهة ، وجل قصده انه يمر بالقلم على القرطاس فيقول لك ما تراه تحت ناظريك بقلم حي وفكر خالد !

« أحب السماء كحب الطائر لها ... وأحب الغابة كحب الذئب لها . . وأحب الصخرة كحب الوعل الذي اتخذها له ملعباً ... »(١)

ومعنى الحب عند موباسان هو الرغبة العارمة في الامتزاج ، والفناء فيما هو محبوب . ومن ثم استرسل موباسان يمتزج بتلك الامواج الزاخرة التي تضطرب في محيط الحياة ، يعلو متونها تارة ، ويهبط الى اعماقها تارة ، لايضيق بشيء مما يكون ، ولا ينشد الاستقرار فيما يجري ، فقد فني في هذه الحركة الدؤوب كل فناء ! ولكن ... غفر الله للحياة ! فلشد ما تشبث بها فنبذته عنها بعيداً ! !

* * *

ولد موباسان سنة ١٨٥٠ من عائلة تمت الى العراقة بسبب قـــوي وبدأ حياته المدرسية في كلية مدينته « روان » فكان تلميذاً غير مرغوب فيه ، فهو لا يأبه الا لنزعات نفسه الطليقة فلا يملك عن الاسترسال معها محيداً ، فضاقت المدرسة بقصوره وما هي الا فترة حتى الفى نفسه يخرج الى الحياة الصاخبة شبه طريد ...

وانتقل الى الريف يرتع فيه ويمرح ، يحيا مع الزراع ، ويختلط بهم في حياتهم الخشنة الطلقة فيجد في ذلك انساً وسلوى .. ولكن الريف ضاق به ، فهو يأخذ منه ولا يعطيه ، فما لبث ان الفى نفسه طريد الريف ...

وقضى حقبة اخرى من حياته موظفاً في وزارة البحرية ، وكان من فضائل وظيفته القليلة ما تركته له من فراغ .. فانصرف الى الأدب ، واتصل بغوستاف فلوبير الذي كانت تربطه بعائلة موباسان اواصر متينة ، فتلقاه بذراعين ممدوتين ، واخذ عنه اول اساليب التأليف الروائي ، وبغفلة عرف موباسان

(١) من « رسالة الى موباسان » لمحمود تيمور .

كبار الروائيين اتباع المدرسة الواقعية . ولم ينقطع موباسان بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩١ عن نشر القصص والروايات التي امتازت بقوه اسلوبها وصدق تصويرها والمقسمة بسمة الواقعية المغرقة التي كادت ان تنقلب سبة عليه !

أحب موباسان في الحياة متعها اشكالا والوانا ، فأغرق نفسه في لجة الحسن : فهصر القدود جهد طاقته ، واعتصر الكؤوس اعتصار ظامىء لا يروى له غليل ... وكان يصور كل ما أحب الصورة الصادقة التي علقت في ذهنه منه ساعة أحبه . .

لذا ترى في كتابة موباسان كل لون يخطر لك في بال ، وتجد بين ابطاله كل نموذج يمكنك ان تلتقي به في اي مجتمع وفي اي زمان .. ومن هنا تأتي القيمة الانسانية لأدبه ، بيد أنه آنس من الحياة إباء عليه وتملصاً من بين يديه . ولم تكذب الايام ظنه فما بلغ الاربعين من عمره حتى انفصم ما بينه وبين عالم الاحياء من صلات واتخذ لنفسه سكناً بين القلم والقرطاس .. يعمل ليل نهار دون ان يدركه تعب او يحس مللا .. يا لها من غرائب ، فإن حبه للحياة هو الذي حرمه دوام وصالها ، وكلما هم بها صدت وكلما مال اليها بعدت . . فلا بدع ان يحقد عليها حقداً مريراً ، حقداً يخالط ذاك الحب المكين كما يخالط السم الناقع رطب الشراب !

ورأى المجتمع تتحكم به عادات ومعتقدات عليها غلائل فاخرة من نسج المخادعة والرياء ، فجرى يحطم القيود ويمزق الاغلال لا يصده عائق عن هدفه المرموق ، فنضا الاستار عن تلك الغرائز البشرية التي تعمل في السرائر وتجعل من الناس دمى تبعث السخرية والاشمئزاز .

وريع المجتمع مما جابهه به من مساوئه ونزعاته الدنيئة ، واذهله ما صفعه به من حقيقة علقمية الطعم ، فظيعة في بشاعتها ولكنها متناهية في صدقها واخلاص اهدافها ... فصاح به المجتمع بنفس واحد : مكانك ايها الفاجر السليط ! الا ان ذلك المجتمع كان في قرارة نفسه مقراً بصدق ما ذهب اليه ، معترفاً ان الحق ما قاله .. فكأنه يستزيده ولا يحاول خنق انفاسه كما تظاهر .

ولم تمهل الحياة موباسان حتى يحقق كل غاياته واهدافه ، فما لبثت متسع

الحياة ، واستهتار الشباب أن سرت في دمه سماً زعافاً ، وحل يوم شعر فيه ان عقله ينزف ، وانه موشك ان ينضب .

واصيب موباسان بالجنون ، فأقام سنوات ثلاثاً في مصح للامراض العقلية وقضى نحبه في نهايتها سنة ١٨٩٣ بعد ان كان قد وهب المكتبة الفرنسية ثروة طائلة خليق بها ان تزهو وتفخر بهذه الهدية الكريمة . كما كان قد اهدى للادب الحديث طريقته الجديدة الواقعية اذ انه ابدع فناً يكاد ان يكون جديداً في الادب الفرنسي آنذاك هو فن القصة القصيرة التي احدثت ثورة فعلية في الادب العالمي فيما تلا ذلك من اعوام .

واذا كانت المكتبة الفرنسية قد اتحفت بهذه الروائع التي قدمها لها القصاص الكبير موسابان فإن المكتبة العربية ما زالت ظامئة الى هذا الادب الرفيع تضيفه الى ذخيرتها الخالدة ، وها هي ذي دار اليقظة العربية تسهم – على عادتها – في بناء المكتبة العربية فتقدم للقارىء العربي هذا الاثر النفيس من آثار موباسان الذي يغلو بعض النقاد فيرى فيه خير ما انتجته قريحة موباسان وافضل ما خطه يراعه !

دمشق – حزيران ١٩٥٣

المعرب

الكتاب الأول

١

كان النور يتسرب الى المرسم الفسيح عبر فتحة تتوسط السقف فتبدو مربعاً ازرق متألقاً يفسح للنظر رؤية زرقة السماء اللامتناهية تقطعها طيور منطلقة كأنها سهام مراشة .

واذا ما ولجت القاعة العالية الجهمة الاثاث ، خيل اليك ان ألق السماء البهيج آخذ بالشحوب والاضمحلال ، حتى ليستحيل ضئيلاً ناعساً كانه يغفو فوق قطع الاثاث القديمة ثم يختنق في الزوايا فلا يبلغ اعماقها الا بكمية ضئيلة الا انها كافية لتجعل الاطر المذهبة تلتمع التماع جذوة توشك ان تخبو .

كان هدوء ناعس يسود جو المرسم الفسيح ،هدوء ألف مسكن هذا الفنان حتى غدا جزءاً منه لا يكاد يفارقه الا ساعة ينشط الى العمل فتنطلق الروح الانسانية بكل مجالي قوتها وحيويتها ، فاذا انهك الفكر واضناه مجهودُ العمل الخلاق بين تلك الجدران ، عاد الى استكانته وهدوئه

فتعود تلك السكينة الغافية تجليب كل شيء فكأن الموت قد نزل تلك الساحة بعد انتفاضات الحياة المبدعة - فيجنح كل شيء الى الراحة بجنوح الفكر اليها : الاثاث والسجوف واللوحات الكبيرة التي لم يفرغ من رسمها . فكأن المسكن بكل ما فيه قد شارك صاحبه جهده المبذول ونشاطه المستهلك ، فيدركه ما يدرك الرسام من عناء يتجدد في كل يوم ...

كانت رائحة تبعث الخدر في الاعصاب ، تثقل الجو فكأنها ، لكثافتها ، قد علقت بالسجوف والطنافس والمقاعد . انها مزيج من روائح الاصباغ والمركبات الكيماوية والتبغ المحروق ..

لم يكن ثمة ما يعكر الهدوء المخيم سوى صرخات قصيرة عنيفة صادرة عن طيور السنونو العابرة من امام النوافذ المفتوحة .. اضف الى ذلك صخب باريس العميق المبهم الذي لا يكاد يصل الى الآذان الا مشققة .

كان كل شيء هادئاً في محراب الفن . لم يكن ثمة ما ينبض او يتحرك ما خلا تلك الضبابة من الدخان الازرق المتصاعدة بشكل متواصل نحو السقف ، كلما نفث اوليفيه برتان نفساً من لفافته وهو مستلق فوق ديوان ونثر ثج الدخان ببطء من خلال شفتيه .

كانت نظراته ضائعة في زرقة الافق البعيد . . فهو يبحث عن

موضوع جديد للوحة يتمخض عنها ذهنه . ماتراه فاعلاً ؟ لم تكن اية فكرة قد تبلورت في ذهنه حتى الساعة . فهو ليس ذلك الفنان السريع التصميم ، الواثق من صواب تخيلاته الاولى ، فهو قلق ، برم يتردد الالهام دون انقطاع في مظاهر فنه .

واوليفيه برتان رسام ذائع الصيت ، اغتصب المجد والثروة اغتصاباً ، غير انه لم يكن ، حتى آخر حياته ، ليعرف له مثلاً اعلى اليه يسير . لقد نال من روما اعلى شهادات الرسم . فكان اول أمره ذائداً عن التقاليد ، ميالاً الى بعث جمال القدم وروعة الماضي ، ثم غير نهجه الفني فمال لى التجديد ،وهو على علو قدمه في عالم الفن يذكرك بكبار الفنانين الذين سجلوا فصولاً مجيدة في التاريخ الفني . وعاد في نكسة جديدة الى الاسلوب الكلاسيكي فاخرج صوراً لاشخاص احياء بلغت حد الروعة الفنية .

كان ذكياً ، متحمساً ،يعمل دون هوادة،وقد اكتسب مرونه عاليه تولدت من تردده القديم وعديد محاولاته يساعده ذوق سليم وذكاء مرهف . وربما كان لانصراف المجتمع الى تذوق فنه والاقبال على انتاجه يد في وثبته تلك التي رفعته الى مصاف كبار عباقرة الفن . ايكون قد تمكن من السيطرة على مواهبه وتوجيهها الى ماصار اليه لا الى ما كان يجب ان يكون ؟ فمنذ نجاح لوحته الاولى ، دفعته رغبته في

ان يصبح محط اعجاب الجميع ، الى المثابرة والتقدم . حدث ذلك دون ان يحسب له حسابا . فمهد امامه الطريق سراً . ان الرغبة في ان يجد نفسه ذلك الفنان المرموق ، ذلك الرسام الحامل لواء مدرسة فنية ، ان تلك الرغبة قد ضربت بسهم وافر في ارتفاع نجمه وذيوع اسمه .

كان دمث الخلق ، لطيف الطباع ، شديد العناية بنفسه ، بالغ التانق بملبسه ، متزن التصرف ، ذا فروسية ورجولة .

وقد اجتمعت فيه هذه الصفات النادرة لتحمي الشهرة التي اغتصبها اغتصابا فبعد لوحته . كيلو باتره ، اللوحة الاولى التي حملته الى قمة الشهرة ، فتنت به باريس فجأة ، فتبنته ، واحتفلت به ، فغدا فجأة احد فنانيها اللامعين الذين لا تصادفهم في كل حين والذين تتزاحم الصالونات لاستقبالهم كما تتلقاهم الندوة بفخر منذ فجر شبابهم . لقد دخل محراب الفن دخول الفاتحين واعجاب المدينة كلها يحف بـه . كما ان الثروة قد قادتـه الى حدود الشيخوخة تمهد له السبل وتحقق له الرغبات .

انه ، تحت تأثير النهار المائع في الخارج ، يبحث عن موضوع شعري للوحة جديدة . كان مستغرقاً بلفافته ، يحـلم ونظراته تطوف في الفضاء متخيلاً في الافق وجوهاً سريعة التقاطيع ونساءً حسناوات في مفاوز الغابات او فوق ارصفة الشوارع ، وعشاقاً على ضفاف الميـاه

وكل ما في الحياة من ممتع جذاب يثير الخيال . كانت الصور المتحولة ترتسم على صفحة السماء غامضة ، متحركة في استغراقة ملونـة ، امام ناظريه بينما تقطع السنونو الفضاء بطيرانها المتواصل كأنهـا الاسهم المارقة ،او كأنها تحاول محو الزرقة كما يفعل القلم عندما ضربه الصفحات. لم يجد شيئاً . فكل الوجوه التي ترتقص امام خياله تبدو كأنها معروفة منه قبل ذلك ،وكل النساء كأنهن بنات او اخوات اللواتي خلقهن خياله من قبل . ها هو الخوف يعاوده . فمنذ سنة خيل اليه ان جعبته فرغت ، انه انتهى من كل ما في رأسه من مواضيع ، انه استهلك كل الهامه، وشاء ان يستوثق من هذا التخيل ، من هذا العجز خيال كل جديد يخلقه من العدم .

ونهض بارتخاء ليبحث في محفظته عله يجد شيئاً يمكن ان يثير فيه فكرة . وراح يفتش في اوراقه ، مدخناً لفافته ، عن التماميم والرسوم التي يحفظها في خزانة كبيرة قديمة . وشعر بالاشمئزاز فجأة من هذا التنقيب فالقى بلفافته وروحه تشعر بالغنى وراح يصفر لحناً شعبياً ثم انحنى والتقط من تحت مقعد ثقلاً للرياضة راح يحركه .

ثم رفع بيده الثانية سجفاً يكشف عن مرآة تساعـده على معرفة الاوضاع الصالحة للتأكد من الرؤية ولاختبار حقيقة الرسوم ، ووضعها امامه وراح ينظر فيها ويتمتم .

كان يذهو بقوته الجسدية وبجماله في المجتمعات ، اما الآن فان السن يرهق كاهله ويثقله فقد تكرش كمصارع قديم بالرغم من انه يتريض بالسلاح والفروسية كل يوم غير أن رأسه بقي ملفتاً للانظار ، جميلا كما كان قبلا انما بشكل آخر . فالشعر الابيض الكث القصير يعطي لعينيه السوداوين لمعانا قويا تحت اهدابه الرمادية وكان شارباه الاغبران كشاربي جندي قديم يضفيان على وجهه سمة الحيوية والاعتزاز . كان يقف امام المرآة وقد ضم عقبيه واستقام بجسده وراح يرسم بالكره المعدنيه كل الحركات الموزونة بطرف ذراعه القوية متابعاً بنظرة رضى مجهوده الوئيد الجبار . غير انه فجأة شاهد في اعماق المرآة التي تعكس كل المرسم بابا يتحرك ثم ظهر رأس امرأه ، لا شيء سوى رأس ينظر . وارتفع صوت يسأل :

— انت هنا ؟ فاجاب : وهو يستدير : أني هنا .

ثم القى بآلة الرياضة وانطلق الى الباب برشاقة شبه مفتعلة .

ودخلت امرأة انيقة المظهر . وبعد ان تصافحا سألته : أأنت تتريض ؟

— أجل اني اقلد الطاووس وقد ضبطت . فضحكت واجابت:

— ان البوابة ليست في غرفتها ولما كنت اعرفك دائما وحيداً في مثل هذه الساعة فقد دخلت دون ان اعلن عن نفسي . فراح ينظر اليها :

– يا الله ! كم انت جميلة ! يا للاناقة !

– اجل انه ثوب جديد . اتجده جميلا ؟

– رائعا ، بديع التناسق . ان للناس اليوم ذوق التناسق والانسجام . وراح يدور حولها متلمسا القماش معدلا بطرف اصابعه وضع الطيات كرجل يتقن التجميل كأنه خياط قضى كل حياته مستعملا ذوقه كفنان وعضلاته كرياضي لتصميم الازياء المتغيرة الانيقة التي تنم عن جمال الانوثة الاسيرة بين جدران من الحرير والمخمل او تحت ثلوج من الدنتلا . وانتهى بان اعلن :

– انه ثوب ناجح جداً . وهو ينسجم مع جسمك كل الانسجام وتركته يمتع انظاره بها وهي شديدة السرور بان تكون جميلة فترضيه .

لم تكن حديثة السن انما كانت جميلة ، ربعة الجسم ، مليئة ، غير انها ريانة العود بمثل هذه اللدونة التي تعطي للجسم في الاربعين طعم الثمر الناضج . كانت كاحدى هذه الورود التي لا تفتأ منذ دهرة متفتحة ، ريّا ، حتى انها لتسقط وهي اشد ما تكون نفحا وشذى . انها تحتفظ تحت شعرها الاشقر بجمال الباريسيات اللواتي لا يدركهن هرم فهن يحملن دائما تلك الرغبة الوثابة في ان يبقين فتيّات ، تلك القوة التي لا تستهلكها الايام والتي تبقى خلال عشرين سنة لا تتغير

ولا تفنى بل تنتصر دائما : انها العناية باجسامهن والاقتصاد بصحتهن
ورفعت خمارها وتمتمت : — حسنا . الا تقبّلني ؟ .
ـ كنت ادخن ـ
— آه ... وقدمت له شفتيها قائلة : لسوء الحظ ...
والتقت شفاهما . وتناول مظلتها وخلصها من سترتها الربيعية
بحركات ثابتة واثقة فقد اعتاد هذه الاشياء المائلية . وسالها بعد ان
استوت فوق الديوان : — كيف حال زوجك ؟
— حسنا جداً . انه يخطب في المجلس النيابي هذه الساعة بالذات.
— آه . وما هو موضوعه ؟
— لاريب في انه يدور حول الشوندر او الزيت ... كما هو دائما.
ان زوجها الكونت دي غيروا ، نائب الاور ، جعل من نفسه
اختصاصياً في كل الموضوعات الزراعية .
وسألته وهي تقطع المرسم الى لوحة لم تكن قد رأتها قبلاً :
— ما هذه ؟
— صورة طباشيرية بدأتها . انها صورة الاميرة دي بو نتاف
قالت بلهجة جدية : — اسمع . اذا كنت ستثابر على رسم
النساء فلن اتردد في أغلاق مرسمك . انا اعلم الى اين يؤدي مثل هذا
العمل .

— آه . لن يتاح للمرء ان يرسم الاميرة مرتين !

— اعتقد ذلك جيداً .

وراحت تفحص اللوحة كإمرأة تعرف الفن . فكانت تدنو وتتقهقر متخذة من يدها مظلاً باحثة عن المكان الذي تكون فيه اللوحة اكثر تعرضاً للنور . ثم اعلنت اعجابها :

— انها جيدة جداً انك تنجح جيداً في الرسم الطباشيري .

فاجاب منتفشاً :

— اتجدين ذلك حقاً ؟

— نعم إنه فن لطيف جداً يستدعي الكثير من الدقة انه لم يخلق المصورين (البنائين) الذين لا يجيدون الا استعمال المسطرة والبيكار !

منذ اثني عشر عاماً وهي توجه ميوله نحو الفن المرموق وتحارب نكسانه نحو الواقعيه المجردة وبكثير من التقدير الاجتماعي الانيق كانت تدفعه بلطف نحو مثل اعلى من الجمال المنوع المصنوع . سألته :

— كيف هي الاميرة ؟

فكان عليه ان يقدم لها الاف التفصيلات من كل ضرب ، هذه التفصيلات التي تشبع التطفل النسوي والغيرة الحادة عندما ينتقلن من ملاحظة اناقة غيرهن الى تقدير نفسيتها . وسألت فجأة : — اتحبب اليك فقهقه واقسم إن لا .

عندئذ القت يديها الى كتفي الرسام ونظرت الية بثبات .

ان شدة السؤال ارجفت البؤبؤ المستدير الذي يتوسط الحدقة الزرقاء ذات النقاط السود كأنها المداد وتمتمت من جديد : — اصحيح انها ليست مغرية ؟ — اوه . صحيح تماماً .

فتابعت : — اني لمطمئنة فانت تحبني الآن اكثر من اي وقت آخر . لم يعد اخريات القد فات الأوان ، يا صديقي المسكين .

لقد حركته فارتجف هذه الارتجافة المسيرة التي تهز قلب الرجل الناضج عندما يحدثونه عن سنه . وتمتم : — اليوم وغداً كامس لم يكن ولن يكون سواك في حياتي يا آني .

فاخذت ذراعيه واستدارت الى الديوان واجلسته الى قربها .

— بمَ تفكر ؟

— اني ابحث عن موضوع للوحة .

— اية لوحة ؟

— لا اعلم فانا ابحث .

— وما ذا فعلت هذا اليوم ؟

وكان عليه ان يروي لها كل الزيارات التي قام بها ، الولائم والسهرات ، المحاورات والاحاديث . وكان الواحد والآخر يهتمان بهذه الاشياء العائلية التافهة من الحياة الاجتماعية : المداوات الصغيرة

والملاقات المعروفة او المظنون بها ، والاحكام المبرمة والمعادة والمسموعة الف مرة على نفس الاشخاص وعين الاحداث وذات الآراء. كانت تحمل نفسيهما وتغرقهما في هذا النهر المضطرب المكرر الذي يسمونه الحياة الباريسية. كانا يعرفان كل الناس. فهو كفنان تفتح امامه كل الابواب وهي كسيدة مترفة زوجة نائب محافظ. وكانا قد أعتادا رياضة الحديث الفرنسي الناعم السخيف الذي يستغيب الناس متحببا، ويثفكه دون جدوى، ويحلي وهو يسف. انه يعطي الشهرة الخاصة المرغوب فيها الذين اعتادت السنتهم على هذه الثرثرة الفارغة.

— متى تأتي فتتغدى عندنا؟

— ساعة تشائين. حددي اليوم.

الجمعة. فستكون عندي الدوقة مورثان وآل كوربيل وموزاديو وذلك للاحتفال بعودة ابنتي التي ستصل هذا المساء. ولكن لا تقل لأحد فهذا سر.

— آه. صحيح. اني اقبل. اني ساكون في غاية السرور بان اری آنيت. فلم ارها منذ ثلاث سنوات. صحيح منذ ثلاث سنوات.

لقد ربيت آنيت في باريس الا أنها اصبحت في السنوات الاخيرة الشغل الشاغل لجدتها، السيدة بارادان التي كانت عمياء تقريباً وكانت تقيم معظم السنة في املاك صهرها بقصر الرونسيير

في مقاطعة الاور ،ومن ثم بدأت المرأة العجوز تحتفظ بالطفلة .ولما كان آل غيروا يقضون نصف حياتهم في هـذه النـاحية حيث تستدعيهم مصالح زراعية وانتخابية فلم تكن الفتاة ترسل الى باريس الا غراراً فقد كانت هي تفضل الحياة الطالقة الحرة في الريف على حيـاة المدينة المقيدة . ومنذ ثلاث سنوات لم تـكن قـد جاءت باريس مرة واحدة وكانت الكونتس تفضل أن تتركها بعيدة لئلا توقظ في نفسها النزعات الخطرة قبل اليوم المحدد لدخولها المجتمع . وكانت مدام غيروا قدهيأت لها في الريف معلمتين رفيعتي الثقافة كما كانت تكثر من زيارة امهـا وابنتها. فضلاً عن ان اقامة الفتاة في القصر كانت ضرورية نظراً لوجود المرأة الشيخة هنـاك .

وكان اوليفيه برثان في الايام الخالية يقصد قصر الرونسيير فيقضي فيه ستة اسابيع او شهرين كل سنة الا انه منذ ثلاث سنوات جره الروماتزم الى مدن المياه البعيدة الامر الذي كان يذكي حنينه الى باريس فكان لا يقوى على مغادرتها اذا ما عاد اليهـا .

لم يكن للفتاة ان تعود قبل الخريف الا ان اباها كان قد اعد لها فجاة مشروع زواج وقد استدعاهـا للتعرف بالشخص الذي اعـد ليكون زوجا لها: المركيز دي فاراندال . وقد وضع المشروع في مربة

تامة حتى ان احداً غير اوليفيه برثان لم يطلع عليه فقد اسرته له مدام غيروا . سالها : — اذن ففكرة زوجك مدروسة جيداً ؟

— اجل . واعتقد انها موفقة جداً .

ثم انصرف الى الحديث باشياء اخر . وعادت الى موضوع التصوير وحاولت حمله على رسم صورة للمسيح . فكان يقاوم معترضا ان ثمة كثيراً من هذه الصور في العالم غير انها كانت تدافع بحرارة حتى فقدت صبرها :

— آه لو كنت اتقن الرسم لكنت اريتك فكرتي . انها غاية في الجدة والجرأة : تمثله وهم ينزلونه عن الصليب وقد افلتوا يديه وتركوا جسمه يسقط فوق الجمهور الذي يدفع ذراعيه ليتلقاه ويسنده . اتفهم ؟

اجل لقد فهم . بل لقد وجد الفكرة مبتكرة . غير انه لم يجدها من ذوق العصر . ولما كانت صديقته متمددة فوق الديوان كانت احدى قدميها متدليه وقد غلفها حذاء دقيق يثير في العين الشهية من خلال جوربها الشفاف . هتف قائلاً :

— هو ذا ! هو ذا ما يجب ان ارسم ! هو ذا الحياة ! قدم امرأة تطل من تحت ثوبها ! يمكن للمرء ان يضع كل شيء فيها . الواقع ! والرغاب والشعر ! لا شيء ابدع واجمل من قدم أمرأة ! واية اسرار بعد ذلك : الساق المختبأة الضائعة تحت هذا القماش ! كان جالسا فوق

الارض فتناول الحذاء ونزعه فخرجت القـدم من غلافها الجلدي فتحركت كأنها حيوان وقـد فوجئ بالحرية . وتابع برثان : انه دقيق ناعم . أنه مادي . بل اكثر مادية من اليد . ارني يدك يا آني. كانت ترتدي قفازين طويلين يبلغان مرفقيها ، وكي تتخلص من احدهما كان عليها ان تأخذه من طرفه الاعلى ثم تسحبه كما يسحب جلد افعى يراد نزعه عن جسمها . ثم بدا ذراعها السمين الشاحب المستدير فكان في ظهوره المفاجئ ما يطير بالفكر الى عري كامل جرئ . ثم تركت يدها تسقطان تلتمع الخواتم في اصابعها البيضاء الورديه الاظافر فكانت تظهر في دقتها كأنها مخالب ينشبهـا الحب في القلوب . وراح او ليفيه برثان يداعبها بحنو معجبا . فكان يحرك اصابعها فعله بلعبة حية . قال : — يا لها اشياء عجيبة ! عجيبة ! هذه الاعضاء اللطـاف ، الذكية ، الدقيقة ،التي تنفذ كل ما يراد منها ، كالكتابة واشغال الابرة او تدبير البيوت او صنع الاهرامات والقاطرات . . . او المداعبة . . وان هذا هو عملها المفضل المحبب . وراح ينزع الخواتم الواحـد تلو الآخر . حتى حان دور محبس الزواج ، هـذا الخيط الذهبي ، فانتزعه وضحك قائلاً : — انه الوحيد الذي يفرضه الشرع . وانه ليستحق التحية .

فقالت باضطراب قليل : — يا للخبث !

انه دائما هازئ . فيه هذا الميل الفرنسي الى السخرية من اكثر

الاشياء جداً وكان كثيراً ما يلجأ الى ذلك دون ان يتعمده او دون ان يحتاط لما قد يؤدي من رد فعل لدى النساء المحصنات فكأنه بذلك يتجاوز الحدود المقدسة على حد تعبيره . اما هي فكانت كثيراً ما تغضب اذ يروح يهزأ هزءه المعتاد من علاقاتها التي استمرت طويلا حتى لكأنها النموذج الحي للحب في القرن التاسع عشر . . سألته بعد فترة صمت :

— انك ستصحبنا آنيت وانا ، الى معرض الرسم ؟

— اظن ذلك .

ثم راحت تسأله عن اجمل لوحة في المعرض المرتقب الذي سيفتح خلال خمسة عشر يوما . غير انها استدركت فجأة كأنها تذكرت شيئا منسيا .

— هيا اعطني حذائي . سأذهب .

كان يلعب بالحذاء الصغير حالما ، فيديره بين يديه المضطربتين. ثم انحنى وقبل القدم التي بدت طافية بين الثوب والبساط والتي كانت قد سكنت بعد ان بردت قليلا بتأثير الهواء ثم البسها الحذاء ، ونهضت مدام غيروا نحو منضدة تحمل اوراقا ورسائل قديمة وحديثة . ومحبرة رسام قد جف مدادها ، كانت تحدق بعين متطفلة فترفع الاوراق لتنظر تحتها . قال وهو يقترب منها :

— اراك تشوشين هذه الفوضى التي انا فيها . ودون ان يجيب سالته :

— من هو هذا السيدالذي يريد شراء لوحتك (المستحمات)؟

— انه اميركي لا اعرف اسمه .

— وهل اتفقتما على (مغنية الشارع) ؟

— اجل . عشرة آلاف .

— حسنا فعلت . سعر طيب ولكنه . . . عادي . وداعا يا عزيزي .

واقتربت منه عارضة خدها فراح يكسوه قبلاً هادئة واختفت وراء الباب قائلة بصوت خافت :—

— يوم الجمعة الساعة الثامنة . لا اريد ان توصلني . أنت تعرف ذلك . وداعا. وبعد ذهابها اشعل لفافة ثم راح يزرع مرسمه جيئة وذهابا بخطى وئيدة . وراح يستعرض تاريخ علاقته بها متذكراً الدقائق البعيدة المتوارية يبحث عنها ويربط بعضها بالبعض الآخر مهتماً بمفرده بترجيع هذه الذكريات.

كان ذلك عندما بدأ يلتمع شهابا في سماء باريس الفنية ، في الوقت الذي شرع الفنانون يستحوذون على اعجاب الرأي العام ويتربعون في القمة السامقة نتيجة لبضع ضربات بريشة الرسم

لقد بقي برتان بعد عودته من روما سنة ١٨٦٤ عـدة سنوات دون شهرة ودون ذيوع صيت ومن ثم فجأة عرض لوحته كليو باترة سنة ١٨٦٨ فرفعه النقد الفني والجمهور الى الاوج .

وبعد موت رينيو سنة ١٨٧٢ بعد الحرب ، هذا الحدث الذي وسع الطريق امام زملائه للسير قدماً ، قدم برتان (جوكاست)فكانت قنبلة الموسم بما انطوت عليه من جرءة في التعبير حتى عده بعضهم من الفنانين الوقحين الا ان المدرسيين انفسهم لم يستطيعوا الا الاعجاب بها . وسنة ١٨٧٣ نال قصب السبق ورصع صدره وسام رفيـع عندما قدم لوحته (يهودية الجزائر) التي اوحتها اليه احدى رحلاته في افريقيا ثم جاءت لوحة للاميرة ساليا فرفعته الى صف رسامي الهيئات المبرزين ومنذ هذا الوقت غدا الفنان المحبب الى كل باريسية والمسجل الامين لكل ما يزخرن به من فتنة وجمال . وفي بضعة اشهر غدا محط امل كل باريسية وما زالت شهرته تطير في افق مدينة النور حتى عرفه القاصي والداني وتزاحمت سيدات الطبقات الراقية علهن يظفرن بصورة يرسمها لهن ، وكان من الطبيعي ان تتدفق الثروة والمجـد اليه فيصبح طوع بنانه كل ما في باريس من روعة ورفاهية وجمال .

في هذه الفترة عرف آني . جاءته ككثيرات غيرها كن يقصدنه كي يرسمهن. جاءته برفقة زوجها النائب . وادرك للنظرة الاولى

ان هذه المرأة الشابة تحمل دعوة سافرة في عينيها وفي حركات جسدها البض المتعطش الى متع الحب الحقيقي اللاهب . كما ادرك ان ما ينطوي عليه جفناها من رغبات حاره ونزعات وثابه قلما يتسدل عليها جفنا امرأة .

واتفق معها على عمل اللوحة ومواعيد الزيارات وراح زوجها، استجابة لعادة التكلم في الجماهير يستفيض بامتداح الفنان معرباً له عن شديد اعجابه بكل ما تنتج ريشته من روائع اللوحات . وتلقى او ليفيه ثناءه بشيء كثير من التواضع الممزوج بالبرود . ثم راح الزوج النائب يشكر الفنان بسيل جارف من الجمل التي تنبيء عن خطيب زلق اللسان. فهو منذ مدة طويلة يود ان يعمل لزوجته صورة وطبعاً لم يكن له ان يختار سوى السيد او ليفيه رتان وهو لم يخش الرفض بالرغم من انه يعرف كم تترا كم عليه الطلبات .

وهكذا تم الاتفاق على ان يصحب زوجته الكونتس منذ الغد الى المرسم ثم عقب معرباً عن خشيته فيما اذا كان ثوب الحداد الذي ترتديه لا يحول دون تحقيق رغبته تلك فاجابه اوليفيه انه بالعكس يود ان يخرج التعبير القوي الذي يوحيه اليه التناقض بين وجه الكونتس الزاخر بالحيوية والدقة واللمعان تحت شعرها الاشقر مع سواد الثوب الفاحم .

وهكذا جاءت في الغد برفقة زوجها وفي الايام التالية مع ابنتها التي كانا يجلسانها امام طاولة مثقلة بالمجلات المصورة .

كان او ليفيه برتان كعادته يظهر كل تحفظ . ان نساء المجتمع لا يستدعين كل الاطمئنان ذلك انه لم يكن قد عرفهن قبل ذلك . فهو يفترضهن مثيرات للألم وحمقاوات في آن . اثيمات وخطرات، سخيفات ومزعجات. وكان قد حدث له مع نساء من الطبقات المتوسطة مغامرات سريعة مردها شهرته وطبعه المرح وقوامه الرياضي الانيق ووجهه الاسمر القسيم . وهو يفضل هذا النوع من النساء لأنه يشعر معهن بشيء من الحرية في القول والعمل هو المعتاد الاشياء غير المعقدة التي يقوم بها سواء في مرسمه او في مباذله . وكان قد انطلق في الحياة سعياً وراء المجد لا وراء الحب لذا كان يشعر بنوع من التفكهة عندما يتلقى ثناء او اعجاباً من السيدات المتحببات . انما دون ان يعمد الى مغازلة واحدة منهن قط . ولم يكن ليسمح لنفسه بالمزاح غير المؤدب معهن او القاء الكلمات ذات المغزى ، لذا حمل عنهن فكرة السماجة والجمود . فكلما جاءته احداهن ليرسمها شعر حيالها بهذا الفارق الذي يميز الجنسين بالرغم من انه لم يكن يعدم وسيلة للتحبب اليها . فوراء الابتسامات وكلمات الاعجاب المفتعلة كان يشعر دائماً شعور الكائن الاسمى. وقد تولد لديه نوع من الكبرياء والعجب حتى ليظن به كبر

وخيلاء . ومما زاد هذا الشعور في نفسه انه كان يعامل من الامراء والاميرات معاملة الند للند ، فهو قوي الادراك لما اسبغه عليه ذكاؤه من مركز ناله سواه وراثة دون ان يكون لهم يد في ذلك . كانوا يقولون عنه بشيء من الاستغراب : انه رجل عظيم التهذيب . ان مثل هذه الملاحظة كانت تهزه وتذكره بالحدود التي التزمها . ان هذا الوقار وهذا التحفظ كانا يضايقان مدام غيروا التي لم تكن لتجد ما تقوله لهذا الرجل ذي البرود والاعتداد .

بعد ان اجلست ابنتها جاءت وجلست فوق مقعد بالقرب من اللوحة التي بدأها مجتهدة ان تعطي هيئتها بعض التعبير كما كان يوعز اليها الفنان .

وحوالي الجلسة الرابعة توقف برثان عن الرسم فجأة وسألها :

-- ما الذي يعجبك في الحياه فوق كل شيء ؟

فاجابته وقد شعرت بارتباك امام سؤاله :-

— لست ادري ! ولكن لمَ هذا السؤال ؟

— اني ابحث عن فكرة سعيدة اضعها في هاتين العينين . ولمّا اجدها حتى الآن

— حسناً حاول ان تجعلني اتكلم فانا احب الثرثرة كثيراً .

— انك مرحة .

— مرحة جداً

— فلنثرثر ياسيدتي .

قالها بلهجة كثيرة الجد ، ثم عاود الرسم وهو يجاذبها اطراف بعض الاحاديث باحثا عن نقطة يلتقي فيها فكرهما . بدءا بتبادل الرأي ببعض الاشخاص الذين يعرفانهما ثم راحا يتحدثان عن نفسيهما هذا الحديث المستحب بين كل الاحاديث .

وفي اليوم الثاني شعرا انهما اكثر انسجاما وقد وجد برتان نفسه مرحا مسروراً فراح يتطرق الى دقائق كثيرة من حياته كفنان وقد اطلق العنان لذكرياته اذ وجد استجابة من جليسته .

وقد صدمتها هذه اللهجة الصادقة التي تسمي الاشياء باسمائها هي التي اعتادت لهجة الصالونات المهذبة الملتوية غير انها لم تشعر بنفسها الا منساقة معه بهذا السيل الجذاب الجريء .

لم تمض ثمانية ايام الا وقد قهرته ، استحوذت عليه واغرته بروحها المرحه وصدقها وبساطتها . وكانت قد انسته حكمه على نساء المجتمع وقد اخذ يؤكد ان لهن وحدهن سحراً وجاذبا لا يقاومان . وبينما كان يرسم امام لوحته يتقدم ويتقهقر بحركات رجل يناضل ، كان يترك لافكاره الخاصة العنان كما لو كان قد عرف منذ زمن طويل هذه السيدة الشقراء ذات الثوب الاسود ، كأنها مصنوعة من عسل وحزن،

الجالسة امامه تضحك وهي تصغى اليه وتجيبه مرحة بشيء كثير من الحيوية حتى لتفقد في كل لحظة الوضع المفروض للرسم .

كان يقترب منها تارة ويبتعد اخرى ، يغض عينا ويفتح الثانية ليستكشف كل خلجات وجهها وتعابيره العابرة ، ليلتقط كل ما في وجه المرأة الجميلة عدا الظواهر الخلابة ، هذه المعاني المثالية للجمال ، هذا اللا "لا" الباهر الذي لا يحيط به علم ، هذا السحر الخاص بكل امرأة لا تشاركها فيه سواها ، السحر الذي يجعل المرء يهيم بها دون غيرها .

في احد الاصائل جاءت البنية واستوت امام اللوحة يكسو وجهها جدما اكثر ما ينم عنه وجه الطفل وسالت :

— قل اهذه هي امي ؟

فاخذها بين ذراعيه ليقبلها وقد هزه ادراكها اللوحة كدليل على اتقانه عمله . وفي يوم آخر وكانت تبدو شديدة الهدوء صاحت فجأة بصوت ضعيف حزين :

= امي . اني ضجرة .

وقد تأثر الرسام بهذه الشكوى حتى انه في اليوم الثاني جاءها بعدد هائل من اللعب كاد المرسم يغص بها . فكانت دهشة آنيت الصغيرة عظيمة وسرورها اعظم وراحت تنظم الالعاب بعناية كبرى لتعاود اخذها الواحدة تلو الاخرى حسب رغبتها الموقتة . منذ هذه

اللحظة احبت الرسام كما يحب الاطفال، ذلك الحب الحيواني الذي يحيلهم وافري اللطف عظيمي النعومة .

كانت السيدة غيروا تستعذب هذه الجلسات . فهي كثيرة الفراغ هذا الشتاء ذلك انها في حدادها لا تستطيع ارتياد الحفلات والمجتمع لذا نراها تدفن في هذا المرسم كل رغبات يومها وهموم حياتها.

انها ابنة تاجر باريسي وافر الغنى،مضياف وقد قضى منذ عدة سنوات وابنة سيدة عليلة تمضي ستة اشهر كل سنة في السرير : نتيجة للعناية الشديدة التي تحاط بها .وهكذا اضحت آني وهي بعد رطبة العود سيدة بيت حقيقية ، تعلمت كيف تستقبل وتبتسم وتحادث وتميز الناس وتجيد اختيار اسلوب مخاطبة كل منهم فهي في الحياة بصيرة مرنه لبقة .

وعند ما قدموا لها الكونت دي غيروا خطيباً ادركت فوراً المغانم التي يجرها مثل هذا الزواج لذا لم تبدِ اي ممانعة فهي فتاة عاقلة تعلم جيداً ان ليس للمرء ان ينال كل ما يشتهي وان عليه ان يوازن بين الصالح والطالح في كل الامور .

هكذا انطلقت الى الحياة فاضحت قبلة الجميع لما تحلت به من وسامة ومرح . ووجدت نفسها محاطة برجال يغازلونها غير انها لم تفقد قط قلبها الذي لم يكن ليقل عن عقلها رزانة واعتدالا . . .

كانت ذات دل غير ان ذلك لم يكن ليذهب بها بعيداً . ان الثناء لما يدخل السرور الى فؤادها فهو يهدهد رغباتها المكبوتة غير انها تتظاهر بعدم ادراك شيء من ذلك فهي تنام ملئ جفنيها بعد سهرة تقضيها في صالون يحيطها فيه اعجاب الرجال ويطاردها ثناؤهم ، انها تشعر كأنها قد قامت بواجبها وادت رسالتها فوق الارض .

ان اسلوب العيش هذا قد دام سبع سنوات دون ان تشعر بانزعاج ودون ان تجد حياتها رتيبة ذلك انها تعبد هذا التموج الموزون في الحياة الاجتماعية الصاخبة بيد انها لم تكن لتعدم ساعات تتمنى فيها شيئاً جديداً . أن الرجال الذين يشكلون محيطها هم مزيج من المحامين ورجال السياسة والمتمولين ورجال النوادي الفارغي الاعمال. كانوا يجابون لها التسليه كما يفعل الممثلون ولم تكن لتنظر اليهم نظرة كبيرة الجد مع انها كانت تكن احتراماً لمراكزهم ووظائفهم والقابهم .

كان يعجبها الرسام بما وجدت لديه من جديد الطباع . فهي تجد سلوى عظيمة في مرسمه فتضحك بكل قواها وقد ادرك هو ما كانت تجده من متعة في تلك الجلسات .

كان يعجبها ايضاً لجماله وقوته وشهرته ، فمهما كانت المرأة معتدة بنفسها فلا بد لها من ان تنجذب بالجمال والمجد . وقد اطربها ان تلفت انظار هذا الفنان المتذوق الجمال وبدورها راحت تهيء

لاكتشاف نفسيته التي وجدتها نيرة ومثقفة اضف الى ذلك رقة حاشيته ودماثته ، انها جواذب حقيقة لدى رجل زكي محكم القول يخرج الكلام واضحاً والفكرة نيرة .

ان هذا التجاذب قد ولد سريعاً بينهما حتى لكأن المصافحة التي يتبادلانها لدى حضورها كل يوم كانت تعمل على مزج قلبيهما مزجاً يزداد يوماً فيوماً . حينئذ،ودون اي تفكير اواي حساب المستقبل،شعرت بميل جارف لاغواء هذا الرجل فاستسلمت الى فكرتها هذه استسلاماً كلياً . . . لم تتكلف امراً ولم تظهر ما لا تبطن وكل ما في الامر انها تركت غنجها الجذاب يفعل كغريزة انثى امام رجل يعجبها دون سواه فكانت تضع كل قوة انوثتها في نظراتها واساليبها في مخاطبته والتحدث اليه والابتسام له ، هـذا الاغواء الذي تنثره حولها الانثى التي تحس استيقاظ غريزتها كي تكون محبوبة . كانت تقول له قولاً مثيراً معناه : اني معجبة بك كل الاعجاب يا سيدي وكانت تتركه يتكلم طويلاً لتظهر له ،باصغائها اليه ، كم كانت تستعذب قوله . فكان ينقطع عن الرسم ويجلس ازاءها وفي ثوراته النفسية تلك التي تتولد من رغبة اثارة الاعجاب كان يروح يثرثر متفلسفا اوشاعراً او مهرجاً تبعا للظروف . كم كانت تسر اذ تجده مرحا ، كم كانت تجتهد في اللحاق به عند ما يروح يسبر الاعماق بفكره الثاقب غير انها

لم تكن لتقوى على مماشاته دائماً بينما تروح تتظاهر بفهم افكاره وادراك ما يرمي اليه ملتذة بان تشعر به يراقب شدة انتباهها لما يذهب اليه من القول متأثراً بما يجد لديها من عقل مثقف نير وطيّع تسقط فيه الفكرة كما البذرة في الارض .

كانت اللوحة تتقدم وتبدو متقنة . وقد بلغ الرسام بها تلك اللحظة التي يحتاج فيها الى استكشاف كل الفتنة الكامنة في صاحبتها ليستطيع التعبير عنها بتلك القوة المقنعة التي تعلن عن موهبة الفنان الحقيقي .

كان منحنيا فوقها ، يراقب كل خلجة من خلجات وجهها ، وكل تضرج يعتري خدها ، وكل ظل يطوف ببشرتها وكل تعبير تعبره عينها عن اسرار طامتها ، كانت روحه قد اشبعت منها كما تشبع اسفنجة غمست في الماء فراح ينقل الى اللوحة هذه الانعكاسات التي استطاع التقاطها والتي راحت تسيل كما الموجة من فكره الى ريشته بينما راح في استغراقة حالمة سكري كانه قد عب من سحر المرأة حتى انتشى .

وشعرت به يسكر بعطرها النافح ملتذاً بهذه اللعبة ، بهذا النصر الذي غدا داني القطوف والذي كان يثيرها هي الاخرى . ان شيئا جديداً قد دخل حياتها فاعطاها طعما جديداً موقظا فيها نشوة

سحرية بعيدة القرار . فاذا سمعت الآخرين يتحدثون عنه احست قلبها سرع الوجيب وشعرت برغبة لم تكن لتتجاوز شفتيها بان تقول : (انه يحبني) . كانت تسر اذا امتدح الناس مواهبه وتسر اكثر اذا اثنوا على جماله . واذا ما حلمت به وهي وحيدة لا تخشى تعكير حلمها تخيلته صديقها الطيب الذي يقنع دائما بضغطة خاصة من يدها ....

اما هو فكان كثيراً ما يقطع جلسة التصوير ويلقي الريشة على المحمل ويأخذ آنيت الصغيرة بين ذراعيه يحنو عليها ويقبلها في عينيها او شعرها وهو يرنو الى امها كأنه يقول لها :« هذه القبل لك وليست للصغيرة !»

ولم تكن مدام غيروا تصحب فتاتها دائما الى المرسم فهي تحضر بمفردها من وقت لآخر وفي مثل هذه الايام لم يكن العمل ليتقدم ابداً فهما يقطعان الوقت بالثرثرة .

وتأخرت ذات اصيل . كان البرد شديداً . فنحن في اواخر شباط . وكان اوليفيه قد عاد مبكراً كفعله في كل مرة يترقب قدومها املا في ان تأتي قبل الموعد . كان يقطع المرسم ذاهبا غاديا يدخن لفافته . والقى على نفسه هذا السؤال للمرة المئة . منذ ثمانية ايام : الست عاشقا؟ ليس يدري . وربما لم يكن قد اصبح حتى تلك الساعة عاشقا ولكن كيف يفسر هذا الشعور الذي يداعبه . انه لا يعتبره حبا . الا ان انه اليوم يستغرب هذه الخلجات ...

او تحبه هي ؟ وطبعا لم يكن ليملل نفسه كثيراً بهذا السراب الخلب ! امّا ان تصبح له فذلك يبدو مستحيلا . فما ان تعجبه امرأة حتى تجتاحه الرغبة فيمد ذراعيه نحوها كما نحو ثمرة يود اجتناءها ولكن دون ان تضطرب افكاره لبعدها او يستطار لقربها . امّا هذه المرأة فالامر مختلف فما ان لامسته الرغبة فيها حتى شعر بها تتمكن من قلبه مختبئة وراء عواطفه التي لم تكن قد تبلورت بعد .

كان اوليفيه يعتقد ان الحب يبدأ بالاسترسال وراء الاحلام والتخيلات الشعرية . امّا ما يحسه الآن فعلى العكس ، يبدو منبثقا من اهتزازات لا يستطيع عنها تعبيراً ، جسدية وروحية في آن . كان متوتر الاعصاب ، مرهف الحس ، مضطربا ، كما يكون المرء عند ما يشعر ان مرضا يجتاح كيانه . لا شيء يؤلمه بيد ان الحمى تتمشى في عروقه فتتعدى الى تفكيره فتثيره فيغدو محموما بالعدوى . وهو لا يجهل ان مدام غيرو هي مبعث هذا الداء . يعرف ذلك مما تتركه من ذكريات ، ومن انتظاره لها عندما تدنو ساعة حضورها . فهو لا يشعر نحوها باندفاع كلي انما يحسها هي مقيمة في اعماقه كانها لم تفارقه قط فهي اذ تغادره تترك شيئا من نفسها له ، شيئا لطيفاً لا يستطيع له وصفاً .

ماذا ؟ أهذا هو الحب ؟

انه الآن يسبر اغوار قلبه ليستكنه خفاياه . انه يستنطقها بالرغم

من انها لا تنطبق تماماً على الفكرة التي كونها لنفسه عن المرأة التي يبحث عنها . وبالرغم من ان مدام غيروا تعجبه جداً الا انها لاتتمتع بالصفات المنشودة .

ولكن لِمَ تشغل من تفكيره كل هذا الحيز ؟ لِمَ يهتم بها اهتماماً اكبر مما يفعل حيال غيرها من النساء . ايكون قد سقط فقط في احبولة نصبها غنجها وانوثتها الطاغية ؟هو الذي طالما عرف هـذا النوع من النساء ذوات الميول العابرة ! ايعود للسقوط في مثل هـذه الشباك التي تنصبها نساء لاهم لهن الا الاغواء والاغراء ...

كان يسير ثم يجلس ثم يعود الى السير يشعل لفافة ثم يلقي بها فجأة وانظاره عالقة في عقربي الساعة اللذين يسيران الى الساعة الموعودة ببطء وتراخ ....

وقد خطر له ان ينتزع زجاجة هـذه الساعة ويدفع بالعقربين الذهبيين الدائرين بطرف اصابعه الى الرقم المنشود الذي يجـدان نحوه بكسل شديد .

وخيل اليه ان مثل هذا العمل كفيل بان يفتح الباب ويراها داخلة وقد خدعتها حيلته .... ثم يروح يبتسم من هذه الرغبة الصبيانية البعيدة التصديق .

والقى على نفسه هذا السؤال : ايمكن ان اصبح عشيقها ؟بدت

له هذه الفكرة خرقاءغير قابلة للتحقيق فلا يمكن مجاراتها اذ انها قمينة بان تجلب لحياته المتاعب والمشاكل. غير ان هذه المرأة تعجبه كثيراً! واستخلص قائلاً: «لا ريب في ان موقفي حرج غريب»

وازفت الساعة. وجعله رنينها ينتفض واخذت اعصابه تتوتر، وروحه تضطرب. كان ينتظره بصبر فارغ يزيده التأخر لحظة اثر لحظة..

انها لم تخلف موعده قط. ولا بد ان تظهر خلال عشر دقائق فيراها داخله عليه وما ان مضت الدقائق العشر حتى وجد نفسه بالغ الاضطراب كانه بانتظار حلول مصاب. الا يمكن ان تتعمد اضاعة بعض وقته؟ وخلص الى التفكير في انها ان لم تأت فسيتألم بالغ الالم. ما الذي هو فاعله؟ سينتظرها! ــ كلاّ. لا بل سيخرج حتى اذا جاءت متأخرة وجدت المرسم خالياً. ولكن متى يتوجب عليه مغادرة المرسم؟ وكم من الوقت يجب ان يعطيها علها تحضر؟ اولا يجدر به ان يبقى حتى اذا جاءت افهمها بكلمات مهذبة بارده انه ليس من ذلك النفر الذي تخلف معه المواعيد. وان لم تأت؟ لابد ان ترسل اليه برقية او بطاقة او خادما يقدم الاعتذار. واذا وقع ذلك فما تراه فاعلاً؟

لا ريب في انه يكون قد اضاع يوما من حياته فهو لن يقوى على العمل بعد ذلك..

وحينئذ! حينئذ لا بد له من الذهاب اليها مستفسراً ...

لأنه يشعر رغبة في رؤيتها.هذا صحيح . انه يود رؤيتها وهـذه الرغبة عميقة الغور في نفسه ، ملحة ، تكاد تحطم اعصابه · ماهذا ! اهو الحب ولكنه لا يشعر انتفاضاً في عقله ولا هياجاً في عروقه ولا اندفاعاً مـع الخيال في فكره الا انه قد خلص الى الشعور بانه ان لم تأت هذا اليوم فسيتألم كثيراً . وقرع الجرس في مدخل مسكنه . وشعر او ليفيه برتان بانتفاضة مفاجئة ثم طغى عليه سرور غريب فالقى لفافته بحركة بهلوانية

ودخلت . كانت بمفردها . وبدرت منه جرأة متناهية فجأة:

— اتدرين عن اي شيء كنت اسائل نفسي وانا انتظرك !

— كلا لا ادري .

— كنت اتساءل : أأنا قد احببتك !

— احببتني ! ؟ اراك تفقد ادراكك

واتبعت ذلك بابتسامة . وقالت له ابتسامتها : هذا لطيف منك وانا به عظيمة السرور » وتابعت :

— لا اخالك جاداً . ما الذي يدعوك الى مثل هذا المزاح !

اجاب — اني جاد كل الجد . فانا لا اؤكد لـك اني احبك وانما اتساءل اذا لم اكن اوشك ان احبك .

— ما الذى يحدوك الى مثل هذا التفكير ؟

— اضطر ابي عند مالا تكونين معي، وسعادتي لدى حضورك

وجلست : —لا تهتم لمثل هذه التوافه • فما دمت تنـام جيداً وتأكل بشهية فليس ثمة خطر ! وضحك قائلا :

— واذا دهمني الارق وجفتني الشهيه !

— أخطرني !

— وبعد ؟

اتركك تشفى بسلام .

— شكراً لك !

وعلى موضوع هذا الحب قضيا بعد الظهر كله في تفكهة وترويح وهكذا في الايام التالية ، وقد تقبلا ذلك كأنه مزاح لا اهمية له. وسألته بلهجة جدية عندما دخلت :

— كيف حال حبك اليوم ؟

فكان يصف بلهجة جدية ناعمة كل تطورات مرضه ، وكل شيء عن عمل هذا الحب في نفسه وافكاره الخاصة ، هذا الحب الآخذ بالاشتداد يوماً فيوماً .

فكان يحلل نفسيته بدقة امامها ، ساعه فساعة ، منذ فراقها مساء اليوم السابق. كان يقول ذلك بطريقة استاذ يلقي محـاضرة تحليليـة . وكانت هي تصغي اليه بالفة الاهتمام قليلة الاضطراب شديدة التأثر

بهذه القصة التي يخيل اليها انها تقرأها في كتاب هي بطلته . وبعد ان عددلها باهجة مهذبة مراحل الاضطراب النفسي الذي غـدا فريسة له راح صوته يتهدج وهو يعبر لها عن خلجات قلبه ونزعات نفسه . وكانت تسائله دائما مندفعه بحب الاستطلاع وقد ثبتت عليه عينيها ، واذنها متعطشة لسماع هذه الاشياء التي لا تثير اضطرابا لدى الاصغاء اليهـا غير انها باللغة العذوبة جميله الوقع .

وكان احيانا عندما يدنو منها لاصلاح وضعها يأخذ يدهـا ويحاول تقبيلها فكانت تجذبها منه وقد قطبت حاجبيها وتقول :

— هيًّا الى العمل .

ويعود الى العمل ولكن ما ان تمضي دقائق خمس حتى تلقي عليـه سؤالا يحمله الى معـاودة الحديث في الموضوع الوحيد الذي يشغلها .

وبدأت تحس خوفا مبهما يولد في قلبها . انها ترغب في ان تـكون محبوبة ولكن الى حد . كانت واثقة من انها لن تجاريه في اندفاعه ومن هنا تولدت خشيتهـا في ان يندفع بعيدا فتضيعه اذ انهـا ستجبر على تحطيم آماله بعد ان تـكون قد شجعته وان هي تنـكرت لهذه الصداقة منذ الآن ، لهذا السمر المستحب المشتهى الذي يسيل كماء جدول بين حصي ذهبية ، فلا ريب في انها ستشعر بحزن عميق

والم بالغ كأنه تمزيق الاعضاء .

فهي عندما تغادر بيتها لتذهب الى المرسم كانت تحس سروراً قويا حاراً يغمرها فيحيلها خفيفة وسعيدة . وما ان تضع اصبعها على جرس مسكن اوليفيه حتى تشعر بفراغ صبرها والبساط الذي يغطي السلم كان انعم ما وطئته قدماها .

اما برتان فقد غدا في المدة الاخيرة قاتم التفكير ، ثائر الاعصاب ، مرهف الحس اكثر الاحيان — وكثيراً ما كان يشعر بفراغ صبر يجتهد في كتمانه واخفائه .

وذات يوم ، لدى حضورها ، جلس بالقرب منها بدلا من ان يشرع بالرسم وقال لها :

— لا يمكن لك ياسيدتي ان تتجاهلي الآن ماصرت اليه . أني احبك بجنون .

وصعقت امام لهجته الجدية القوية واحست بعاصفة عاتية توشك ان تهب فحاولت ايقافها غير انه لم يعرها اذنا صاغية . كان التأثر قد طغى على قلبه وفاض فكان عليها ان تصغي اليه شاحبة مرتجفة الاوصال قلقة . اما هو فراح يتكلم بلا انقطاع ودون ان يطلب شيئا معينا ، وكانت لهجته مشبعة بالحنو والحزن والتصميم التعس وتركته يأخذ يديها بين يديه طوال الوقت . كان امامها وعلى ركبتيه ودون

ان تنتبه هي لذلك وبنظرة هادئة كان يضرع اليها الا تسيء اليه . اية اساءة ! لم تكن لتفهم ولا تحاول ان تفهم غير ان حزنا فتاكا استغرقها وهي تراه يتألم وهذا الحزن كان يلتقي طرفه بطرف السعادة . ورأت فجاءة الدموع في عينيه فبلغ من تأثرها ان افلتت من بين شفتيها تنهدة حارة . كانت مستعدة لعناقه كما يعانق المرء طفلاً يبكي. وكان يردد بصوت لطيف حزين : هاانذا اتألم كثيراً .. وراحت فجاة بعدوى من الامه ودموعه تشهق باكية وقد توترت اعصابها واضطرب ذراعاها حتى اوشكا ان يمتدا اليه ويحتوياه.

وشعرت فجاة انها انساقت بتياره عندما ضمها اليه وصهر شفتيها بقبلة محمومة .حاولت ان تصرخ ، ان تقاوم ، ان تدفعه ،غير انها ادركت انه ليس ثمة فائدة ترتجى لقد اضاعت نفسها بيد انها لم تفقد كل مقاومة فاستسلمت اليه في شيء من المقاومة فكانت تشد به الى صدرها وهي تقول : « لا .. لا .. لا اريد .. لا اريد .. »

واقامت فترة مضعضعة الحواس ، وقد غطت براحتيها وجهها ثم نهضت فجاة والتقطت قبعتها التي كانت قد سقطت فوق البساط وفرت مسرعة رغم رجاء اوليفيه الحار وتعلقه بطرف ثوبها .

ما ان وجدت نفسها في الشارع حتى شعرت بميل الى الاستلقاء فوق اول رصيف فهي تشعر جسمها محطما وساقيها لا تقويان على

حملها .. ومرت بها مركبة فاستوقفتها وصعدت وامرت السائق ان يسير بها متمهلا حيثما يريد .. والقت بنفسها في العربة واحكمت اغلاق الابواب وقبعت في الزاوية وقد دهمها شعور بالوحدة . انها وحيدة وحيدة وراء هذا الزجاج المرفوع . . وحيدة مع افكارها فقط . ولم يكن في رأسها خلال الدقائق الاولى سوى دوي العجلات واهتزازات العربة كانت تحدق في المنازل والسابلة وراكبي العربات بنظرات فارغة كانها لا ترى شيئا ولا تفكر بشيء كأنها كانت تستمهل افكارها وتعطيها فترة استجمام قبل ان تشرع باستعراض ماحدث لها .

ومن ثم هتفت بنفسها وقد نشط تفكيرها : هانذا امرأة مضيعة ! واستغرقها لفترة قصيرة هذا الشعور الصارم بالخطب الذي حل بها فلا يمكن اصلاحه . كانت كانسان سقط من عل فاستكان دون حراك ظنا منه ان ساقيه قد تحطمتا ولن يستطيع لهما تحريكا ..

ولكن بدلا من ان يدركها رعب من جراء هذا العذاب الاليم الذي تنتظر حلوله وتهلع للقائه خرج قلبها من هذه الكارثة هادئا وادعا . كانت تضطرب اضطرابا هادئا بعد سقطتها تلك التي ابهظت ضميرها ولم تحاول ان تقاسم عقلها رعبه الذي اجتاحه بعنف ورعونة .

ورددت بصوت مسموع كانها تود استيعاب كلماتها والاقتناع

بها : هانذا امرأة مضيمة .. » ولم ينبض عرق بها لصدى شكوى ضميرها هذه . وتركت نفسها تتأرجح فترة مع اهتزاز المربة وقد القت جانبا هذه الافكار التي تدور حول الموقف المريع . كلاّ فهي لا تتألم لما حدث ، و كل ماتستشعر هو الخوف ، الخوف من الادراك والتفكير وعلى العكس فقد احست بما يولده لدينا الكفاح ضد ميولنا ورغباتنا ، احست بسرور طاغ حيال ذلك .

وبعد نصف ساعة من هذه الراحة الغريبة ادركت ان اليأس الذي نشدته لن يأتي ابداً فتخلصت من فتورها وتمتمت : انه لامر غريب ! لست حزينة !

ثم راحت تكيل لنفسها اللوم ، وشعرت بغضب طاغ يهب في في داخلها لقصر نظرها وضعفها. كيف لم تدرك مسبقا هذه النتيجة ؟ ان ساعة هذا الكفاح قد دقت ؟ وان هذا الرجل يشوقها لدرجة تكفي للاسفاف بها امامه ؟ وان النفوس الاشد استقامة تهب فيها هذه الزوابع التي تودي بالارادة ؟ وراحت تتساءل عما سيحدث بعد ان كالت لنفسها اللوم والاحتقار جزافا . واول مشروع فكرت به هو ان تقطع كل علاقة مع الرسام وتمتنع عن رؤيته. وما ان اتخذت هذا القرار حتى تصالحت عليها الافكار والحجج لضحده .

كيف تفسر هذا الضجيج ؟ ما الذي ستقوله لزوجها ؟ وهذه

الحقيقة الن تذاع وتهمس بها الشفاه حتى تصبح احدوثة المجتمع

اولا يجدر بها ، لانقاذ المظاهر على الاقل ، ان تلعب مع اوليفيه الدور الدنيء بان تتظاهر بعدم الاكتراث والنسيان ،وبان تبدو امامه وكأنها قد محت تلك اللحظة من ذاكرتها ومن حياتها ؟

او تستطيع الى ذلك سبيلاً ؟ او تكون لها القحه الكافية لتتظاهر امامه انها نسيت كل شيء ؟ او تتوصل الى النظر اليه باستغراب وتساؤل كأنها تقول دهشة : ما الذي تبتغيه مني ؟ أتستطيع ذلك حيال الرجل الذي قاسمته تلك الخلجة العابره العنيفة !

وفكرت طويلاً بيد انها لم تجد حلاً آخر ممكن التحقيق ستذهب اليه اذا كان الغد ، بشجاعة ، وتفهمه حالاً ما الذي تريده وما الذي تطلبه منه والذي تريده يختصر في ان عليه الا يشير الى ماحدث بكلمة او بنظرة مما يذكرها بذلك الموقف المهين .

ولا ريب في انه سيتألم كثيراً الا انه كرجل مهذب مستقيم لن يسعه الا الاستجابة الى رغبتها فيبقى في المستقبل كما كان حتى تلك الساعة .

وما ان خلصت الى هذا القرار حتى اعطت للسائق بعنوانها وقصدت البيت فريسة لتأثر عميق ولميل شديد للذهاب الى فراشها قبل ان يقع نظرها على اي كان وان تنام وتنسى . وبعد ان اعتزلت في

غرفتها تمددت فوق مقعد وراحت تنتظر ساعـة المشاء في استغراق ابله متعمدة الا ترهق افكارها بالحادثة الخطيرة . وخرجت في الساعة المشاء المعينة وقد دهشت لهدوئها فهي تنتظر زوجها بوجهها العادي دون ان يعتورها اي اختلاج . ودخل زوجها يحتضن ابنتها بين ذراعيه فضغطت يده وعانقت البنية دون ان تحس اي ضيق .

وسألها السيد غيروا عما عملته . فاجابته بعدم اكتراث انها جلست امام الرسام كفعلها كل مرة .

— واللوحة ؟ اهي جميلة ؟

— انها موفقة جداً .

وبدوره راح يحدثها عن الاشياء التي يحب ان يتحدث عنها اثناء تناول الوجبات : عن اجتماعات المجلس ومناقشاته حول مشروع قانون تعديل الانتاج .

كانت هذه الثرثرة محتملة في الماضي اما الآن فهي تثيرها . انها تنظر الى هذا الرجل السوقي الذي يهتم بمثل هذه الاشياء بابتسامة وهي تصغي اليه وتجيبه بلطف بل بالطف مما اعتادت . كانت تفكر وهي تنظر اليـه : « لقد خنته ، وهو زوجي اليس ذلـك غريباً ، لا شيء يمكن ان يزيل هذه الوصمة . لقد اطبقت عيني . لقد استسلمت خلال لحظات قلائل لقبلات رجل فانا لم اعـد امرأة وفية ! انها لحظات !

لحظات في حياتي لا يمكن ازالتها. لقد ارتكبت خلال هذه اللحظات ما لا يمكن اصلاحه ، انها جريمة ، بـل احط جريمة بالنسبة لأمرأة شريفة . . . ومع ذلك فلست اشعر يأساً . ولو قيل لي دلك امس لما استطعت تصديقه . ولو أُكد لي وقوع مثل ذلك لاجتاحتني ندامـة قمينة بتمزيقي ارباً . والآن . . لست اشعر بشيء من كل ذلك .»

وخرج زوجها بعد العشاء كما اعتاد ان يفعل كل يوم تقريباً .

واخذت ابنتها فوق ركبتيها وراحت تقبلهـا وتبكي . بكت بدموع صادقة ، دموع ضميرها لا دموع قلبها .

غير أنها لم تنم تلك الليلة قط .

كانت مغمورة بظلام غرفتها . وقد ادركها اضطراب عظيم لما تنتظر من تصرف الرسام حيالها . وادركها الخوف من الغد . من لقائه والالقاء اليه بما تود قوله وجهاً لوجه. ونهضت مبكرة . ومكثت معظم قبل الظهر متمددة فوق كرسيها الطويل مستعيدة كل ما يمكن ان يحدث لها ، كل ما ستجيب به متخذة كل حيطة للرد على كل مفاجأة .

وخرجت مبكرة ايضاً لتتيح لنفسها فرصة التفكير وهي سائرة .

لم يكن ينتظرها . بل كان يتساءل منذ مساء الامس كيف سيكون نهجه حيالها في المستقبل .

فبعد ذهابها او بالاحرى هربها الذي لم يجرؤ على الحيلولة دونه مكث وحيداً مصغيا الى وقع خطاها وحفيف ثوبها رغم كونها قد ابتعدت والى صوت اغلاق الباب بيدها العنيفة وهي خارجة.

وبقي واقفاً بفمه سرور جارف عنيف فوار. لقد تغلب عليها هي! لقد حدث ذلك بينهما! أيمكن هذا؟ كان الانتصار مفاجئاً وها هو يتلذذ بطعمه وليتاح له هذا التلذذ بشكل اعمق جلس بل استلقى فوق الديوان الذي كان مسرح انتصاره.

واقام طويلاً تغمره هذه الفكرة: انها الآن عشيقته! لقد اوثق، في لحظة قصيرة، بينه وبين المرأة التي طالما اشتهاها، ذلك الرباط السري الذي يشد مخلوقين شداً لا تنفصم له عرى. انه لا يزال يحتفظ في كل عرق من عروق جسده المرتجف بتلك الذكرى العنيفة التي تركتها تلك اللحظه الخاطفة حيث التقت شفاهما واتحد جسداهما لينعما باعظم انتفاضة من انتفاضات الحياة!

ولم يخرج هذا المساء كي لا يفقد هذه الفكرة وذهب الى فراشه مبكراً والسعادة تفعم نفسه اي افعام.

وما ان استيقظ في صبيحة اليوم التالي حتى القى على نفسه هذا السؤال ما تراني فاعلاً؟ لو كانت صديقته غانية او ممثلة لارسل اليها ازهاراً او حلية، غير انه اقام محيراً امام تناقض موقفها ذاك.

لا ريب في ان عليه ان يكتب . . ماذا ؟ وراح يسود الصفحات ويشطب السطور ثم يمزق الاوراق ثم يعاود الكتابة . . . عشرين رسالة . . . وجدها كلها جارحة سخيفة بغيضة .

كان يود ان يعبر لها باسلوب ناعم عن اعتراف روحه بجميلها ويصور لها هيامه المجنون بها ويقدم لها اخلاصه ونفـانيه ، الا انـه لم يجد سوى جملا ركيكة عادية ليعبر عن كل هذه الاشياء الحارة . . جملاسخيفة ممجوجة خشنة صبيانية.

وانصرف عن فكرة الكتابة وقرر ان يذهب للقائها عند ما تمر ساعة حضورها الى المرسم لأنه لم يكن ليتصورانها ستأتي .

واعتكف في المرسم امام اللوحة التي تمثلها . كان يود لو يلصق شفتيه فوق الاصباغ التي تمثل شيئا من سحرها ، وكان بين الفينة والاخرى ، يطل بانظاره الى الشارع عبر النافذة .

وكلما لمح ثوب امرأة من بعيـد يعلا وجيب فؤاده . عشرين مرة خيل اليه انه يراها تخطر قادمة ولا يدرك خطأه الا بعد ان تفوته المرأةالقادمة فيعود الى جلسته لحظة محطم الاعصاب بعد اخفاقه.

ولمحها فجأة ، فتشكك ، واخذ منظاره فاستوثق ، واحس تأثرا عميقا يستبد به ، وجلس ينتظرها .

ولما ولجت المرسم القى بنفسه الى ركبتيها وحاول اخذ يديها،

فانتزعتهما منه بعنف ، فاقام تحت قدميها رافعا اليها عينيه . قالت له بترفع :

— ما ذا أراك فاعلا يا سيدي . انا لا افهم لتصرفك معنى ؟

فتمتم : آه .. يا سيدتي ... اني ارجوك ...

فقاطعته بعنف :

— انهض . فانت مضحك هكذا .

ونهض فزعا وتمتم :

— ما ذا دهاك ؟ ولمَ تعامليني هكذا وانا اهواك ؟

وبكلمات قلائل جافة ، افهمته حينئذ ارادتها ، واعادت الامور الى نصابها :

— لست افهم ما تريد قوله ! لا تحدثني ابداً عن حبك . وان فعلت غادرت هذا المرسم فلا اعود اليه ابداً . فاذا نسيت هذا الشرط مرة واحدة امامي فلن تقع علي منك عين قط

كان ينظر اليها مستطار اللب لهذه القسوة غير المنتظرة . واخيراً فهم . واجاب :

— حسنا ساصدع بالامر يا سيدتي .

فاجابت :

— حسنا جداً . هذا ما انتظرته منك . والآن الى العمل . فقد طال بك الوقت للفراغ من هذه اللوحة .

واخذ ريشته وشرع يرسم بيد مرتجفة وقد علت عينيه غشاوة فلا تريان . كان يميل الى البكاء لأن قلبه قد تحطم وانسحق .

وحاول ان يخاطبها فكانت تجيبه باقتضاب . ولما حاول ان يمتدح زيها اجابته بلهجة صارمة شعر معها ان الحب يوشك ان ينقلب كراهية وبغضا . وحدث في روحه وجسده مما انقلاب عصبي غريب انه يكرهها . اجل . انها امرأة ! امرأة كغيرها من النساء . هي الاخرى . ولِمْ لا ؟ انها متقلبة ، مخطئة وضعيفة ككل بنات جنسها لقد حاولت اجتذابه واغراءه باساليب فتاة صغيرة ثم بعد ان شغفته حبا رفضت ان تقدم له اي شيء لا جنة الى احط اساليب الغواني الرخيصات المستعدات دائما للتخلص من ثيابهن قبل ان يصبح الرجل الذي يغوينه ككلب الشارع يجري لا هثا خلفهن . تمساً لها . لقد نالها ، لقد امتلكها ! فلتقل ما بدا لها . لتجبه باية لهجة تشاء فلن تستطيع محو شيء مما حدث اما هو فمن السهل ان ينساها .

لا ريب في انه احسن صنعا بتخلصه من مثل هذه العشيقة التي لو استمرت علاقتها لسحقت حياته الفنية ولمزقتها بمخالبها الجميلة .

وادركته رغبة في ان يصفر حيالها كما يفعل تماما (النماذج) التي تقف امامه غير ان توتر اعصابه ، وخوفه من ان يرتكب حماقة ما ، جعله يعمد الى اختصار الجلسة مدعيا ان ثمة موعداً هاما ينتظره .

وعند ما تبادلا التحية ساعة فراقهما شعرا انهما لم يكونا متباعدين يوم التقيا للمرة الاولى اكثر منهما الآن .

وما ان ذهبت حتى اخذ قبعته ومعطفه وخرج . كانت شمس باردة تتكبد سماء شاحبة الزرقة ملطخة بالضباب ، تلقي على المدينة نورها الشاحب الحزين ...

ما ان سار بعض الوقت بخطى سريعة مترددة مستضما بالسابلة لئلا يحيد عن الخط المستقيم ، حتى بدأت غضبته منها تضعف وتتحول الى أسف وندم . وبعد ان تذكر كل اساءاتها اليه راح يقارن بينها وبين النساء العابرات فيجدها اجملهن واكثرهن جاذبية واغراء وكالكثرين في مثل حاله راح يعلل نفسه بلقاء على غير ميعاد شاعراً ذلك الشعور الطاغي الفريد الشيق الذي يضفيه الخيال على قلوبنا . الم يكن عليه ان يحصل على كل ذلك ؟ او لم يكن بمقدورها هي ان تقدم له كل هذه السعادة ؟ لِمَ لم يتحقق شيء من كل ذلك ؟ لم لا نتمكن من الحصول على كل ما نبتغي ، او نحصل على جزء ضئيل لا يزيدنا الا تشوقاً الى هذه الاماني المعذبة المؤلمة !..

انه لا ينشد هذه المرأة بالذات . انما يبتغي الحياة من ورائها والآن انه يفكر لِمَ هو يريدها وما الذي يبتغيه منها ؟ وبما يستطيع ان يصمها به . ألا انها كانت لطيفة وناعمة معه ؟ اما هي فتستطيع ان

تنظر اليه نظرتها الى لص . وعاد والحزن يكاد يزهق انفاسه . كان عليه ان يعتذر منها . ان يجعلها تنسى ان يعمل كل طاقته ليكون لها ، فيما بعد ، طيعاً منحنياً امام ارادتها .

وجاءت في اليوم التالي تصحبها ابنتها . وقد علت شفتيها ابتسامة كئيبة كانت قبل ذلك لامعة مشعه ، وبدا في عينيها الزرقاوين المسكينتين لمعان يحمل ندماً وانسحاقاً ينمان عما يقاسيه قلب هذه المرأة لقد حركته شفقة عليها وليحاول صرف ذهنها عن كل ماله مساس عما حدث راح يحيطها بعناية كبيرة في منتهى اللطف والايناس . كانت تجيبه بلطف ، وحسن طوية ، وبلهجة امرأة تعبة محطمة يبهظها الم عظيم .

اما هو فما ان ينظر اليها حتى تعاوده فكرته الجنونية في ان يحبها ويكون محبوباً منها . وكان يسائل نفسه كيف لم تغضب اكثر من ذلك . كيف استطاعت العودة اليه وسماع حديثه واجابته وتلك الذكرى تجثم بينهما .

ان المرأة التي تكره رجلاً اغتصبها لا تستطيع مقابلته دون ان ينفجر فيها حقدها الدفين وكراهيته اللاهبة . غير ان الرجل لا يستطيع ان يبقى جامداً حيال مثل هذه المرأة . فاما ان تحقد عليه او ان تسامحه . فاذا هي ساعته اضحت قريبة من ان تحبه .

كانت هذه الافكار تدور في رأسه وهو يتابع الرسم فيشعر بنتيجتها انه اصبح سيد افكاره والمسير لها .

وخلص الى التفكير انه بشيء من الصبر والدراية والحنكة يتوصل غداً او بعد غد الى استعادتها والتنعم بوارف حبها .

وقد عرف كيف ينتظر . ولم يعدم وسيلة يلجأ بها الى الاحتيال كما فعلت هي فكان يحيطها بحنوه الخاص ويتظاهر امامها بالندامة لما بدر منه وبغير ذلك من التصرفات التي تنم عن قلة اكتراث ..

كان مطمئنا الى النتيجة . الى السعادة المرتقبة آجلاً او عاجلاً . ولم يعدم شعوراً باللذة غريباً اذ وجد نفسه قليل اللهفة ، مقيماً بالانتظار. وكان يقول : انها خائفة ، اذ يراها قادمة دائماً مع ابنتها .

واحس ان التقارب بينهما يسير بشكل بطيء وان في نظراتها شيئاً غريباً ، متناقضاً ، لطيفاً غير انه مؤلم ، لأن روحها في نضال هائل وارادتها في اصطراع مرير وكأنها تقول : لا احتمل مزيداً »

وبعد مدة من الزمن صارت تأتي بمفردها وقد وثقت من حسن سيرته حيالها . وحينئذ راح يعاملها كصديقة ورفيقة ، يحدثها عن نفسه وعن مشاريعه وعن فنه كما يحدث اخاً له بذلك .

لقد اجتذبها بهذا الاهمال كحبيبة . وكذلك سرها ان يجعل منها مشيرة له ، وان يميزها بذلك عن غيرها من النساء ،

واقتنعت بان مواهبها قد جعلته يحمل عنها فكرة ارفع . غير انه لشدة استشارته لها واخذه بآرائها جعلها تصبح بالنسبة اليه مع الزمن موحية اكثر منها مشيرة .

وقد سرها جداً ان تبسط نفوذ افكارها على مثل هذا الرجل العظيم ، واعتقدت انه يحب فيها الفنانة التي توحي اليه كثيراً من لوحاته

وذات مساء . بعد حديث عن عشيقات الفنانين تركته ياخذها بين ذراعيه ودون ان تحاول فكاكاً راحت تبادله قبلاته .

لم تشعر حينذاك بندامة . الا انها ، ارضاء لعقلها و كبريائها اقنعت نفسها أن ثمة قضاءً وقدراً ليس لهما محيص عنهما .

لقد اجتذبها اليه قلبه البكر وروحه التى كانت عاطلة ، وذالك الذهاب البطيء المستمر الذي اتاح له امتلاك جسدها ، كل ذلك جعلها تتعلق به تعلق امرأة طرية العود تحب حبها الاول .

اما هو فكان حبه ثورة عنيفة عاتية شعرية . فكان يخيل اليه احياناً انه يطير بها بين ذراعيه في سموات الحب البالغة الروعة محمولين على خيال مجنح بديع ذلك الخيال الذي يطوف بآمالنا ويداعبها دون انقطاع .

لقد انتهت صورة الكونتس . فجاءت ولا ريب خير ماابدعته ريشته ، ذلك انه استطاع ان يضع فيها هذا الشيء الذي لا يدرك ،

ولا يمكن التعبير عنه ، الذي يصعب على الفنان كثيراً ابرازه على الوجوه . هذا السر ، صورة الروح التي تطفو ، دون ان تدرك ، فوق الوجوه .

ومرت الشهور ، وتلتها السنون ، فما زادت ذلك الرباط الا متانة ووثوقاً تلك الصلة التي ربطة الكونتس غيروا والفنان اوليفيه برتان .

لم يعد لبرتان ذلك الشعور الذي كان لديه في الايام الخوالي . فقد انقلب الى عاطفة هادئة عميقة ، الى نوع من صداقة يمازجها الهوى . وقد اعتاد ذلك فلم يعد ينزع الى تغيير شيء فيه .

اما هي ، فكان تعلقها به عشقاً لا هوادة فيه ، عشق امرأة تعطي لرجلها كل شيء دفعة واحدة والى الابد . كانت مخلصة ووفية في علاقاتها المجرمة تلك كما كانت في الزواج ، وانتهى بها ذلك الى عاطفة فريدة لا يستطيع شيء تحويلها عنها . لم تكن تحب عشيقها فحسب ، انما كانت تريد ذلك الحب . وكانت عيناها لا تفارقانه قط وهي على مثل اليقين من ان شيئاً آخر لن يقوي على تحويلها عنه . لقد ربطا حياتهما بمحض اختيارهما كما يتماسك شخصان بالاكف قبل ان يثبا من علٍ الى الماء طلباً للموت وهما يجهلان السباحة .

بيد أن الكونتس ، منذ ان استسلمت الى برتان كانت تشعر

بالمخاوف تهاجمها . اتراه يثبت على حبها ؟ لا شيء يمسك به مخلصاً سوى ارادته كرجل ، واعتداده بنفسه ، فقد يشتهي امرأة يصادفها اشتهاء عابراً كما حدث له مع نساء عديدات اخريات . وكانت تجده متحرراً سهل الانقياد ، غير معصوم عن السقوط هو الذي يعيش دون اية مسئولية او واجب او عادة ملازمة كبقية الرجال . انه جميل ، ذائع الصيت ، مرغوب ، يجد في اية ساعة تحت تصرفه معظم نساء المجتمع اللواتي لا تردعهن حشمة ، وكذلك قل عن نساء الملاهي والفنانات اللواتي لا يحلمن بخير منه . ان اية منهن تستطيع في اي يوم ان ترافقه بعد العشاء ... ثم تحتفظ به لنفسها .

وهكذا عاشت في هلع من ان تفقده . مراقبة حركاته ، ونبراته ، تقلقها كلها ، وتشقيها ملاحظة اعجاب يبديها بامرأة اخرى و امتداح وجه لامرأة سواها او سحر طلعة تمر به . فكل ما تجهله من حياته يخيفها وكل ما تعرفه يحمل اليها القلق والاضطراب . ولدى كل لقاء كانت توجه اليه الاسئلة البريئة الظواهر لتطلع على ارائه بمن قابل من الناس او البيوت التي دعي لتناول الطعام فيها ، ولتسجل تأثراته الطفيفة بكل مايصادف في حياته . فما ان تشعر بان ثمة من يستحوذ على جزء من تفكيره حتى تروح تحارب هذا التأثر بشتى الطرق ومختلف الوسائل .

كانت تشعر احياناً بهذه الدسائس القصيرة القريبة الغور التي لا تستمر اكثر من اسبوعين والتي لا تخلو منها حياة فنان قط .

كانت تستبق الشعور الى الاخطار قبل ان تحس بميل جديد يولد في نفس اوليفيه ويكون ذلك بما يبدو في عينيه من بريق عندما يحاول الاقدام على احدى المغامرات العاطفية العابرة .

وتروح تتألم . فهي لا تنام الا نوماً متقطعاً مليئاً باحلام الشك والريب . وتحاول ضبطه فتصل الى مسكنه في اوقات لا ينتظر قدومها فتلقي عليه اسئلة ظاهرها بريء ، فتهجم قلبه ، علها تدرك خلجاته كما يهجم المرء عضواً مصاباً ليدرك موطن الداء ...

وما ان تخلو بنفسها حتى تشرع بالبكاء واثقة من انها ستخسره هذه المرة ، من انهم سيسرقون حبها الذي تتشبث به لانها هي التي اوجدته بكل ما فيه من حرارة ومن احلام .

وما ان تشعر به يعود اليها بعد هذا الهجران القصير ، حتى تنظر اليه نظرتها الى شيء كان ضائعاً فوجد .. وقد افعم قلبها شعور فاعر بالسعادة حتى ليحدث لها في مثل هذه الحالات ان تدخل اول كنيسة تصادفها لتسجد وتشكر الله . وقد انصرفت الى الاهتمام بنفسها وباناقتها لتحوز اعجابه دون سائر النساء ، الامر الذي جعل من حياتها سلسلة من التأنق المغناج والدل الفاتن .

فقد كافحت من أجله ، ودفاعا عنه ،وكان سلاحها دائما : الجمال، والفتنة والانوثة والاناقة. انها تريد كلما ، دار الحديث حولها ، ان يعمد المتحدثون الى امتداح فتنتها وأناقتها وذوقها وذكائها فهي تريد ان تروق في اعين الغير من اجله. حتي اذا رآها محاطة بالمعجبين ارضت كبرياءه واثارت غيرته . وفي كل مرة تشعر ان الغيرة بدأت تعذبه كافأته بساعة من ساعات الحب ينسيه انتصاره فيها عذابه وشقاءه.

انها تعرف ان الرجل كثيراً ما تعترض سبيله امرأة فاتنة في اي مكان او زمان فيروح مدفوعا بسحر انوثتها الطاغي ، وبلذة الجديد، متدلها في حبها . وخشية وقوع شيء من هذا القبيل كانت تعمد الى اساليب اخرى : كانت تطريه وتدلله .

فهي بشكل مستمر تغمره بالثناء والمدح وتهدهده بالاعجاب وتحيطه ببخور عابق وهي انما تفعل ذلك لتحكم وثاقه اليها فقد يتاح له في المجتمع امرأة تحبه ولكنه سيجد حبها فاتراً وانه ان وجد تلك التي تغدق عليه حبها فلن يتاح له تلك التي تفهمه كما تفهمه هي .

لقد جعلت من صالونها حيث يدخل دائما المكان الذي يرضي كبرياءه كفنان حتى كان في نظره افضل مكان يزوره في باريس ، هو بفضله لأن كل رغباته تجد ما يشبعها ويرضيها فهي لم تكن فقط تسعى الى استكناه كل اذواقه لتعمل على ارضائها كي يشعر بالسعادة

لديها ، بل كانت تسعى لتخلق عنده اذواقاً جديدة ، محركة نهمه المادي والعاطفي بما تحيطه به من عناية ومن وجد لاهب بلغ حد العبادة .

انها تبذل قصارى جهدها لاغراء حاسة النظر فيه باناقتها وحاسة الشم بعطرها ، وحاسة السمع بغزلها وحاسة الذوق بما تقدم له من ضروب المآكل .

غير انها وهي تعمل جاهدة على اثارة كل غرائز ذلك الرجل العازب بتلك الاساليب التي لا تتاح لعشيقة اخرى ، كانت تجد انه بدأ يتذمر من بيته الخاص ، ومن وحدته فهو لا يستطيع المجيء اليها الا ضمن حدود يفرضها المجتمع ، فكان يسعى الى التخلص من وحدته تلك في النادي او في مكان آخر ، وادركها الخوف من ان يفكر بالزواج كنتيجة لذلك الشعور بالوحدة .

وكثيراً ما كانت هذه الأفكار تعذبها فتتمنى ان تعجل به الشيخوخة فتقتل كل هذه المخاوف لديها فتتاح لها الراحة من كل هذه الاضطرابات الروحية التي تمعن في ايلامها فتنعم بالهدوء والسلام .

ومرت السنون على مثل هذه الحال . وكانت السلسلة التي تشد احدهما الى الآخر متينة بل كانت هي تعمل دائماً على تمكين حلقاتها كلما آنست ضعفاً في احداها . غير ان الهدوء لم يعرف سبيله الى قلبها فهي تحيط الرسام برقابة وعناية كما تحيط طفلاً يجتاز طريقاً غاصة

بالعربات . وكانت كل يوم تخشى حدوث شيء مجهول يهدد كيان حبها وتشعر به حاضراً فوق رأسها في كل لحظة من لحظات النهار .

اما زوجها الكونت فلم يكن ليخالجه اي شك في سلوك زوجته ، فهو لا يعرف الغيرة بل يرى مثل هذه العلاقة بين زوجته والرسام الكبير طبيعية جداً ، فليس بيته المكان الوحيد الذي يتلقى لحفاوة هذا الرجل الشهير ، ولشدة ما التقى الرجلان انهيا بان ربطتهما صداقة بل نوع من الحب ...



- ٢ -

عندما ذهب برتان يوم الجمعة مساء ،لدى صديقته ، بناء على دعوتها الاحتفال بقدوم ابنتها انتوانيت دي غيروا ، لم يكن قد حضر سوى السيد ميزاديو الذي كان جالسا منذ لحظات في الصالون نموزج لويس الخامس عشر .

انه كهل ذكي ، كان يمكن ان يصبح رجلا ذا خطر وهو لا يريد ان يتعزى ابداً لما اضاع من فرص ثمينة في حياته .

كان يعمل حافظا للمتاحف الامبراطورية ثم استطاع ان يعين مفتشا للفنون الجميلة في عهد الجمهورية الامر الذي لم يحل دون توثق الصداقة بينه وبين كل امير واميرة او دوق ودوقة من الارستقراطيين الاوربيين ، وكان فضلا عن ذلك يمد نفسه الحامي المحاف لكل فنان من اي نوع .

كانت موهبته الكبرى الذكاء وسهوله التعبير عن كل شيء فيخرج الفكرة بشكل جميل مهما كانت تافهة حقيرة ، الامر الذي جعله مرغوبا في جميع المجتمعات . وكان له حاسة رجل السياسة الذي

يستطيع الحكم على الناس للنظرة الاولى .

فكان شغله الوحيد ان يتنقل بنشاطه النير ، الثرثار ،غير المجدي من صالون الى صالون ليله ونهاره ..

كان اهلا للتحدث في كل موضوع واعطاء الاحكام على كل حادث ، وهذه الصفة جعلته محبوبا في الاوساط النسائيه خاصة . فهو في الواقع يعرف كثيراً من الاشياء بالرغم من ان مطالعاته لم تتجاوز الكتب المقررة لعمله . وكان صديقا حميما لاعضاء (الاكاديميات) الخمس ، مقربا من جميع العلماء والكتاب والفنانين الذين كانوا يصغون اليه دائما بارتياح . وهو لم يكن ليهتم بالتفصيلات الفنية فلا يتكبد اتقان حفظها الا انه يستطيع ان يعبر عما يريد بسهولة يبعد بها دائما عن التفاصيل المعقدة التي لا تهم الا العالم المختص .

فاذا ما سمعته يتحدث خلت نفسك امام مستودع الافكار ، امام احد هذه المخازن التي لا تجد فيها شيئا نادراً غير أنها لا تفتقر الى اي نوع من انواع الحطام العادي . . وكل مافيها رخيص سهل المنال ..

وكان الرسامين علاقة مباشرة به بحكم وظيفته . فكانوا يتملقونه ، ويخافونه وكان هو من ناحيته يقدم لهم خدمات جلى . كأن يهيء لهم من يشتري لوحاتهم او ان يقدمهم للمجتمع فهو يحب مثل هذا العمل والتظاهر بحمايتهم واطلاقهم في ميدان الحياة الفنية

وكان هؤلاء الفنانون يرون شرفاً عظيماً لهم الانطلاق في المجتمع بهذا الشكل الذي يتيح لهم حضور الولائم الكبيرة والتعرف بالشخصيات المرموقة. كان يدعوهم الى وليمة يقيمها الامير دي غال اثناء مروره بباريس، ثم يتمشى معهم على مائدة تضم بول ادلمانس واوليفيه برتان وآموري مالدان.

اما برتان فكان صادق المودة له الا انه كان يقول عنه: انه دائرة معارف جول فرن مجلدة بجلد حمار! »

وتصافح الرجلان وراحا يتحدثان في الموقف السياسي وعن احتمال نشوب الحرب الامر الذي يدعو السيد ميزاديو الى قلق شديد فهو يرى ان من مصلحة المانيا ان تسحق جميع الدول المحيطة بها فالسيد دي بسمارك ينتظر منذ ثمانية عشر عاماً فرصة ليحطم فرنسا. اما اوليفيه برتان فكان يخالفه في هذا الرأي ويزعم ان هذه المخاوف تخيلات وهمية لا ظل لها من حقيقة فالمانيا بنظره لا يمكن ان تقدم على مثل هذا الجنون فتلقي بكل قواتها في مغامرة لا تعرف لها نهاية، والمستشار بسمارك اعقل من ان يقدم على مثل هذا العمل الذي يترك امجاده الماضية في مهب كل ريح خاصة وهو في اواخر ايام حياته

وكان السيد ميزاديو يتظاهر ان لديه اشياء لا يقوى على التصريح بها فهو قد قابل وزيراً اثناء النهار واجتمع بالغراندوق فلاديمير

وهو عائد من (كان) مساء امس .

ولم يزعن الرسام لرأي ميزاديو بل راح ينافح عن وجهة نظره الخاصه فهو يعتقد جازما ان هذه الضجة التي تثار فارغة لا تخفي تحتها سوى حرب الاعصاب .

وخلص الى القول : ان ليس احداً سوى بسمارك يمكنه ان يطلق حكما صادقا لا ريب فيه .

ودخل السيد غيروا وصافح ضيفه بحرارة معتذراً بجمل خطابية عن تأخره وتركه اياهما بمفردهما .

سأله الرسام :

— وانت يانائبنا العزيز ، مارأيك بما يثار حول نشوب الحرب؟

واندفع السيد غيروا يخطب . فهو بصفته عضواً في المجلس يعلم اكثر من سواه رغم انه لم يكن يتفق بالرأي مع زملائه النواب كلاً فهو لا يعتقد ان نشوب الحرب محتملا في الوقت الحاضر على الاقل وراح يصور السيد بسمارك بخطوط واضحة قوية ، صورة تذكرك بطريقة سان سيمون ، : ان الناس لا يفهمون هذا الرجل لأنهم يحاولون الحكم عليه بالنسبة الى تفكيرهم الخاص فيعتقدون انــه مقدم على فعل ما كانوا هم يفعلونه لو كانوا مكانه . فبسمارك ليس سياسيا منافقا بل هو صادق مستقيم ولكنه قاس . انه يجــاهر دائمــا بالحقيقة عارية

لا لبس فيها فاذا نادى : اريد السلام . فهو حقا يريد السلام . وكل ما يعمل يبرر ما يقول : ففي تسلحه وفي تحالفه مع الدول يكون وسيلة للسلام الذي ينشده .

واستخلص السيد غيروا قائلاً : انه رجل عظيم . عظيم جداً . ينشد الهدوء للعالم باسلوبه الخاص : بالتهديد والوعيد . وعلى العموم . ايها الساده : انه رجل بربري عظيم .

اجاب السيد ميزاديو :

— الغاية تبرر الوسيلة دائماً . فانا اوافقك على انه ينشد السلام دائماً ولكن عن طريق الحرب . وهنا تبرز لنا حقيقة بينه الخطوط وهي ان الحرب لا تثار الا في سبيل الحصول على السلم .

واعلن خادم : — سيدتي الدوقة دي مورغان !

وبدت بين مصراعي الباب المفتوحين امرأة طويلة قوية البنية تقدمت بخطى ثابتة تنم عن سيطره وثقة .

واندفع اليها الكونت وقبل انامله وسألها :

— كيف انت ايتها الدوقه ؟

وحياها الرجلان الآخران بشيء من عدم التكلف ولكن باكبار ذلك ان الدوقة كانت تجعل دائماً حدوداً في حياتها بين رفع الكلفة والاحترام .

والدوقة هي ارملة الجنرال دي مورتمان ووالدة لابنة وحيدة زوجة الامير دي ساليا ، وهي ابنة المركيز دي فاراندال ، ، من ارومة عريقة عريضة الغنى وصالونها الفخم في شارع فاران تفتح ابوابه لجميع طبقات المجتمع الارستقراطي الراقي . فلا يمر بباريس صاحب سمو دون ان يتناول وقعة على مائدة المركيزة . وما ان تسمع برجل ذي صيت حتى تعمد الى التعرض له والتحدث اليه والحكم عليه . وهذا هو المحرك الرئيسي لحياته وفيه كل ما يختلج في صدرها من رغبات .

وما ان جلست حتى اعلن الخادم من جديد :

— سيدي البارون وسيدتي البارونه دي كوربال .

انهما شابان ، البارون اصلج مترهل ، والبارنة رشيقة انيقة شديدة السمرة .

كان لهذين الزوجين مركز خاص في الارستقراطية الفرنسية ناتج عن علاقتهما الغامضة . فهما من اصل وضيع بالنسبة للنبلاء لذا كانا مغرمين بكل مظاهر الارستقراطية المتكلفة فهما محدثا نعمة . وقد عملا جاهدين على مجاراه الوسط الذي فيه يضطر بان فهما لا يرتادان الا البيوتات الكبيرة العريقة متظاهرين بذوق رفيع وميول نبيلة وتقى واستقامة يحترمان كل ما يحترمه النبلاء ويحتقران كل ما يحتقرونه لا يترددان في ذلك ابداً فيظهر ان نتيجة لتصرفهما ذاك

في كثير من الاعين كانهما زهرتان من زهور المجتمع الراقي . فرأيهما يشكل ترديداً لما يجب ان تكون عليه الاشياء وحضورهما احد المجتمعات الرفيعة يسبغ عليها شرفاً حقيقياً .

وآل كوربال هؤلاء يمتون بقرابة للكونت غيروا .

وسألت الدوقة الكونت مدهوشة :

— حسناً اين زوجتك ؟

— لحظة واحدة . ثمة مفاجأة . ستحضر حالاً .

عند ما مر شهر واحد على زواج السيدة غيروا قدموها للمركيزة التي سرعان ما احبتها وتبنتها واتخذت من نفسها حاميةلها .

ومرت عشرون سنة على هذه الصداقه دون ان تؤثر في قوتها فاذا قالت المركيزة : (صغيرتي) . فهم انها تعني الكونتس بهذه الكلمة التي تنم عن تعلق شديد بها . ولديها حدث اللقاء الاول بين الرسام والكونتس . ودنا ميزاديو من الدوقة وسألها :

— اذهبت الدوقة لمشاهدة معرض « الرسامين الشذاذ [1] »

— كلا ما هذا المعرض ؟

— زمرة من الفنانين المجددين ، قدموا لوحات كانها رسم

(١) تعريب : Intempèrants تعني اسلوباً من الرسم خارجاً عن المألوف نادت به فئة من الفنانين الفرنسيين في اواخر القرن التاسع عشر .

معتوهين او سكارى . الا ان فيها قوة تعبير لا تنكر .

فتمتمت السيدة الكبيرة بشيء من الحقد :

— انا لا احب مزاح هؤلاء السادة .

وبدت متسلطة ، عنيفة ، فهي لا تقبل رأياً يخالف رأيها الذى تستوحيه دائماً من مركزها الاجتماعي المرموق . فالفنانون في رأيها وحتى العلماء والكتاب جماعة من الناس مكلفون من قبل الله بالترويح عن المجتمع وتقديم الخدمات له فهي لا تريد ان تعبر عنهم غير هذا التعبير الذي تقيسه باللذة التي يتنحها لها رؤية لوحة جميله او قراءة كتاب طريق او قصة اكتشاف جديد .

كانت طويلة قوية ثقيلة الجثة حمراء البشرة قوية نبرات الصوت كانت تظهر بكل مظاهر العظمة في قولها وتصرفاتها مستعدة لحماية كل من يلجأ اليها حتى الملوك المخلوعين وهي تتقرب من الله دائما بكرمها الفائض على رجال الدين ومنحها للكنائس. وعاد ميزاديو يقول:

— اتعلم الدوقه ان قاتل ماري لا مبورج قد اوقف ؟

فسألته حالاً كأن لها في الامر مصلحة :

— كلاً لم يتصل بي ذلك . هات حدثني به :

وراح يروي لها التفاصيل . كان مديد القامة ، بالغ النحافة يرتدي صدرية بيضاء تزينها جواهر تقوم مقام الازرار ، كان يتكلم

دون اشارات ، بلهجة واضحة الكلمات كأنما هـو صاحب اختصاص يتكلم ضمن دائرته . كان قصير النظر يظهر رغم عويناته كأنه لا يرى احداً من الحضور وعند ما عاد يجلس خيل للناظرين ان مجموعة عظام جسمه تنحني وتتكيف حسب شكل المقعد . فكأن عموده الفقري مصنوع من كوتشوك ، وساقاه المتصالبتان ظهرتا كشريطين طويلين ملتفين وذراعاه المتهدلان على جانبي المقعد ينتهيان بكفين شاحبتين لهما اصابع مفرطة الطول . وشعره وشارباه المصبوغة بطريقة فنية تتدلى منهـا خصائل مهملة بيضاء على كتفيه بشكل يثير شيئاً من التفكهة المعتادة .

وراح يشرح للدوقة كيف ان حلي ابنة الهوى القتيل قد قدمت هدية من قبل القاتل الى غانية اخرى . وفتح الباب في هـذه اللحظة من جديد وعلى مصراعيه ، ودخلت سيدتان بزي من الدنتيـل البيضاء ، كانتا متشابهتين كأنهما اختان من سنين مختلفين ، احـداهما بالغة النضوج والثانية رطبة العود ، الاولى متينة التركيب ، والاخرى مفرطة النحافة . . كانتا تتقدمان وقد تخاصرتا مبتسمتين .

واثار دخولهما عاصفة من التصفيق والهتاف . فلم يكن احـد غير اوليفيه يعلم بمجيء آنيت ، وظهورها بصحبة امها كان مفاجـأة سارة حقاً : كانتا جميلتين بل تـكادان تتعادلان جمالاً فالام كزهرة

شديدة التفتح نفاحة الاريج ، والبنت ما تزال برعماً يستعد للتفتح واستقبال نور الحياة . انهما رائعتان . واخذت الدوقة تصفق بيديها بالغة السرور :

— الهي . انهما ساحرتان ماأجملهما الواحدة بالقرب من الاخرى انظر ايها السيد ميزاديو كم هما تتشابهان !

وبرر رأيان فوراً . زعم ميزاديو وآل كوربيل والكونت غيروا انهما لا تتشابهان الا في لون البشرة والشعر وخاصه العيون التي كانت فقط واحدة لدى الاثنتين عما فيها من بقع سوداء دقيقة كأنها نقط الحبر فوق الحدقة الزرقاء . ولكن الفتاة عندما تبلغ سن النساء فلا شك في انها ستختلف كل الاختلاف عن امها .

اما الدوقه واوليفيه برتان فزعما انهما متشابهتان في كل شئ ولولا اختلاف السن لما عرفت احداهما من الاخرى .

قال الرسام :

— كم تغيرت في هذه السنوات الثلاث ! اني اكاد انكرها بل لا اجرؤ على مخاطبتها بصيغة المفرد .

واخذت الكونتس بالضحك :

— آه كم اود مثلاً ان اسمعك تخاطب آنت بصيغة الجمع .

وقالت الفتاة :

انا التي لا اجرؤ على أن اخاطب السيد برتان بصيغة الأفراد .

وابتسمت امها :

— احتفظي بهذه العادة المذمومة فانا اسمح لك بذلك فهي تساعدك على توطيد اواصر الالفة .

وقالت آنيت وهي تحرك رأسها :

— كلا كلا . ان هذا لما يزعجني .

وعانقتها الدوقة وراحت تفحصها فحص العارفة المهتمة :

— انظري الي يا صغيرتي . ان لك نفس نظرة امك . ستكونين حسناء بعد وقت قصير عندما تتعلمين كيف تسوين هندامك . يجب ان تسمني ، ليس كثيراً ، انك هكذا شديدة النحول .

وهتفت الكونتس :

— آه . لا تقولي لها هذا .

— ولِمَ ؟

— ليس من دواعي السرور ان يكون المرء فيلاً ! ها انا اودان انحف

غير ان السيدة دي مورتان اخذت حتى استهاجتها وجود فتاة صغيرة :

— آه انكن دائماً تفضلن الهياكل العظمية لأن الثياب

تنسجم فوقها اكثر من الجسم المكتنز اما انا فمن اصل كله غذير الشحم! امَّا اليوم فالزي هو النحول . . . النحول الذي يذكرني ببقر مصر . . وانا لا افهم الرجال الذين يعجبون بها كلكن العظمية . . اما في ايامنا فكانوا يبتغون ما هو اجدر بالاهتمام .

وصمتت وقد علت الابتسامات كل الشفاه :

— انظري يا صغيرة . ان امك على احسن حال هكذا : تشبهي بها .

وانتقلوا الى غرفة المائدة وما ان استقر بهم المجلس حتى عاد ميزاديو الى اثارة النقاش باسطاً وجهة نظره في انه يفضل ان يكون الرجل نحيفاً ليتمكن من القيام بكل عمل امَّا الشأن مع النساء فمختلف . .

واحتدم النقاش من جديد وراح كل يبسط رأيه حول هذا الموضوع الذي بدا لهم عظيم الخطر وكانت المركيزة دائماً تدافع عن السمنة بينما انحازت زوجة كوربيل الى صف ميزاديو وتبعها زوجها . .

ثم تطور الجدل الى الطرق الفعالة لازالة السمنة وتشعب الحديث شتى .

وكان برنان حتى تلك اللحظة صامتا : فاستحثته المركيزة بان طلبت اليه ابداء رأيه : قال :

— آه يا سيدتي . اني رسام ولا ارى كبير اهمية في مثل هذا

الموضوع امّا لو كنت مثالا لكان موقفي مختلفا ...

— ولكن انا اسالك كرجل ... فماذا تفضل ؟ .

— انا ... افضل قواما رشيقا معتدل الاكتناز او كما تقول طاهيتي:

دجاجة رطبة مليئة ... ليست سمينة بل مكتنزة وناعمة .

وقد اثار تشبيهه الضحك ولكن الكونتس نظرت الى ابنتها وقالت :

— لا تصدقي . انه لما يسر ان تكون المرأه نحيلة فالنحيلات لا يدركهن الكبر .

وكانت هذه الملاحظة مثار نقاش جديد الا ان الكل اجمعوا على صواب نظرة الكونتس . فلا شيء يعجل بالشيخوخة كالسمنة .

ثم راحو كنتيجة لهذه الملاحظة يستعرضون الكثيرات من نساء الطبقة الراقية متخذينهن كامثال وشواهد .

وكان اوليفيه جالسا بالقرب من آنيت فاستدار وقال لها :

— اصغي اليّ يا نانيت .. ان ماتسمعينه الآن سيصك اذنيك مرة او مرتين كل اسبوع على الاقل حتى ينتهي بك الامر الى حفظه عن ظهر قلب وخلال اسبوع واحد ستعرفين كل ما يدور في المجتمع من احاديث : النساء ، والمسارح الخ .. ولا يبقى الا ان تغيري

الاسماء من آن لآخر حتى يتاح لك الخوض في كل حديث . . .

ورفعت اليه الفتاة عينين خبيثتين يكمن فيهما ذكاء حاد في طور التكوين. وظل ميزاديو والدوقة يتبادلان النقاش كما يتبادل اللاعبان الكرة دون ان يفطنا الى ان افكارهما تدور في فراغ لتعود الى اللقاء من جديد .

وحاول برنان ان يثبت نظريته القائلة ان الناس ، وحتى اكثرهم ثقافة وذكاء ، لا يحاولون استعمال مواهبهم الا قليلا في سبيل الاشياء النافعة في الوقت الذي يصرفون فيه طاقة هائلة في توضيح اشياء تافهة لا طائل تحتها وليس فيها غناء . . . وراح يبرهن ان ليس في مثل هؤلاء شيء من العمق في التفكير وان ثقافتهم تصبح عديمة الفائدة بقوة الاستمرار على اجهادها في ميادين عديمة النفع تافهة الغاية . . .

ان هؤلاء يعيشون وكأنهم اموات ، فهم لا يتقنون تذوق الجمال ولا ادراك الخير والحق . انهم يجهلون كيف يتمتع الانسان بالسعادة او برؤية الطبيعة او بجمال الفن . انهم لا يعرفون تذوق الجمال لأنهم لم يألفوا النشوة التي يخلقها في نفوسهم . وهم غير خليقين بحب مجرد لأنهم لا يستطيعون الاخلاص الذي يتطلبه هذا الحب .

وتطوع البارون دي كور بال للدفاع ضد وجهة نظر برنان . .

غير ان منطقه كان ضعيفا متهافتا تهافت الثلج امام النار في الوقت الذي ظنه من القوة بشكل لا يحتمل جدلا او رداً

واعتصم برتان بالصمت في اول الامر ثم راح يرد على خصمه راسما صورة رجل من هذه الطبقة التي عناها بانتقاده :

صور هذا السيد في الصباح ووصيفه يساعده على ارتداء ثيابه ثم يأتي الحلاق فيروح يحدثه احاديث عامة عادية وتأزف ساعة النزهة فيخرج بعربته ويروح يسائل السائس عن صحة الجياد ثم يسير في مماشي الغابة وغايته الوحيدة ان يحيى ويتلقى التحيات . ثم يجلس الى المائدة مع زوجته ويخرجان بعد الغداء في عجلة فلا يحدثها الا ليعدد اسماء الاشخاص الذين يمرون بهم ، وفي المساء يتنقل من صالون الى صالون ثم يتعشى مع احد الامراء ليصغي الى نقاش يدور حول سياسة اوربا ثم ينتهي به المطاف في احد مراقص الاوبرا حيث يتابع ببصره الخجول الراقصين والراقصات مكتفيا بوجوده في مثل هذا المكان .

كانت الصورة صادقة مثيرة للضحك ولم تكن لتجرح احداً من الحاضرين حتى ان ضحكة دارت حول المائدة التي يجلسون اليها .

ولعل الدوقة هي الوحيدة التي احست شيئا يخز قلبها غير انها قالت :

— هذا شيء غريب جداً . اني اكاد اموت ضحكا ..

فاجابها برتان : —

— انا لا اخشى على احد منا الموت ضحكا لاننا نحن لا نعرف

كيف نضحك واذا ضحكنا كان ضحكنا متكلفا ككل عمل نقوم به . اذا شئتي ان تعرفي اين يضحكون حقا ومن اعماق افئدتهم فاذهبي الى المسارح الشعبيه ، اقصدي المجتمع البرجوازي خالطي الجنود في حجراتهم . . . واما صالوناتنا ففيها لا يضحكون . . فهم يتظاهرون بكل شيء حتى بالضحك .

وقاطعه ميزاديو :

— اتسمح . . انك قاس يا سيدي . . انك انت نفسك لا تحتقر هذا المجتمع الذي توجه اليه لو اذع نقدك .

وابتسم برتان وقال :

— اني احبه !

— اذن ماذا تقمد ؟

— ولذا فانا انتقده .

وعقبت الدوقة :

— كل ما يقوله برتان هو من باب العرض .

ثم انقلب الحديث نقاشا عاما هادئا حبيا وراح الكل يشتركون في ابداء الاراء ولما كانت الوليمة قد اوشكت على الانتهاء هتفت الكونتس فجاة :

— انا لم اشرب حتى الآن قطرة واحدة . ها هو كأسي .

فلتشرب وسأرى اذا كان ذلك يزيل السمنة .

وثارت الدوقة وحاولت ان تجبر الكونتس على ان تشرب شيئاً من الماء المعدنية ولكن هذه لم تذعن لها فصاحت بها :

— يا للجنون . . . حسناً سترين كيف ان ابنتك ستهزأ بك يوماً .ما ايها الكونت عليك ان تقنع زوجتك بالاقلاع عن هذا الجنون

ولم يسمعها الكونت لأنه كان منهمكاً في شرح فكرة الآلة الدارسة الميكانيكية التي اخترعت في اميركا .

ونهضت الكونتس وقد قدمت ذراعها لجارها واعطى الكونت ذراعه للدوقة وانتقل الجميع الى الصالون الكبير ...

وفي الحجرة الفسيحة المنيرة المزينة جدرانها الاربعة بسجف من الحرير الازرق الشاحب المزخرف الحواشي بخطوط ذهبية وبيضاء كان النور الغامر يقفي على كل شيء فيها رونقاً ورواء . وتتصدر الصالون صورة الكونتس التي ابدعتها ريشة اوليفيه برتان حتى لكأنها تنشر سحرها في الجو فتنعش المكان وتبث فيه حيوية ونشاطاً . كانت حيث يجب ان تكون ، تشع ابتسامتها السابقة سنى وجمالاً فكأنها تنشر في هواء المكان فيضاً من سحرها الفتان ، سحر المرأة الشابة الحسناء . ان هذه اللوحة واجبة الوجود في هذه الحجرة . وكما ان الكنيسة لا تخلو من صليب يتصدرها هكذا كانت تبدو صورة

الكونتس في صدر الصالون الفاخر .

وكان كل من يراها يكيل الثناء للريشه التي ابدعتها .

ولم يفت ذلك ميزاديو مرة واحدة . فان لرأيه قيمة كبرى بصفته خبيراً بالفنون من لدن الدولة وكان يبهجه ان يقول دائما بلهجة العارف المقدر لكلامه :

— حقاً انها اجمل لوحة رأيتها . ان فيها لحياة صخابة مائرة .

اما الكونت فقد خلقت فيه كثرة امتداح هذه اللوحة شعور من يملك اطروفة كبرى من طرف الفن . فكان يستوعب تباعاً كل ما يقال في امتداح اللوحة والثناء على الريشة الخلاقة .

وارتفعت كل الاعين تستجلي معالم اللوحة الجميله ، فلم يكن اوليفيه برتان ليعلق كبير اهتمام على مثل هذه المظاهر الاطرائية فقد اعتادتها اذناه اعتياداً لدرجة ان اضحت بالنسبة اليه كالسؤال العابر عن الصحة الذي يلقيه صديق عابر يصادفك في الطريق . وكل ما فعله أن ادار السراج الكشاف نحوها وكان الخادم قد وضعه جانباً باهمال .

ثم جلسوا . وكان الكونت يجاور الدوقة التي راحت تحدثه قائلة :

— اعتقد ان ابن اخي سيأتي ليصطحبني وقد يشرب لديكم كاس شاي .

كان لهما رغبتان منسجمتان كل الانسجام منذ فترة طويلة ولكن دون ان يصرحا بشيء من ذلك حتى ولا بالتلميح .

وكان اخ الدوقة المركيز دي فار نداك قد مات متأثراً بسقوطه عن ظهر جواده بعد ان دمرته المقامرة مخلفاً ارملة وولداً .

وبلغ الولد الثامنة والعشرين من عمره وكان يقوم بسياحات الى فينا ولندن ليحضر احتفالات ومراقص ملكية ، وقد كاد يكون دون ثروة غير انه حافظ على مركزه الاجتماعي عاله من عراقة الاصل وصلات الرحم مع الاسر المالكة والنبيلة وبقي في باريس ذلك الرجل المرغوب فيه .

وكان هذا المركز الاجتماعي لمثل هذا الشاب شيئاً لا يستهان به ولم يكن عليه سوى ان يحصل على الثروة بالزواج من فتاة غنيه فيتاح له ان يصبح نائباً بل قد يحلم بان يكون اقرب المقربين الى العرش في المستقبل وربما غدا مستشار الملك العتيد او احد زعماء الاحزاب .

وكانت الدوقة قد حصلت على المعلومات الصادقة عن ثروة الكونت دي غيروا الذي يعيش ببساطة في شقة عادية في الوقت الذي يستطيع ان يعيش في افخم قصور باريس وهي تعلم كل العلم ماينطوي عليه الكونت من طموح ، وهي التي لا تقل عنه طموحاً كانت

تحلم بان تزوج ابن اخيها من ابنته فمثل هذا الزواج يهيء لهـا شهرة واسعة في الاوساط الارستوقراطية ، وغيروا الذى تزوج هـو طلباً للثروة اضحت له احلام اخرى .

انه يؤمن بعودة الملكية ويبغي في حال تحقق ذلك ان ينال الحظ الاوفر .

فما هو الآن سوى نائب عادي ، فما ان يصبح حمي المركيز دي فاراندال المتحدر من اسرة تربطها صلة رحم بالبيت المالك الفرنسي حتى يثب من جراء تلك القرابة الى القمة .

وكان كذلك يعلق كبير اهمية على صداقة الدوقة لزوجته تلك الصداقة التي تضفى على هذا الزواج معنى حميماً . لكل هذه الاسباب ، وخوفاً من ان يصادف المركيز فتاة اخرى تروق له ، عجل الكونت باحضار فتاته ليحث تحقيق الحلم المنشود .

ولم تخف هذه المشاريع على فطنة الدوقة التي كانت تنظراليها نظرتها الخاصة وبالرغم من انها لم تكن لتعلم بحضور الفتاة المفاجيء الا ان ذلك لم يمنعها من الايعاز الى ابن اخيها بالحضور كي يعتاد شيئاً فشيئاً ارتياد هذا البيت .

وللمرة الاولى كان حديث الكونت والدوقة مكشوف الاغراض وقد افترقا بعد ان ابرما اتفاقا حول هذه الامور .

وكان الباقون منهمكين في طرف الصالون بالمزاح والضحك .

السيد ميزاديو يحدث البارونة دي كوربيل عن قدوم وزير مفوض زنجي الى باريس ونقديم اوراق اعتمادة لرئيس الجمهورية . عندئذ اعلن الخادم قدوم المركيز دي فاراندال .

وظهر على العتبة وتوقف . وبحركة طليقة ركز نظارة مفردة على عينه اليمنى كأنه يود استكشاف الصالون الذي بابج ، او ليتيح للحضور فرصه تامله والالتفات اليه . وبحركة غير ملحوظة من خده وحاجبه ترك النظارة تسقط حتى طرف الخيط الحريري الاسود المعلقة فيه وتقدم بخطى رشيقة الى مدام غيروا فقبل يدها الممدودة اليه مرفقا ذلك بحركة انحناء شديدة . وفعل ذلك بعمته ثم استدار الى الحضور فصافحهم واحداً واحداً برشاقة ملحوظة .

كان طويل القامة ، اشقر الشارب ، قد لعب الصلع برأسه قليلاً ، وكان يبدو بثوب الضابط الذي يرتديه شبيهاً برياضي الانكليزي كان يخيل الى الناظر اليه ان كل عضو من اعضاء جسمه اشد نمواً من رأسه ! وانه لا يمكن ان يكون له ميل لغير الاشياء التي تنحصر في القوة الجسمية . غير انه كان ذا ثقافة لا بأس بها فهو قد درس وما زال يدرس كل شيء تفيده معرفته في المستقبل : فهو يهتم بالتاريخ ملقا كل الاهمية على تواريخ الوقائع ضارباً صفحاً عن العبر والدروس التي

يمكن ان تستخلص من ذلك . كما انه قد درس شيئاً من الاقتصاد السياسي الضروري لنائب وشيئاً من العلوم الاجتماعية حسب مقتضيات مجتمعه النبيل .

وكان ميزاديو يحمل له تقديراً ويقول : « سيكون رجلا ذا خطر » اما برتان فكان يقدر فيه قوته الرياضية . فكانا يقصدان نادي الصيد وكثيراً ما كانا يلتقيان وهما على جواديهما في مماشي الغابة فتولدت بينهما الفة شخصين يميلان الى ذات الشيء ، هذا النوع من (النزعة البنائية الحرة (١)) الغريزية التي يخلقها بين شخصين حديث عابر يثير في احدهما الاهتمام الذي يثيره في الآخر .

وعند ما قدموا آنيت للمركيز . انحنى لها وراح يتأملها بعين الاعجاب وكأنه احس بما تبيت له عمته .

ووجدها جميلة كامنية عذبة ، لأنه كثيراً ما عرف فتيات كان يتنبأ صادقا عما ينتظرهن في المستقبل من شهرة كجميلات وقلما كان يخطيء شأنه شأن الخبير الذي يتذوق خمرة حديثة فيحكم على جودتها اذا ما عتقت .

وتبادل معها بضع جمل لامعنى لها ثم جلس الى قرب البارونة دي كوربيل ليتاح له ان يثرثر معها بصوت خفيض .

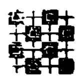
---

(١) تعريب Framaçonerie

ولم تطل بهم السهرة ، وبعد ان خلا المكان من الجميع ، وانصرفت الفتاة الى فراشها اطفئت الانوار وصعد الخدم الى حجراتهم ، مكث الكونت في الصالون الذى لم يزل منارا بشمعتين ، وراح يمشي جيئة وذهابا ، وقد طلب الى الكونتس ، التي دهمها النعاس ، ان تظل فوق مقعدها ، وراح يشرح لها آماله ويحلل اراءه ويناقش كل المواقف التي قد تقتضي مواجهتها في المستقبل وكل ما يجدر ان يتخذ من حيطة وحذر .

ولم ينسحب الا بعد ان تقدم الليل ، شديد الزهو بهذه السهره ، وتمتم وهو يخرج الى غرفته :

— اغلب ظني ان هذا الامر اضحى بحكم الواقع . .



-٣-

« **متى** ستأتي يا صديقي ؟ فها قد مرّت ايام ثلاثة دون ان تكتحل عيناي برؤيتك ! كم يبدو لي ذلك طويلا ! ان ابنتي تشغل معظم وقتي غير انك تثق باني لا اطيق لك فراقا . »

واعاد الرسام تلاوة بطاقة الكونتس، وكان يرسم بالقلم بعض اللوحات باحثا دائما عن موضوع جديد ، ثم فتح درجا سريا والقى بالبطاقة ، فيه فوق كومة من الرسائل المتجمعه منذ بدء علاقتهما .

وكانا قد اعتادا ، بفضل علاقات المجتمع ، ان يلتقيا كل يوم . ومن وقت لآخر كانت تزوره في مسكنه فتجلس ساعة او ساعتين فوق المقعد وهو منهمك في عمله غير انها كانت تخشى لفت الانظار وملاحظات الخدم ولذا كانت تفضل ان تلتقي به في بيتهااو في صالون آخر .

ولم تكن علاقتهما بنظر الزوج تخرج عن كونها علاقة طبيعية خاصة وهما يتظاهران امامه بشيء من الفتور الواحد حيال الآخر .

وكانت الكونتس تدعو عشيقها الرسام مرتين بالاسبوع على الطعام . وكل يوم اثنين كان يمر بها في شرفتها بالاوبرا فيحييها ويأخذ منها موعداً للقاء في مكان ما . وكثيراً ما كانا يلتقيان بمجرد الصدفة . وكان يعرف الايام التي تخرج فيها فكان يوم تكون في البيت يمر بها فيتناول كأساً من الشاي لديها ويمكث متمتعا بقربها بعض الوقت يبادلها الاحاديث والملاحظات وبالرغم من ان سورة هواه كانت منذ مدة طويلة قد خبت، الا انه كان يشعر بحاجة لرؤيتها لا تقاوم .

كان الشوق الى بناء عائلة يداور قلب او ليفيه دون هوادة : انه يحلم بالبيت الزوجي الهادئ ، بالحياة العائلية العذبة ، بتناول الطعام مع رفيقة ، ترافقه وتحدثه فلا يحس تعبا ، كانت هذه الرغبة القابعة في اعماق كل قلب بشرى قد عرفت طريقها الى النور في قلب اوليفيه برتان وقد اقترب من الكهولة ، . . انه يحلم بهذا البيت الذي فيه يعرف طعم الراحة والهدوء ، والذي فيه تدلله امرأة وتحمل اليه الاستقرار والسكينة والسلام .

لقد مرت به ثلاثة ايام لم ير خلالها اصدقاءه فقد شغلهم مجيء ابنتهم كثيراً ، وكان قد بدأ يضجر بل لقد نقم على نفسه كيف لم يسمح له تكتمه بالتصريح برغبته هو الاخر بمجيئها قبل الجميع .

لقد كانت رسالة الكونتس ضربة سوط اقامته واقعدته وجعلته يهم فوراً بالذهاب اليها قبل حلول ساعة خروجها لأن الساعة كانت الثالثة بعد الظهر عندما استلم الرساله .

وحضر الوصيف الذي استدعاه بقرعة جرس وسأله :

— كيف الجو يا جوزيف ؟

— جميل جداً يا سيدي

— اهو حار .

— اجل يا سيدي .

— هات صدريتي البيضاء وسترتي الزرقاء والقبعة الرمادية

كان شديد الاهتمام بهندامه فهو لا يبدو الا انيقا ، فكل ثيابه تخاط عند امهر الخياطين ومع ذلك فهو ، ببطنه الملتف بصدريته البيضاء ، وقبعته العالية الرمادية المائلة قليلا الى الوراء لا يغرب عن الادراك انه فنان عريق .

ولدى وصوله بيت عشيقته قيل له انها تستعد للخرج في نزهة الى الغابة ، فساءه ذلك واقام ينتظر .

وراح يتمشى كعادته جيئة وذهابا ، متنقلا من نافذة الى اخرى ومن مقعد الى آخر عابراً تلك الحجرة الفسيحة المعتمة بالستائر المسدلة .

وكان فوق المائدة المذهبة القوائم حشد من تماثيل ودمى

لا جدوى منها ، لكنها جميلة غالية الثمن ، كل ذلك في فوضى محببة .

وكان اوليفيه ، الفينة بعد الفينه ، يمس دمية من تلك الدمى التي قدمها بنفسه في أعياد ميلاد عشيقته ، فيقلبها بين يديه ثم يتفحصها بعدم اهتمام حالم ويعيدها الى مكانها .

وفي احدى الزوايا يقوم رف على ساق واحدة يحمل كتباً قلما فتحت مجلدة تجليداً فخماً ، وبالقرب من الرف مقعد مستدير ، كما كنت ترى على الرف نفسه مجلة (العالمان) مشوشة كأنها قد تليت مراراً ومجلات اخرى لم تفض صفحاتها بعد كمجلة (الفن الحديث) التي يجلبونها في هذا البيت لمجرد نشرها المسابقات الفنية والجوائز الممنوحة،ذلك انها غالية الثمن تكلف اربعماية فرنكاً في العام . . كما كانت هناك « الصحيفه الحرة » الهزيلة ذات الغلاف الازرق والتي تفتح صدر صفحاتها لنفر من الشعراء المجددين يطلق عليهم «العصبيون»

ويقوم بين النوافذ مكتب الكونتس من طراز القرن الماضي الجميل الذي تستعمله لكتابة خطاباتها . وكان هذا المكتب يحمل مؤلفات عدة : كالكتب العائلية التي تثقف العقل والقلب : موسه ، مانون ليسكو ، فيرتر ، ولئلا يظن بها عدم اكتراث بالمسائل البسيكولوجية كان فوق مكتبها : « ازهار الشر » « الاحمر والاسود » « المرأة في القرن الثامن عشر » « وادولف » .

وبالقرب من هذه المجلدات يلاحظ المرء مرآة يدوية الصقت زجاجتها فوق قطعة من المخمل المربع مطرزة ويداخلك الاعجاب اذا تاملت ظهرها الذي يحمل نقوشاً غريبة من ذهب وفضة .

وتناولها برتان وراح يتأملها او يتأمل نفسه فيها : لا شك في انه قد اكتهل في السنوات الاخيرة بشكل مريع ، وبرغم اعتقاده بان وجهه اضحى ابلغ تعبيراً منه فيما مضى الا انه بدأ يشعر بالم حقيقي من جراء هذين الخدين المترهلين وهذه البشرة المجعدة .

وفتح باب خلفه : نهاركم سعيد يا سيد برتان

— نهارك سعيد يا صغيرتي ، كيف انتِ ؟

— على احسن حال . وانتم ؟

— ما ذا لمَ لا تخاطبيني بصيغة المفرد ؟

— ان ذلك يزعجني في الواقع . .

— دعيك من هذه الاوهام

— ان ذلك يزعجني حقاً . انكم تخجلونني .

— ولِمَ ؟

— لانكم . . . لانكم . . لستم في سن الصبا ولا في سن الشيخوخة . . .

— امام هذا المنطق يجدر بي ان اظل صامتاً .

وصعد الدم الى وجهها حتى غدت بشرتها حمراء من قمة رأسها الى اخمصيها.

وقالت: لقد كلفتني امي ابلاغكم انها آتية حالاً .وهي تدعوكم لمرافقتنا الى غابة بولونيا اذا شئتم

— بكل تأكيد .. ولكن أأنتم ذاهبون بمفردكم ؟

— كلا مع الدوقة دي مورغان .

— حسناً .. سأرافقكم

— اذن انتم تسمحون لي بالذهاب لارتداء قبعتي ؟

— هيا .. يا طفلتي ..

وما ان خرجت حتى دخلت الكونتس وقد تبرقعت استعداداً للخروج ومدت اليه يديها :

— ما الذي شغلك عنا ؟

— لم اشأ ازعاجكم في مثل هذا الوقت .

— او ليفيه !

قالتها بلهجة فيها العتب المر والتعلق الوثيق فتأثر بلهجتها تلك وهي تلفظ اسمه

وقال : انك خير نساء العالمين !

وهكذا انتهى هذا النزاع الصغير بين القلبين وراح المشيقان

في حديث المجتمع المعتاد :

— سنمر بالدوقة لنقوم سوية بجوله في الغابة . يجب ان ترى بآنيت ذاك المكان : وكانت العربة تنظرهم امام الباب .

وجلس برتان فيمواجهة المرأتين وراحت العربة تجري يحيط بها ضجيج حوافر الجياد تقرع ارض الشارع تحت القنطرة المرجعة للصدى .

وفي الشارع الذي يؤدي الى المادلين كان الربيع الوليد يبدو كأنه هابط من السماء فوق الكون . والهواء الدوافيء كان يبهج الرجال ، ويوحي الى النساء بالحب ، وكان الصبية الصغار قد القوا سلامهم فوق الارصفة واندفعوا يلعبون معربدين مع اقرانهم ... ولم يكن سوى جوادى العربة مندفعين وقد ظهر العناء واضحاً في حركاتهما ...

وهتفت الكونتس : — يا لليوم الجميل .. ويا لروعة الحياة !!

وراح الرسام يدقق النظر بالام والابنة وهما مغمورتان بالنور العظيم ، نور الربيع . كانتا مختلفتين ولا شك . الا انه لم يكن ليغرب عن الذهن ان احداهما متممة للاخرى ، في عروقهما دم واحد ، تضطرب فيهما حياة واحدة . وعيونهما بشكل خاص . تلك العيون الزرقاء المرقطة ببقع سوداء صغيرة . كانت متشابهة تماماً لو لم تكن

الزرقة لدى الصبية صافية نيرة ولدى الام حائلة قليلا : . . كانت الاعين الاربع تلك تدنو اليه بنفس النظرة الساحرة . واذا ما خاطب احداهما انتظر ان يسمع الجواب الذي يسمعه من الاخرى . وقد لاحظ وهو يجاذبهما الاحاديث والنكت انه امام امرأتين احـداهما قد شبعت من الحياة .. والثانية لم تجرع بعد جرعتها الاولى ... كلاّ فهو لا يستطيع التنبؤ بما ستكون عليه هذه الفتاة بعد ان يستنير تفكيرها وينمو ذوقها وتواجه خطوب الحياة . انها شخص صغير جديد يستعد لمواجهة الاقدار والاهواء ... انها جاهلة مجهولة .. كسفينة تتهيأ لرفع مرساتها والخروج من المرفأ بينما امها تعود اليه بعد ان طوفت في آفاق الوجود ... فقد عرفت الحب . . .

وقد احس هدوءاً لدى تفكيره بانه هو الذي اختار هذه المرأة الجميلة دائما المتأرجحة في هذه العربة تدغدغها هبـات نسيم الربيع الدافئة .

وشعر كأنها تدرك مايجول بخاطره وتشكره اعترافاً بجميله بحركة غير منظورة ولا مقصودة .

وتمتم بدوره ...

— ياله من نهار جميل .

وعند ما مروا بشارع فارين واصطحبوا الدوقة معهم اتجهوا

نحو الانفاليد فاجتازوا نهر السين وبلغوا الاليزا ثم صعدوا نحو قوس النصر في ساحة النجمه وسط سيل من العربات .

كانت الفتاة جالسه بالقرب من اوليفيه منطوية على نفسها وهي تحدق بهذا السيل من العربات بعينين ساذجتين نهمتين ومن وقت لآخر كانت الدوقة والكونتس تتلقيان تحية قصيرة فتسألهما .. من هؤلاء فكان يذكر لها الاسماء .

وساروا في منتزه غابة بولونيا في ضجيج من حركة العربات ولم يكن الازدحام شديداً مثله بالقرب من قوس النصر فكانت جميع انواع العربات تمر في استعراض لا ينتهي وبين الفينة والاخرى كانت تعبر مركبة سريعة من طراز فيكتوريا فتمزق الصفوف وقد استوت فيها امرأة فتية ذات زي جري تسحب خلفها رائحة غريبة كأنها عطر ازهار مجهولة .

وسألت آنيت .. من ترى تكون هذه السيدة ؟

فاجابها برتان : لست ادري .

وقد تبادلت الدوقة والكونتس ابتسامة وامضة .

كانت البراعم قد تفتقت والبلابل تنشد اغاريدها في هذه الحديقة الباريسية المغموره بخضرة وليدة وعند ما بلغوا البحيرة كانت العربات متواصلة وكان عليهم ان يردوا على التحيات التي لا تنتهي

والابتسامات المتبادلة . فكان راس الدوقه لا يفتأ ينحني في كل لحظه امام قبعات ترفع وجباه تنحني كانها في استمراض .

وقالت مخاطبة آنيت :

— أنظري ياصغيرتي هذه مدام موند يلير اجمل نساء الجمهورية

كانت هـذه الجميله تجاس في عجله خفيفة بالغة الجمال ممتزة بجمالها الذي لا يزاحم بتينك العينين المظلمتين تحت جبهة يتوجها شعر قاتم وفمها العنيف الصارم . قال برتان حقا انها لرائعة. ولم تجب الكونتس لانها لم تكن تحب ان تسمع برتان يمتدح جمال امرأة اخرى وقـالت الفتاة وقد استيقظت في نفسها فجأة غريزة المداء . .

— اني لا ارى شيئاً من جمالها .

فاستدار اليها الرسام قائلاً . .

— ماذا ؟ انت لا تجدينها جميلة ؟

— كلاّ كأني بها قد غمست بالحبر .

وضحكت الدوقة معجبة وقالت :

— احسنت يا صغيرتي . فمنذ ست سنوات ونصف ورجال باريس يرغون الجباه امام هذه الزنجية . ربما كانوا يهزؤن بنا لو سمعوا ما تقول انظروا هيذي الكونتس لو كريست .

كانت وحدها في عربتها مع كلب ابيض والكونتس سيدة

نحيلة فكأنها الشبح ،شقراء ذات عينين رماديتين دقيقة التقاسيم وقد كانت منذ خمس او ست سنوات مبعث الهام الشعراء من مواطنيها، وحيتهم بابتسامة مثبتة فوق شفتها .

غير ان انيث لم تبد شيئاً من الاهتمام بها وقالت .

— آه انها لم تعد طرية العود .

ولم يكن برتان ليهتم بمثل هذه الاحاديث بيد انه كان يستاء من مثل هذه البدوات الصبيانية . قال :

—ان الجمال نسبي مع مبلغ الحب فاجابته الدوقة دعنا الك لا تفهم النساء الا بعد ان يجتزن الثلاثين . ان الحق بجانب هذه الطفلة واغلب الظن انك لن تعجب بجمالها الا بعد ان تذبل نضارتها .فاجاب بحدة . .

—ان المرأة لا تبدو جميلة الا بعد ان يكتمل نضوجها .

وراح يوضح فكرته بان الجمال المبكر ليس سوى طلاء للجمال الناضج فهو لا يلوم الرجال قليلي الاهتمام بالنساء الفتيات فهو لا يسم المرأة بميسم الجمال الا عندما توشك نضارتها على الاندثار .

وقالت الكونتس مزهوة بفكرته :

— ان الحق ما قال فهو يحكم كفنان . كلام جميل! ان الوجه الشاب يكون دائماً سخيفاً لا معنى له وتابعت الكونتس موافقة على كل كلمة يقولها وكان هو يتكلم بطلاقة محام يدافع معبراً عن فكرته

باشارات من رأسه ويديه ، ولم تكن آنيت تصغي اليه فهي مستغرقة في مشاهدة ما يحيط بها من حركة وحيوية . . فهذه الشمس والخضرة والعربات ،هذه الحياة الغنية المرحة . . كانت كأنها كلها ملك لها . . .

ان بامكانها ان تأتي كل يوم ، وان تتعرف بالناس ، وتتلقى التحيات ، ولا شك في ان الرجال الذين سيشاهدونها سيقولون عنها انها جميلة .

وكان اهتمامها مقتصراً على النساء الحسان والرجال ذوي الشارة فكانت تسأل عن اسمائهم فتطرب لهذه الاسماء الرنانة والالقاب الفخمة التي كانت تعرفها بالسماع ومن قراءة القصص والصحف . وخيل اليها انها تعيش في حلم . امّا العربات فهي تزعجها ايما ازعاج وكثيراً ما كانت تقول :

— ارى الاّ يسمح لسوى عربات الساده النبلاء بولوج هذا المنتزه .

فاجاب برتان :

— وما نفعل بالمساواة والحرية والاخوة (١) ؟

ونمت منها حركة تعني « هذه ليست لنا » وتابعت :

— لتخصص غابة لعربات الركاب . غابة فانسيين مثلاً .

(١) شعار الجمهورية الفرنسية الحديثة العهد في تلك الايام .

— ان افكارك رجعية يا آنستي . لقد غاب عن فكرك اننا نعيش في عهد ديموقراطي. وعلى اي حال ، اذا كنت تودين مشاهدة هذه الغابة هادئة تعالي في الصباح الباكر حيث لا تشاهدين الا زهرات المجتمع .

وراح يرسم لوحة الغابة في الفجر مصوراً ببراعته المعهودة من فيها من ناس قد خلعوا الالقاب ، والنواقص ، حتى ليخيل المرء انهم ابناء حي واحد اومدينة صغيرة واحدة .

— او تأتي انت عادة ؟

— مراراً . ان هذا امتع ما اجده في باريس .

— او تركب الحصان صباحاً ؟

— اجل

— وتقوم بزياراتك بعدالظهر ؟

— نعم

— متى تشتغل اذن ؟

— انني اشتغل ساعة يروق لي .. فانا رسام .. رسام للحسان. ومن متممات عملي ان ارى هؤلاء الحسناوات لذا فانت تجدينني في كل مكان يوجدن فيه .

وتمتمت ضاحكة :

— راكباً جوادك او سائراً على قدميك !

ورشقها بنظرة حادة راضية كأنه يقول لها :

— ها . ها . انك تجيدين التنكيت ! ستكونين سيدة لا بأس بها ..

وهبت نسمة من هواء بارد آت من بعيد ،من البرية الفسيحة التي استيقظت تواً ، فتحركت الغابه برمتهـا ، تلك الغابة العـالية الخلابة .

وتركت هبـة النسيم اوراق الاشجـار الصغيرة ترتجف اغصانها وحركت الثياب فوق اجسام الناس .وبحركة واحدة متناسقة تناولت النساء ارديتهن وجذبنها على اكتافهن وراحت شعورهن تتراقص فوق اكتافهن كأن النسيم قد قذفها قذفاً لدى ملامسته لها .

وقفلوا راجعين والشمس تنحدر الى خدرها ، ورنين فضي يملأ اسماع الكون . وقالت الكونتس وهي لا تجهل عادة اوليفيه :

— انعود الى بيتك ؟

— كلاّ اني قاصد النادي

— اذن سننزلك اثناء مرورنا .

— هذا احسن . شكراً ،

— ومتى ستدعونا للغداء مع الدوقة ؟

= لكم ان تحددوا اليوم

كان هذا الرسام ينعم باعجاب الباريسيات عموما حتى لقد أطلق عليه مريدوه اسم (واتو [1] الواقعي) في الوقت الذي اطلق عليه مبغضوه « المصور الفوتوغرافي للفساطين والمعاطف » . كان يدعو كثيراً الجميلات اللواتي رسمهن الى ما ئدته ، وغيرهن ايضاً من الشهيرات الذائعات الصيت اللواتي يجدن متعة في حفلات هذا العازب

واجابت مدام غيروا :

— بعد غد . ايوافقك بعد الغد يا عزيزتي الدوقة ؟

— لا باس . انت لطيفة يا عزيزتي . فالسيد برتان لا يهتم كثيراً بدعوتي الى مثل هذه الحفلات لاني لم اعد شابة .

وعادت الكونتس تقول ، هي التي تعتبر بيت الرسام ، نوعاً ما ، كبيتها :

— لن يكون سوانا ، نحن الاربعة الذين في العربة الدوقة وآنيت ، وانا وانت ، أليس كذلك ايها الرسام الكبير ؟

— لا احد سواكم . هذا حسن وسأقدم لكم (سراطين) على الطريقة الالزاسية

— هذا سيدخل السرور على نفس الصغيرة

(١) Watteau رسام شهير عاش في مطلع القرن التاسع عشر

وحياهن من طرف شفتيه واندفع في المدخل ذي القناطر المفضي الى النادي ، ومرّ بفريق من الخدم نهضوا لدى رؤيتهم اياه كأنهم جنود يمر بهم ضابط ، فالقى اليهم بعصاه ومعطفه وراح يصعد السلم قفزاً عابراً بغيرهم من الخدم ذوي السراويل القصيرة

وولج باباً فصكت سمعه اصوات لاهثة سريعة : هيا . لقد لمستني . دع ذلك . لقد نلتها . هيا . لمستك .

ووجد نفسه في غرفة السلاح حيث راح اللاعبون يتمرنون وقد ارتدوا ثياباً من قماش رمادي وسترات من الجلد واشهروا بايديهم سيوفا طويلة يحركونها حركات ميكانيكية وكان فريق جالسا ، لاهثا وقد حمل كل فرد منديلاً بيده راح يجفف به جبهته وعنقه منتفخ الوجه احمره ، وفريق آخر كان جالساً على الديوان المربع الذي يدور حول جدران الغرفة وقد انصرفوا الى مشاهدة المباراة

ودخل برتان باسما وصافح الجميع وبدا كانه في بيته

وهتف به البارون دي يا فيري

— اني احجزك !

— انا طوع امرك

ودلف الى غرفة الثياب لنزع اردبته .

فمنذ مدة طويلة لم يشعر برتان بمثل هذا النشاط واغلب الظن

انه سيقوم بمبارزة رائعة فهو يشعر بصبره يفرغ للشروع بها كأنه تلميذ يستعد للعب في مباراة .

وما ان رأى نفسه امام خصمه حتى هاجمه بلاهوادة وخلال عشر دقائق كان قد لمسه احدى عشرة مرة وانهكه لدرجة جعلت البارون يطلب الرحمة . ثم لعب مع اثنين آخرين .

واكسبه الحمام البارد الذي اخذه بعد اللعب شعوراً بالبرد حمل ذاكرته الى شبابه يوم كان في العشرين وكان يثب الى السين من فوق الجسور في الخريف ليستحوز على اعجاب البورجوازين .

وسأله صديقه مادان :

— ستتمشى هنا ؟

— اجل .

سنجلس مع الرفاق الآخرين . هيا فالساعة السابعة والربع

وخلال تناولهم الطعام دار الحديث في مجمله حول النساء وراح كل منهم يحدث الآخرين عن مغامراته العاطفية محتفظاً باسم عشيقته او ذاكراً صفة من صفاتها او ملمحاً اليها باسم صغير . وما ان جاء دور برتان حـ قال بتحفظه المعتاد :

— اما انا فاني قانع « بالنماذج (١) » .

«١» mod يطلق على المرأة التي تقف عارية امام الرسام

ثم انتقلوا الى موضوع السن وهل يعوق الرجل عن السير قدماً في مغامراته فاجمعوا ان الرجل في باريس لا يهرم والنساء الرخيصات لا يأبهن بالسن فاكثرهن يفضلن متمولا كهلا على فتى مملق .

ونهضوا بعد ان استعرضوا اسماء الملاهي التي يمكن قضاء السهرة فيها :

السيرك . الايبودروم . عدن . والفولي برجير .. .

وبلغت اسماعهم موسيقى بعيدة وهم خارجون . فقال روديكان

— اسمعوا . في النادي موسيقى هذه الليلة .

فاجاب برتان : اجل فلنمض عشر دقائق في الاستماع اليها .

وعبروا غرفة البليار وغرفة الالعاب فوجدوا انفسهم في شبه شرفة تطل على المسرح وكان هناك بضعة رجال جلوساً في مقاعد مريحه وفي الاسفل قد تبعثر بضعة عشر شخصا بين المقاعد الخالية .

كان اوليفيه يعبد الموسيقى ويدمن عليها كما يدمن المرء تعاطى الافيون فهي تحمله سريعا الى عالم مفعم بالاحلام .

فما ان جرفه فيض الانغام حتى احس بنفسه محمولا على اجنحة سحرية من النشوة جعل جسمه وعقله في حالة هياج عجيب واندفع خياله مجنونا بتأثير النغم العذب فنام في عالم كله سحر وفتون

واحلام مذهبة الحواشي واطبق جفنيه وصالب ساقيه وترك ساعديه يهبطان الى جنبيه وكان على مثل هذه الحالة يرى كل ما يعبر امام ناظريه او امام عين خياله .

وعزفت الفرقة قطعة لهايدن ، فاغمض الرسام عينيه واستعاد في مخيلته منظر الغابة والحشد من الناس والعربات امامه ، في المركبة ، الكونتس وابنتها . .

وخيل اليه انه يسمع اصواتهما ويصغي الى حديثهما ويشعر بحركات المركبة ويستنشق عبير اوراق الشجر .

وقطع عليه جاره هذا الاستغراق مرات ثلاثا فكان لا يلبث ان يستعيده في كل مرة كما يستعيد المسافر في البحر دوي الموج عندما يأوي الى سريره بعد انقضاء الرحلة .

وكان الوجهان الجميلان ما ثلين امام ناظريه طوال العزف فكأن تلك النزهة في الشمس المائعة قد طبعت الصورة في اعماق عينيه

ونهض معتذراً لرفيقيه بشيء من التعب يدعوه للانسحاب ولم يكن به في الواقع اي عناء اذ على العكس كان بالغ النشاط والحيوية الا انه رغب في الانصراف كي ما تنتهي سهرته على طاولة البكارا تلك الليلة

وفي صبيحة اليوم التالي نهض بعد ليلة ارقة من تلك الليالي

التى تدفع بالفنان في توفر اعصابه ، الى العمل الصارم المتواصل . وقرر الا يخرج مطلقاً وان يعمل حتى المساء .

وكان يومه رائعاً : فقد اندفع في عمـل سهل كانت الفكرة تنساب من رأسه هينة فينقلها فوق اللوحة جليه قوية .

واغلق ابواب مسكنه فخيم السكون المطبق نتيجة لانفصاله عن العالم الخارجي وراح في شبه استغراق روحي فني يعمل ويعمل . .. وقد غاب بوعيه عن العالم ! فلا شيء يعكر عليه انكبابه على لوحاتـه حيث كانت الصور تتكون تحت مس فرشاته بطريقة شبـه سحرية واحس بما يشبه نوبات الانتاج الثر . وفي المساء كان تعبـاً فـأوى الى فراشه لا يحلم بسوى وليمة الغد .

وكانت المائدة غنية بالالوان ، فهو يعرف في مدام غيروا عشيقته النهم المهذب ، وبالرغم من مقاومة ضيوفه العنيدة فقد تمكن من اسقائهم الشامبانيا .

قالت الكونتس : ولكن الصغيرة قد تسكر .

فاجابت الدوقة مداعبه : ـ وما ذا في ذلك ؟ لا بد للمرء من ان يسكر ولو لمرة واحدة في حياته ! وقد احس الجميع لدى عـودتهم الى المرسم بشيء من تلك البهجة التي تنبت للاقدام اجنحة !

و كان على الدوقة والكونتس ان يحضرا اجتماعاً في ندوة « الام

الفرنسيه » فشاءتا توصيل الفتاة الى البيت قبل ذلك غير ان برتان عرض ان يصحبها هو ليقوما بجولة على الاقدام . وخرج الاثنان ..

قالت آنيت : - لنتخذ اطول السبل .

- اتحبين التنزه في حديقة مونسو ؟ ستشاهدين هنالك عربات الاطفال ومربياتهم انه مكان جميل .

- كم احب ذلك !

واجتازا شارع فالسكي ، وعبرا السلسلة الذهبية التي تغلق مدخل هذه الحديقة الخلابة الانيقة ، العارضة في قلب باريس جمالها الاصطناعي المخضوضر في وسط قصور النبلاء والامراء .

وعلى طول المماشي المحفوفة بالخمائل والازهار كان سيل غير منقطع من نساء ورجال يجلسون فوق المقاعد الحديدية ينظرون الى السابلة في شبه استعراض . وفوق المماشي الضائعة بين الخمائل الخضر كانت جموع الاطفال يلعبون ويمرحون تراقبهم اعين المربيات اليقظة او تتابعهم انظار الامهات القلقات . وكانت الاشجار الهائلة مستديرة القمم كانها ابنية مقببة من اوراق ، الكستناء العملاقة تخضر بها القاعة وقد تدلت منها عناقيد حمراء او بيضاء ، والسيكومور النبيل ، والنباتات التزيينية كانت بسوقها المتسلقة تسبغ على الحشائش المتماوجة منظراً جذابا اخاذاً ...

كان النهار حاراً واليمام قد شرع بترديد هديله بين الاوراق متنقلا من قمة الى قمة بينما راح الدوري يستحم في قوس قزح شكله غبار الماء المندفع من الرشاشات تحت الشمس المائعه ... وظهرت التماثيل الناصعة سعيدة فوق قواعدها في وسط هذه الطراوة الخضراء. فهذا شاب رخامي جالس يحاول استئصال شوكة، لم يهتد اليها، من قدمه وكأنها قد غرست في تلك القدم اثناء مطاردته (لديانا) الواقفة بعيداً تحت خميلة تختبئ فيها اثار معبد وتماثيل اخرى تتعانق بهيام على شاطئ البحرات او تحلم جالسة وركبها في يديها ..

وثمة شلال صغير يهدر منزلقاً فوق صخور لامعة الجمال ... وشجرة مقنطرة تتسلقها لبلابة فاقمة الخضرة ... ومدفن قديم يحمل كتابة ... وثمة اثار حجرية لا تذكر بالاكروبول كما ان هذه الحديقة الصغيرة الانيقة لا تذكرك بالغابات العذراء ...

ان هذا المكان هو الوحيد الذي يتيح للفنان ان يشاهد ما تستطيع ان تقدمه الطبيعة في قلب باريس كما تقدم لنا المسارح صوراً مختارة من الحياة ...

منذ سنوات واوليفيه برتان يقصد هذه الحديقة يومياً ... ففيها يستطيع مشاهدة الباريسيات في اطارهن الطبيعي .. « إن هذه الحديقة خلقت لكل شخص جميل انيق . اما ما عدا ذلك فيشوه من

جمالها الخلاب . » كما كان يردد دائماً .. وفيها كان يتنزه الساعات الطوال متعرفاً على كل نبتة او كل وجه من وجوه روادها المعتادين.

وهو يسير الآن الى جانب آنيت على طول المماشي وقد انصرف نظره الى الحياة الناشطة في هذه الحديقة .

وهتفت آنيت : ـ انظر ! ما اجمله !

واشارت الى طفل ذي حلقات ذهبية تتوج رأسه وهو يرنو اليها بعينين زرقاوين بريئتين . . وقد بدا مندهشاً معجبا .

ثم مروا بشبه استعراض للاطفال ، فكأن رؤية هذه الدمى الحية المزدانة بقشيب الثياب ، جعلها ثرثارة ومحبة للجدل

كانت تسير الى قرب برتان بخطى قصيرة مبديه ملاحظاتها على من يمر ان به من اطفال : فالسمين منهم كان يوحي اليها ملاحظات مضحكة والشاحب يثير فيها عاطفة الشفقة والحنو

وكان برتان يصغي اليها بكل جوارحه وقد اطربه حديثها اكثر من رؤية الاطفال والمربيات فكان يتمتم : « يا للرقة » غير ان ذهنه لم ينصرف عن التفكير في صنع لوحة تمثل جانبا من هذه الحديقة مع قبضة من المربيات والاطفال . كيف لم يخطر له ذلك ببال قبل الآن؟

وسألها : او تحبين هؤلاء « العفاريت » ؟

— اني اعبدهم !

وخيل اليه ، وهو يراقبها تنظر اليهم ، ان رغبة ملحة تكاد تدفع بها الى اخذ هؤلاء الاطفال بين ذراعيها وتقبيلهم . . انها رغبة ماديـة عاطفيه . انها رغبه ام المستقبل ! تلك الغريزة السرية المختبئه في عروق هذه المرأة !

واحست بها ميلا الى الثرثرة فجاراها فراحت تحدثه عن الجياد . ففي (رونسير) حيث ربيت كانت السيدات تهتم اهتماما خاصا بتربية الجياد وكان اهتمامهن بالزوج اقل منه بالشقة التي قد تضطرن الى استئجارها بين الشقق المعدة للايجار في البنايات الكبيرة

ثم تابعا سيرهما صامتين وعبرا باحواض تسبح فيها ضروب من طيور البط والبجع وكان برنان تائها في مهامه افكاره وتوقف فجأة وهتف :

— ما اجمل ان يسير المرء هكذا !

ثم استدار الى آنيت وقال :

— قولي يا صغيرتي . ايزعجك ان تقفي امامي مرة او مرتين لاصورك ؟

— كلاّ . انه لمن دواعي اغتباطي

— انظري جيداً هذه الفتاة السارحة مع آمالها ...

اجل ... ستجلسين كجلستها فوق مقعد وتأخذين كتابا

فوق ركبتيك وتحاولين ان تعملي كما نعمل .. احدثك ان حلمت مستيقظة ؟

— اجل ...

— بمَ ؟

وحاول ان يحملها على الاعتراف الا انها لم تشأ ان تسر اليه شيئاً فاعتصمت بصمتها وراحت تداور في الحديث منصرفة بكليتها الى مراقبة اسراب البط العائمة فوق الماء تلاحق فتات الخبز تلقيه اليها سيدة من المتنزهات ... وبدت مستاءة من سؤاله كانه مس منها وترا بالغ الحساسية ...

وثم انتقلت بالحديث فروت له طرفا من حياتها في روتسيير حيث كانت تقرأ لجدتها الكتب بصوت عال .. لا بد ان تكون تلك الجدة المسكينة الآن تقاسي الوحدة والضجر ..

وشعر الرسام وهو يصغي اليها بمرح طاغ يسيطر على كل جارحة فيه .. مرح لم يشعر به قبل ذلك ابداً ... فكان كل ماترويه له من هذه الثرثرة البريئة الفارغة السخيفة يثير في نفسه سروراً كبيراً واهتماما متزايداً ...

وقال لها : لنجلس ..

واقتعدا كرسيا قرب الماء وجاءت بجعتان تطفوان امامهما

يحدوها امل القاء بعض الطعام اليهما ..

ووجد برنان نفسه وقد قفزت ذكريات كثيرة الى وضح ادراكه .. تلك الذكريات القديمة العزيزة التي كانت غارقة في لجج من النسيان الراكدة .. فكأن يداً قوية اخذت تهز بحيرة ذكرياته الهادئة ... كما يحدث له كثيراً ، لمجرد رائحة تصفع انفه ، او ثوب نسائي يخطر امامه ... وراحت ذاكرته تعرض امامه شريط من ذكريات قديمة عابقة بالف عطر وعطر ... مفعمة بالف لون ولون امسيات صيف حارة ،واصائل شتاء باردة .. بساتين وحدائق وبيوت قطع من اثاث .. وروائح عطرية ...وبشكل خاص تلك الروائح التي لا تنسى .. والتي تبعث ذكرياته .. او تحفظ لها جدتها كما تحفظ روائح « الآرومات » المومياءات من التحلل والفناء ..

اهي خضرة الخمائل ، ام الماء السلسل ام العشب الندي ؟ما الذى اثار فيه هذا الحنين الملحاح الى الماضي ؟ أتراه صادف بين المتنزهات وجهاً ذكره بوجه من ماضيه ؟ ربما . . . ولكن اين وكيف ؟ ليس يدري . . كل ما يعلم ان نواقيس قلبه اخذت تدق دقا عنيفا موقظة بين حناياه ماضيا حاراً عباق النفح بعطر فواح ...

وقال لها : ــ لقد برد الجو .. هيا بنا نعود ..

وسارا .. ولمحا في طريق اوبتهما بعض الفقراء جلوسا فوق

المقاعد الحجرية ...

ولفت وجودهم نظر آنيت التي استغربت كيف يعيش مثل هذا البؤس في جو كجو هذه الحديقة الفتانة الفخمة ...

وكان اوليفيه مازال هائما مع ذكريات ايامـه الخوالي ... وكأن ذبابة تطن في اذنيه طنينا مزعجا لا ينتهي ...

ـ ما بك ؟ انك تبدو كئيبا جدا ...

وانتفض لدى سماعه قولتها .. ترى من الذي وجه اليه هذا السؤال ؟ اهي ام امها ؟ كلاّ ليست امها .. فصوتها الآن قد تغير وربما كان صوتها يأتي من مهامه الماضي السحيق ...

واجاب باسما : — ليس بي شيء . انك مسلية جداً ، ولطيفة جداً . انك تذكرينني بامك . كيف لم يفطن الى مدلول هذا القول المعتاد الذي خرج من شفتين لاعهد له بهما ؟

— تكلمي .. تكلمي ..

— عمّا ؟

— حدثيني ـ عما علمتك معلماتك !

وعادت تثرثر كطفل منطلق من المدرسة بعـد نهار اسر طويل ...

وراح يصغي وقد اخذه اضطراب متزايـد .. كان يراقب

عباراتها ، ويستوعب جملها فهذه الفتاة ما تزال غريبة عن قلبه . .
ولكنها لا تعدم كلمة او تعبيراً تخرجه حنجرتها يذكره بامها يوم كانت شابة مثلها ... وكم كان ينتفض دهشا لدى سماعه غنة صوتها . انه نفس الصوت الاغن . .

لا ريب ان ثمة اختلافا كبيراً حتى لتنكر كل صلة بينهما . . غير انه لا يلبث ان يأتيك بنبرة تيقظ الذكرى على حين غرة . وكان قد لحظ الشبه العظيم في هيئتي الام والابنة الأ انه الآن ، وهو يصغي الى ثرثرة الفتاة ، يدير رأسه ناحية ، فيخيل اليه انه يعود اثني عشر عاما الى الوراء . . ويصغي الى عشيقته الشابة تحدثه ...

وكانا قد قاما بدورة الحديقة المرة الثالثة امام نفس الاشخاص وذات الاشياء والاطفال ...

وراحت آنيت تسأله عن القصور المحيطة بالحديقة وعن اصحابها . . انها تريد معرفة كل شيء . . . بشيء من النهم ... فذا كرتها النسائية بحاجة الى ما يملؤها وهاهي تصغي بعينيها اكثر من اصغائها باذنيها .

وانتبه برتان وهما يجتازان بوابة الحديقة ان الساعة الرابعة اوشكت ان تدق .

قال لها : اوه . يجب ان نعود . .

وبلغا متمهلين شارع ماليرب . . .

وما ان غادرها حتى اجتاز ساحه الكونكوردا ليقوم بزيارة على ضفة السين الثانية . كان يترنم ببعض الاغاني ، واحس رغبة في العدو وكم بدت له باريس خلابة كما لم يرها من قبل وفكر : « لا ريب في ان الربيع هو الذى اسبغ على الكائنات كل هذا الرواء »

كان في مثل تلك الحالات التي تنفتح فيها الروح فتفهم كل شيء بمزيد من الغبطة ، فتنفتح العين على كل ما في الحياة من جمال فكأنها تزداد حساسية ونفاذاً فيتاح للمرء ان يتذوق الجمال باوسع معانيه كما لو كانت يد قادرة قد مسحت الارض فاحالتها ريانة ومرت على الكائنات فحركت فيها الحياة الراكدة كما نشد رقاص ساعة متوقفة فتعود الى العمل النشيط الرتيب . . .

وفكر وهو يداعب بانظاره الف شيء جميل : ـ لأعترف بان ليس ثمة ما يشكل موضوعاً للوحة ! » ذلك أن ذكاءه المنفتح على جمال الحياة وروائها جعل كل عمل فني بالنسبة لهذا الجمال شيئا سخيفاً . . وان ثمة طريقة مثلى لتصوير الحياة على حقيقتها وطرافتها . ودهمته فجأة الرغبة في العودة الى الرسم . فاستدار على اعقابه وسار حتى بلغ مرسمه فاغلقه على نفسه . .

وما ان وجد نفسه امام القماش المعد للرسم حتى احس تلك الرغبة

في العمل تضمحل والقى بجسمه فوق الديوان وراح يداعب احلامه .

لقد بدأت نقطة التحول في نفسه تقوى وتنجلي . فهو لم يعد ذلك الرجل المشبعة فيه كل الرغبات .. فها هو بيته فارغاً . . ومرسمه الكبير خاوياً . وخيل اليه ان طيف امرأة يعبر امامه . . . امرأة حبيبه منشودة . . فمنذ زمن بعيد فقد نفاد الصبر الذي يشعر به الرجل وهو مقيم بانتظار عشيقته . . وها هو يشعر فجأة ان تلك الحبيبة قد ابتعدت عنه وهو راغب في قربها تقرفز اعصاب شاب مراهق . . وراح يستلذ ترجيع ذكريات حبه ، فكل ما في هذة الشقة يذكره بها . . . باقوالها وحركاتها وبقبلاتها . . انه يستعيد بعض الايام . . بعض الساعات . . بل بعض اللحظات . . وهو يحس مداعباتها في الايام الخوالي تلك . . .

ونهض . . وراح يزرع الغرفة مفكراً . . . فالبرغم من هذه العلاقة التي ملأت وجوده فترة طويله الا انه كان وما زال يشعر ان حياته فارغة . . قاحله . . وانه كان دائماً وحيداً . . . فبعد ساعات طوال يقضيها في عمله يتلفت فلا تصطدم عيناه بسوى الجدران الباردة الجهمه . . . فهو لكون حياته خالية من المرأة ، كان عليه حين يشاء الاتصال بحبيبته ان يترسم خطى اللص بينما يقفي الساعات الطوال يقتل وقته بطرق شتى كان الاحرى به ان يقضيها برفقة المرأة المحبوبة

التي تشاركه الحياة · فلو كانت تعيش معه تلك المرأة لما كان عليه ان يرتاد النادي والملعب والاوبرا والاوبودروم بمثل هذا الالحاح حتى غدا لديه ذلك عادة مسيطرة ...

في الايام الخوالي كان يثور على النظام الاجتماعي الذي يحول دون اتصاله الدائم بمعشوقته ثم اخذت ثورته تضؤل وارتضى هذه الحواجز قانعاً لنفسه بالحرية ... اما اليوم فانه يحس ندامة لما اقدم عليه .. ويتمنى لو انيح له استعادة تلك الايام لينهج غير ذلك النهج .

لقد اصيب بنكسة حب ... ولعل للربيع يد في ذلك ... ام انه الباعث هو سماعه لصوت يشبه صوت معشوقته يوم كانت شابة نضرة ...

ان الاشياء الصغيرة التافهة كافية لاثارة الحنين في قلب رجل يكتهل ، فيثير ذلك الحنين بدوره الما وندامة ..

وكما في الماضي ، شعر بحاجة ماحة لرؤيتها .. رغبة تغلغلت في روحه وعروقه تغلغل الخمر وراح يفكر فيها كما يفعل عاشق مراهق ومن ثم عزم على الذهاب لرؤيتها وتناول كأس من الشاي عندها بالرغم من انه شاهدها في ذلك الصباح بالذات ..

وبدت له الساعات طويلة لاتنقضي وما ان بلغ شارع (مالرب) حتى ادركه خوف حقيقي .. فقد لا يجدها .. وقد يتحتم عليه ان

يقضي سهرته هذه وحيداً كما قضي سهرات كثيرة من قبل . .

وعند ما اجابه الوصيف بان الكونتس موجوده احس فرحاً حقيقياً يطغي على فؤاده وقال وهو يقف على باب الصالون الصغير حيث جلست المرأتان تحت مصباح تشتغلان :

— ها انذا ايضاً . .

وهتفت الكونتس : اهذا انت . . اى حظ سعيد !

— لقد شعرت بوحدة مره . . فجئت

— ان هذا لطيف منك . . .

— او تنتظرون احداً ؟ .

— كلاّ . . ولكن ربما . . لست ادري على وجه التحقيق .

وجلس وراح ينظر بعين الحقد الى ذلك الصوف الاسمر الخشن الذي تنسجانه بسنانير طويلة من خشب : وسأل :

— ما هذا ؟

— انه اغطية .

— للفقراء ؟

— لاشك .

— انه قبيح جداً !

— ولكنه دافيء جداً

— ربما . ولكنه بالغ القبح وخاصة في وسط هذه الشقةطراز لويس الخامس عشر حيث يداعب كل شيء فيها الانظار وعليكم ان يكون احسانكم لاصدقائكم المعوزين اكثر اناقة .

فحركت الكونتس كتفيها وقالت :

— يا للرجال . ولكنهم في كل مكان ينسجون مثل هذه الاغطية

— اعرف ذلك جيداً . . غير انه ليس من المستحب ان يأتي المرء لزيارة اصدقائه فيجد اجمل السيدات وآنقهن يسحبن وراءهن مثل هذا الشيء القبيح المنفر . . فوق افخم الطنافس وادق الاثاث . . . ارى ان لكم ، في هذا الربيع ، احساناً سقيم الذوق !

وشاءت الكونتس ان تختبر صدق قوله فنشرت ما نسجت فوق كرسي مغلف بالحرير الى قربها وقالت :

— في الواقع . . انه شيء قبيح .

ثم عاودت العمل . وكان الرأسان المنحنيان تحت النور الوردي يتلقيان سيلاً من اشعته تنساب بين خصلات شعرهما فتسيل فوق الخدود الاسيلة . .

ثم تنحدر منسالة فوق الثوبين فالايدي العاملة نسجاً . . . بينما تتابع اعينهما هذا العمل بقليل من الاهتمام شأن من اعتادت انامله على

مثل هذا العمل حتى العمل وعينه تتابعه دون ان يهتم عقله به كل الاهتمام

وفي زوايا الصالون الاربع ، ارتفعت اربعة مصابيح من الصيني فوق اعمدة من خشب قديم مذهب ، كانت تنشر فوق الطنافس نوراً لطيفا يتخلل ستراً شفافة من الدانتيلا تغلف زجاج المصابيح .

واختار برتان مقعداً شديد الانخفاض ، ذلك المقعد الذي يفضله دائما عندما يتحدث الى الكونتس فكأنه جالس تحت قدميها . . .

قالت له : لقد قمت بنزهة طويلة مع آنيت في الحديقة .

— اجل لقد ثرثرنا كصديقين قديمين . اني احب ابنتك حباً جماً . ان الشبه بينكما عظيم . وعند ما تتلفظ ببعض الجمل يخيل للمرء انك نسيت صوتك في فمها . . .

— لقد ردد ذلك زوجي كثيراً . . .

وعاد ينظر اليهما وهما تعملان مغمورتين بنور المصباح . .
وعادت افكاره تعذبه وكانت تدور كلها حول بيته الفارغ البارد . . . برغم النار الموقدة في الموقد وعصرت هذه الفكرة فؤاده كأنه يدرك ذلك للمرة الاولى .

آه ! كم من مرة تمنى لو كان زوجا لهذه المرأة لا عشيقاً لها ! لقد فكر فيما مضى بان يختطفها . يسرقها من هذا الرجل . . . امّا اليوم فهو يحسده . يحسده لانه ، بالرغم من انها تخدعه ، فهو يقيم

دائما بقربها متمتعاً بلطف الاتصال بها كل يوم .

وكلما نظر اليها احس رغبة في ان يسر اليها اشياء قديمة استمادتها ذاكرته

حقا انه ما زال يحبها . . بل اكثر من الماضي . . وهذا اليوم اكثر منه في الايام الاخر . يريد ان يحدثها عن رغبته المتجددة فيها . وعن احساسه بالشباب والنشاط . . وهو ينتظر بصبر فارغ ان تذهب الفتاة الى فراشها باسرع وقت ممكن . . .

وكان دائم النظر الى ساعته صامتا وقد سيطرت عليه فكرة انفراده بها ودنوه منها حتى يلتصق بها ويلقي برأسه الى ركبتيها ثم يتناول يديها فيلقي النسيج الصوفي والسنانير الطويلة الخشبيه جانبا . . . وفكر : انها عادة سيئة ان يسمح للفتيات الصغيرات بالسهر مع الاشخاص الكبار . .

وسمع خفق خطوات في الغرفة المجاورة ثم اطل الخادم واعلن:

— السيد دي ميزاديو .

وثار في برتان غضب كبته وعندما صافح مراقب الفنون الجميلة تحركت فيه رغبة في ان يتناوله من كتفيه ويلقي به خارجا .

وكان ميزاديو حاملا اخباراً كثيرة : الوزارة توشك ان تسقط وهناك من يتمتم بفضائح تتعلق بالمركيز (روكديان) واتبع

وهو يدنو الى الفتاة :

— ساحدثكم بذلك فيما بعد .

ورفعت الكونتس ناظريها الى ساعة الحائط فتحققت من ان العاشرة توشك ان تدق :

— لقد ازف وقت النوم يا بنيتي .

ودون ان تتلفظ بكلمة . نهضت وطوت نسيجها ثم قبلت امها وصافحت الرجلين واتجهت الى غرفتها هادئة كأنها لم تحرك الهواء اثناء عبورها الصالون .

وسألت الكونتس بعد ان خرجت ابنتها :

— هات حدثنا بفضيحتك .

— يتناقلون ان المركيز دي روكديان الذي كان قد افترق عن زوجته حبياً وخصص لها دخلاً ثابتاً وجدته هي غير كاف ،فاستنبطت طريقة فريدة واكيدة لترفع رقم هذا التعويض . فقد هيئت طريقة جعلت الشرطه تضبطها في احد النزُل في حالة مريبة مع بعض الناس واضطر ان يدفع الثمن الرجيح لشراء محضر الضبط الذي نظم بها .

كانت الكونتس تصغي مفتوحة العينين وقد تركت النسيج يسقط فوق ركبتيها .

وراح برتان ، الذي ساءه حضور ميزاديو خاصة بعد خروج الفتاة ، ينفي التهمة زاعماً انها افتراء دنيء من تلك الافتراءات التي يجمل بالمجتمع الا يعمد الى ترديدها ناهيك عن تصديقها . وغضب ، فنهض واستند الى المدفاة وراح يتكلم بثورة اعصاب رجل مستعد لأن يجعل من مثل هذه القصة سبباً لعداء شخصي ..

ان روكديان صديقه ، وان كان المجتمع استطاع الصاق تهمة الخفة والرعونة به الا انه لم يستطع يوماً ان يصمه بما يحط من كرامته كرجل . وقد اخذ ميزاديو على حين غرة ، فدافع ثم تراجع وانتهى به الامر الى الاعتذار ... :

– لا تؤاخذني .. فقد سمعت هذه الحكاية منذ لحظات لدى الدوقة دي مورتمان .

– ومن حدثك بها .. انها امرأة ولا شك .

– كلا . ابداً . انه المركيز دي فارندال ...

واجاب الرسام محتداً : هذا لا يدهشني منه !

وخيم صمت . وعادت الكونتس الى عملها . واستطرد برتان بصوت هادئ :

– انى اعلم جازماً ان تلك الحكاية لا ظل لها من الحقيقة !

وهو لم يكن يعلم شيئاً . فللمرة الاولى يسمع عن مثل هذه

المغامرة . وتراجع ميزاديو لما ادرك خطورة الموقف . وتكلم عن رغبته في زيارة آل كوربيل وفي تلك اللحظة ظهر الكونت دي فيروا عائداً بعد تناول العشاء في المدينة . فعاد برتان يجاس وقد يئس من امكان التخلص هذه المرة من الزوج . وقال الكونت:

— انتم لم تعرفوا بالفضيحة الكبرى التي تتردد هذا المساء ؟

ولما لم يجبه احد تابع:

— يبدو ان روكديان قد فاجأ زوجته في اتصال اجرامي اجبرها على دفع الثمن غالياً : وهنا شعر برتان بالخيبة فاقترب من الكونت والقى راحتيه الى ركبتيه وراح يحدثه بنبرة رفيقة عما كان يطلقه في وجه ميزاديو منذ لحظة

واقتنع الكونت نصف اقتناع وراح ينحى باللائمة على نفسه لأنه روى بخفة مثل هذا الحديث الذي قد يكون عارياً عن الحقيقة بل مدسوساً .. واسند ذلك الى جهله وبراءة مقاصده . فالناس يروون اشياء كثيرة خاطئة او عن نية سيئة .

وسرعان ما اتفق الاربعة على ان معظم الشائعات التي تترددفي المجتمع كاذبة او خبيثة وان ليس للنساء عشاق بقدر ما يذاع عهن وان الرجال ليسو من الخفة والتحلل الخلقي بالدرجة التي تصورهم بها التقولات . والخلاصة ان ظواهر الاشياء اسوء كثيراً ولم يعد لدى

برتان ما يدعوه للاساءة الى ميزاديو بعد حضور الزوج . فانتقل به الى الاحاديث التي يفضل خوضها وراح يمتدحه متظاهراً بالاعجاب بـه . بينما خالط شعور الكونت بانه هـو الرجل الذي يلقي الوفاق والسلام حيثما حل وانى اقام .

ودخل خادمان بخطي خرساء فوق الطنافس يحملان مائـدة الشاي . ونهضت الكونتس لتقدمها الى ضيفيها بعناية بالغةعلى الطريقه الروسية وقدمت كأساً لميزاديو وآخر لبرتان ثم عادت تقـدم لهما صحافاً تحمـل السندويش الدسم والحلويات المصنوعة على الطريقـة النمساوية والانكليزية .

ودنا الكونت من مائدة متحركة تحمل زجاجات المشروبات والاقـداح وصب لنفسه كأساً تجرعها ثم توجـه الى غرفة مجاورة اختفى فيها .

ووجد برتان نفسه من جديد امام هذا المزعج ميزاديو . وعاودته الرغبة في القائه خارجاً .. بينما كان هـذا منصرفـاً الى رواية قصص حدثت له او لسواه . وكان الرسام لا يفتأ ينظر الى الساعة التي بدأ عقرباها يدنوان من منتصف الليل . وادركت الكونتس ان عشيقها يحمل اليها ما يقوله . وببراعة سيـدة الصالون التي تستطيع ان تفهم ضيوفها ، في ايه ساعة ، ودون ان تنبث بكلمة ما ، اذا كان عليهم

ان ينصرفوا او يقيموا ، بمجرد تلك البرودة والضجر اللذان تستطيع اثارتهما حولها كما لو كنت قد فتحت نافذة في مساء بارد .

واحس ميزاديو هذه البرودة تنتشر حوله وتجمد افكاره ، وادرك ان خير ما يفعله هو النهوض والانصراف .

وكرجل يعرف اساليب اللياقة ، شاركه برتان حركته ، فنهض الرجالان وسارا فتبعتهما الكونتس التي راحت تحدث برتان ثم استوقفته امام الباب بينما كان الوصيف يساعد ميزاديو على ارتداء معطفه

ووجد مراقب الفنون الجميلة نفسه منتظراً امام الباب الخارجي امام الرصيف فاقام لحظات ثم قرر الانصراف وحيداً اذ ان مدام غيروا كانت منهمكة في الحديث مع الرسام .

واغلق الباب خلفه . وقالت الكونتس لبرتان بمنتهى الدعة :

– ولكن .. لِمَ تنصرف مبكراً هكذا ؟

واذ بهما يدخلان الصالون الصغير وما ان جلسا حتى قال برتان:

– يا الهي كم ساءني وجود هذا الحيوان ..

– ولِم ؟

– لقد حرمني منكِ .

– آه . ليس كثيراً كما تتصور .

– هذا ممكن . ولكنه قد ازعجني .

— او تغار ؟

— ليس من الغيرة في شيء ان يشعر الانسان بثقل الآخرين.

وعاود الجلوس فوق المقعد الصغير وراح يداعب بأنامله قماش ثوبها وهو يصف لها الحرارة التي انزلت هذا اليوم في قلبه .

كانت تصغي اليه مأخوذة ، شديدة الاغتباط ، وقد راحت تتخلل شعره المبيض بانامِلها كأنها تسدي اليه بذلك شكرها . قال لها:

— كم اتمنى ان احيا ابداً الى قربك .

وكان هذا الزوج النائم في غرفة مجاورة دون ان تساوره الشكوك ، لا يبرح من فكره . وتابع :

— لا يوجد في الواقع سوى الزواج ليوحد وجودين ...

— وتمتمت وصوتها يغص بالشفقة عليه وعلى نفسها :

— يا صديقتي المسكين !

والقى بخده الى ركبتيها وراح يدنوا اليهـا بحنو حزين ، مؤلم ، واقل احتراما منه عند ما كان يحول بينه وبينها ، بزادبو وابنتها وزوجها..

وقالت بابتسامة وهي ما زالت تداعب شعر برتان بانامِلها :

— يا الهي .. كم يبدو شعرك ابيض ! لقد اختفت آخر شعره سوداء فيك .

— اني اعرف ذلك للاسف ... انه يسرع .. يسرع ...

وخشيت ان تحزنه :

ـ صحيح ولكنك بدأ فوادك يبيضان يوم كنت في شرخ شبابك . فقد عرفتك دائما وشعرك ملح وفلفل ...

ـ اجل . هذا صحيح .

ولتمحو كل ما قد تتركه كلماتها من اثر مؤسف انحنت فوقه وتناولت جبهته وراحت تطبع فوقها قبلات بطيئة حانية متواصلة كانها لا تود لها انقضاء . . ثم نظر كل منهما في عيني الآخر باحثين عن حبهما القديم ...

قال : ـ كم اود ان امضي يوماً كاملاً بالقرب منك . .

واحس هذه الرغبه المبهمة في الانصراف اليها تهزه هزاً عنيفاً..

كان منذ لحظة يعتقد ان مجرد انصراف هؤلاء الناس وانفردهما احدهما بالآخر يكفي لاطفاء ذلك الاوار الذي ما فتيء يعذبه منذ الصباح . . وها هو منفرد بها وما زالت حرارة قبلاتها فوق جبهته ، وحرارة جسمها تصافح خده عبر ثوبها ... انه ما زال يشعر بنفس الاضطراب . . بنفس الرغبة الشديدة في حب مجهول . . بعيد المنال ...

ويخيل اليه انهما لو انفردا في الغابه بعيدين عن هؤلاء الناس الذين يحيطون بهما اذاً لاستطاع اطفاء الغليل الذي يعتمل في احشائه .

واجابته : ـ يا لك من طفل ! ولكننا نلتقي كل يوم تقريبا

ورجاها ان تسعى لمرافقته الى احدى الضواحي حيث يتغديان كما سبق لهما ان فعلا اربع او خمس مرات .

وادهشتها هذه الرغبة الصعبة التحقيق خاصة وابنتها قد عادت: غير انها ستحاول مع ذلك . ولكن لا يمكن ان تتاح لهما الفرصة الا بعد سفر زوجها الى (رونس) بعد السبت القادم .

وقال : ـ وحتى ذلك التاريخ ، اين يمكن لي ان اراك ؟

ـ غداً مساء لدى آل كوربيل . تعال ايضا الى هنا يوم الخميس الساعة الثالثة اذا كان لديك الوقت كما اظن اننا سنتغدى الجمعة لدى الدوقه .

ـ هذا احسن ونهض :

ـ الى اللقاء

ـ الى اللقاء يا صديقي .

وظل واقفا دون ان يعمد الى الخروج لأنه لم يكن قد توصل الى قول شيء من كل ماجاء من اجله وبقيت افكاره متخمة باشياء كثيرة لم يعبر عنها ، غاصة باشياء مبهمة ابت ان تنطلق من عقالها .

وردد : ـ الى اللقاء . . واخذ يدها :

ـ الى اللقاء يا صديقي

— احبك .

ورشقته باحدى ابتساماتها .. تلك الابتسامات التي تعلن فيها المرأة للرجل في لحظة واحدة كل ما يمكن ان تمنحه اياه .

واضطرب فؤاده ورد للمرة الثالثة : الى اللقاء .

وخرج .



- ٤ -

كان يخيل للناظر ان كل ما في باريس من عربات ومركبات حجت في هذا النهار الى (قصر الصناعة) ·

فما ان آذنت الساعة التاسعة صباحا حتى توافدت من جميع الشوارع والجادات ومن فوق جميع الجسور الى معرض الفنون الجميلة حيث دعا كلُّ من في باريس من فنانين كلَّ من في باريس من خلائق لحضور عرض ثلاثة الاف واربعماية لوحة .

كان خط طويل متراص من الناس يتزاحم بالمناكب حول الباب وكأن ليس به شوق لمشاهدة معرض النحت فانصرف الى قاعات عرض الصور . ففي المماشي والمصاعد علقت لوحات من نوع خاص عملت لتزين مثل هذه الاماكن او لعل اللجنة لم تجرؤ على رفضها فملقتها في هذا المكان .

وفي الغرفة المربعة الفسيحة كان غليان شديد . وكنت تستطيع تمييز الفنانين بسهولة فهم في نشاط مستمر تلعلع اصواتهم وتبدر منهم

اشارات أمرة متسلطة . وكان بعضهم يجر اصدقاءه بـا كامهم ليلفت انظارهم الى لوحات معينة ويشرح لهم نواحي الجمال فيها بلهجة الخبير.

كان المرء يرى من هؤلاء الفنانين كل ضرب : طوال بشعور مسترسلة وقد ارتدوا قبعات لينة رمادية او سوداء باشكال غريبة لا توصف كأنها الشرفات الواسعة بحفاف عريضة مهدلة تخفي سمات وجوههم . ومنهم من كان قصيراً نشيطاً ذا ربطة سوداء كبيرة وقد ادخل جسمة في ثيات غريبة الزي تعرف منها ان لابسها من طبقة الفوضويين

ومنهم من كان ذا سمت وشارة ، من كبار الفنانين المشاهير او من اعضاء الاكاديمي وقد زينت عروات سترهم تلك الورود الحمراء منها الضخم ومنها مالا يرى الا بالمجهر تبعاً لمفهوم الاناقة لدى كل منهم

وفوق جدران الغرفة المربعة علقت اللوحات التي نالت الاستحسان وشرف العرض في هذه القاعة . كانت تلك اللوحات بديعة الصنعة تلفت انظار الداخل باطاراتها الجميلة اللامعة وبالوانها الجديدة الصارخه وقد زادها (الفرنيش) لمعانا تحت النور القوي الهابط عليها من عل .

وتتصدر المكان لوحة تمثل رئيس الجمهورية تقابلها لوحة لجنرال مثقل بالاشرطة الذهبية - متقبع بعمرة ذات ريش نعام طويل ، مرتديا سروالا احمر من صوف . تجاورها صورة تمثل عرائس البحر عارية ، واخرى تمثل مركبا يغرق وقد او شكت الامواج ان تبتلعه وثالثة

تصور شارعا في مدينه شرقية ورابعة ترينا الشاعر دانتي وهـو يهبط الى الجحيم .

وكانت القاعة غاصة بصور الفرسان ، ومشاهد الصيد في الغابات ، والنيران في المراعي ، وثمة لوحة تمثل سيدين من القرن الغابر يتبارزان في زاوية الشارع ... وغيرها . . وغيرها كثير .. وبالاختصار كان في تلك القاعة مازج من كل ما عمله الرسامون في باريس ومن كل ما سيعملونه حتى نهاية الدنيا .

كان اوليفيه واقفا بين زملاء من اشهر الفنانين منهم اعضاء في المجلس الفني .. ومنهم في اللجنة التحكيميه ، وكان الجميع يتبادلون الآراء . ولم يكن برتان مرتاحا للصوره التي تقدم بها الى العرض وبالرغم من التهاني التي انهالت عليه لم يكن واثقا من نجاحه بها .

واندفع نحو الباب عند ما رأى الدوقة دي مورتمان قادمة :

وسألته : ـ الم تصل الكونتس بعد ؟

— لم ارها .

— والسيد دي ميزاديو ؟

— ولا هو ايضا .

— لقد وعدني ان يكون هنا في العاشرة . فوق هذا السلم ليقودني الى القاعات .

— او تسمحين لي بان اقوم مقامه ايتها الدوقة ؟

— كلا . كلا . ان لاصدقائك حاجة بك . وسنراك بمدمدة اذ اننا سنتغدى سوية هذا اليوم .

ووصل ميزاديو راكضاً . وكان قد تأخر قليلاً في قاعة النحت فراح يعتذر لاهث الانفاس .

قال : ـ من هنا ايتها الدوقة من هنا . اننا نبدأ من اليمين .

واختفيا في لجة من الرؤوس . وبدت الكونتس دي غيروا متأبطة ذراع ابنتها تبحث بعينيها عن اوليفيه برتان .

ولمحهما فاسرع اليهما وحياهما .

وقال : ـ يا الهي كم انتما جميلتين ! حقاً ان نانيت قد ازدادت وسامة خلال ثمانية ايام ...

ونظر اليها بعين فاحصة . وتابع :

— ان تقاسيم وجهها اشد لطفاً ، واعمق تعبيراً ، وبشرتها اكثر رواءً ولمعاناً ..

ليست الآن تلك البنية الصغيره بل تلك الباريسيه الحسناء .

ثم انتقل الى حدث اليوم الجلل فقال لهما : لنبدأ من اليمين .. ولنلتحق بالدوقة .

وسألته الكونتس بالغه الاهتمام بهذا العرض كأنها من اصحابه

— ما هو رأيهم ؟

— صالون رائع . وراح يعدد لها اللوحات التي استحوزت على استحسانه .

وقالت له : ـ وانت ؟

— انهم يثنون على لوحتي . غير اني لست راضيا عنها .

— انت لا يرضيك اي شي ..

— كلا . احيانا .. اما اليوم ففي الواقع انى اشعر بانقباض وباني على صواب في تشاؤمي .

— ولِمَ ؟

— لست ادري :

— هيا انظر

وبلغا لوحته . كانت تمثل فلاحتين تستحمان في غدير . وكان امام اللوحة جمع من الناس يتمتع بها . . وسرّت بها . وقالت بصوت خفيض

— انها رائعة . انها جلية . انك لم ترسم اجمل منها قط .

والتصق بها بهيام وقد احس في كل كلمة من كلماتها مهدئا لآلامه وبلسما لجراح نفسه .

واقتنع ان الحق ما قالت فعيناها الذكيتان لا تخطئان . وتناسى انه منذ اثني عشر عاما كان يتهمها بانها لا تفهم من الفن سوى البهرج

والاناقة والنعومة امّا الروح الفنية الحقة فبعيدة عن ادراكها ...

ثم راحوا يطوفون في قاعة المعرض . . متنقلين من قاعة الى قاعة وقتاطويلا وهو يريهما اللوحات ويشرح لهما نبذاً عنها . كان سعيداً بينهما سعيداً بهما .

وسألته الكونتس فجاة :

— كم الساعة الآن؟

— الثانية عشرة والنصف .

— هيا . سريعا الى الغداء . لا ريب في ان الدوقة تنتظرنا لدى ليدوين فقد كلفتني باصطحابك اذا لم نلتق بها في القاعات...

كان المطعم في شبه جزيرة من الاشجار والخمائل شبيها بخلية نحل ناشطة الحركة ، تعلو فيه ضجة اقداح وصحاف ونداءات وتنساب عبر النوافذ والابواب المفتوحة على مصاريعها . وكانت الموائد مزدحمه وقد احاط بها جمع غفير من الآكلين

وكان الكل يشرب ويهرج ويقصف وقد اشعلت فيهم الخمرة روح المرح والاغتباط التي كثيراً ما تحملها شمس باريس الى القلوب...

وقادهم خادم الى الجناح الذي احتجزته الدوقه واقامت فيه تنتظرهم .

وما ان دخلوا حتى لمح برتان المركيز فاراندال بالقرب من

عمته ، منهمكا باسما ، وقد مد يده لتناول مظلتي الكونتس وابنتها ومعطفيهما . وشعر برتان باستياء مفاجيء ورغبة في ان يقول اشياء وقحة وغير مهذبة .

وشرحت الدوقه كيف التقت بابن اخيها بعد ان ذهب ميزاديو بصحبه وزير الفنون الجميلة . وثارت نفس برتان لدى تخيله ان هذا المركيز القمي، سيتزوج آنيت وانه لم يحضر الا من اجلها وهو يعتبر نفسه نصيبها المحتوم وقدرها المكتوب .. ثار ثورة من احس حقوقه الشرعية المقدسة تنهب وتداس .

وجلس المركيز بالقرب من الفتاة على المائدة وراح يهتم فيها اهتمام الرجل الذي يمارس حقاً طبيعياً :

كانت نظراته طفيلية وبدت في عيني الرسام وقحة ومتطاولة وابتساماته الناعمة الراضية وتصرفاته البسيطة التي لا تكلف فيها .. كل ذلك اشعل ناراً بين حنايا برتان .

وكانت الدوقه والكونتس راضيتين عن تصرفات الشاب بل كأنهما مستعدتان للدفاع عنه والذود عن حياض تصرفاته وكانتا تتبادلان بين الفينة والاخرى نظرات استحسان ورضى . . .

وما انتهت الوليمة حتى عاد الجميع الى صالات العرض فوجدوا الازدحام فيها شديداً لدرجة خانقة ولم تمض دقائق خمس حتى كان اوليفيه

والكونتس قد افترقا عن الباقين فارادا الالتحاق بهم الا ان الكونتس قالت :

— السنا سعيدين بانفرادنا . دعهم فنحن متفقون على ان نلتقي الساعة الرابعة في المقصف .

— صحيح ؟

غير ان فكره لم يغادر آنيت . فهو يتصور المركيز يلاحقها بغازلاته السمجه المتأنقة .

وتمتمت الكونتس :

— حسناً . اما زلت تحبني ؟

فاجاب بلهجة لا واعية :

— وكيف لا .

وراح يبحث بين الرؤس عن قبعة السيد دي فاراندال الرمادية .

وشعرت به مشتت الفكر فشاءت حمله اليها . فعادت تقول :

— ليتك تعلم كم اعجبتني لوحتك هذا الموسم . انها خير ما انتجت . انها اطروفتك الكبرى (١)

وابتسم وقد نسي قلقه على مصير اللوحة :

— حقاً ما تقولين ؟

(١) Votre chef-D'oeuvre

— اجل لقد اعجبتني فوق كل ما عرض .

— اما انا فلست مرتاحاً اليها .

وبكلمات رقيقة راحت تهدهد كبرياءه وهي تعلم ان ليس افعل في الفنان من الاطراء والثناء .

واثرت فيه كلماتها تأثيراً طيبا فعاد يثرثر وهو لا يرى الا ها ولا يسمع سوى صوتها في هذا الحشد الكبير المزدحم .

وشاء ان يشكرها فدنا منها وهمس في اذنها :

= اني احس رغبة مجنونة في معانقتك .

وطفت عليها موجة حارة . ورفعت اليه عينها اللامعتين واعادت سؤالها :

= او تحبني دائماً ؟

واجابها بنبرة حارة :

= اجل . انا احبك يا عزيزتي آني . .

= تعال كل مساء . فانا لا استطيع الخروج بوجود ابنتي

وما لمست فيه هذه اليقظة المفاجئة حتى احست عواطفها تتحرك . وهي لم تعد تخشى عليه اغراء الاخريات بعد ان ابيض فوداه الا انها مازالت تخاف خوفاً جنونياً عندما تفكر انه قد يعمد الى الزواج هرباً من وحدته وعيشه الفارغ البارد . وهذا الخوف لم يكن

حديثاً بالنسبة اليهـا . وهو ما زال يقوى ويتضاعف مع مرور الزمن حتى انها لتشفق من ان يقضي سهراته الطويلة بمفرده فيقوى في نفسه احساسه بالوحدة والفراغ . . ولم يكن بميسورها ان تحتجزه دائماً ، فعمدت الى دفعه الى الملاهي للترويح عن نفسه فهي تفضل ان تراه بين النساء في المجتمعات على ان تجده وحده يعاني مرارة الانزواء في مسكنه الخالي .

وعادت تقول : آه . كم اتوق الى الاحتفاظ بك دائماً تعال اليّ كل مساء فانا لا اخرج مطلقاً . .

— اني اعدك . .

وطرق اذنيها صوت قريب من اذنها :

— امي . .

واجفلت واستدارت فاذ بها ازاء آنيت والدوقة والمركيز .

وقالت الدوقة : ـ الساعة الرابعة. وانا تعبة جداً واود الانصراف ايضا . فلم اعد احتمل . . .

وقبل ان يخرجوا سألت الكونتس برتان :

— ستأتي هذا المساء ؟

— اجل .

وعاد برتان الى العمالة حيث التقى باصدقائه الفنانين ليتبادلا

اوجه النظر حول المرض . ولم يشترك معهم بالحديث بل ظهر ضجرا متبرما تواقا الى الانصراف فهذه الموضوعات لم تعد تثير فيه اهتماما فهو يعرف كل ما سيقال . وحتى لوحته لم تعد تثير فيه ذلك القلق .

فالمركيز وآني لا يبرحان خاطره لحظة . وما وجه اهتمامه بهما ؟ اله عليهما حق ما ؟ ولِمَ يحاول عرقلة مشروع زواجهما ؟ .. غير ان شيئا لم يكن ليحول دون انزعاجه وهو يشاهد فارندال يبتسم ويحدث آنيت كما يفعل الخطيب حيال خطيبته وقصد بيت الكونتس مساء ذلك اليوم فوجدها مع ابنتها تتابعان حياكة اغطية الفقراء ، لم يستطع ان يكتم اراءه الخاصة في المركيز .. بل قد وجه اليه انتقاداً حاداً حاول فيه كشف سخافته واناقته المتبرجة امام عيني آنيت .

وكان برنان جالسا في مقعد مريح فصالب ساقيه والقى برأسه الى الوراء بدعة وطمئنينة وراح يتحدث الى المرأتين ...

ولحظ انه يتعمد اختيار كلماته وانتقاء تعابيره شأن من يتكلم في حضرة شخص يهمه جداً ان يظفر باعجابه ..

وهو يأتي كلما عرف ان المرأتين وحيدتان . فيظفر بساعات لم يتذوق اطيب منها طوال حياته .. ساعات من الدعة والاسترسال في عذب الاحاديث ...

وكانت الكونتس تسر غاية السرور لانصراف برنان اليها

كل هذا الانصراف فكانت ترفض اكثر الدعوات لقضاء السهرات في المدينة او لحضور المراقص. كما كانت في بادئ الامر تمهد الى الانفراد به فما ان تدق العاشرة حتى توعز الى ابنتها بالانصراف الى سريرها. غير ان برتان لم يرضه هذاالتصرف فقال للكونتس: امازلتي تعامليتها كأنها طفل صغير شقي. وطلب لها ربع ساعة ثم ساعة... فما ان تغادر الصالون حتى يكتشف ان نصف الفتنة قد اضمحلت وما أن تنصرف الفتاة حتى ينتقل برتان الى مقعده المنخفض المفضل ويجلس تحت اقدام الكونتس ويريح خده على ركبتها بينما تمطيه احدى يديها فيحسان الحمى التي تمور في صدريهما آخذة بالانخفاض..

ولم يغب عن غريزتها الانثوية، مع الايام، ان آنيت تجذبه اليها.. وضاعفت اهتمامها باحتجازه بينهما دائما.. وكانت تقوم امامه بدور الامام لتحمله على الشعور بانه بالنسبة لهذه الفتاة كأب يغدق عليها حنوه وعطفه.. فيزداد تعلقه بها وبينها. وبالرغم من ان انوثتها ظلت طاغية مسيطرة الا ان ثقل العمر لم يخف عليها وراحت مدفوعة برغبة صارمة في ان تحتفظ بكل فتنتها وان تبقى كابنتها رشيقة، راحت تمتنع عن المشروبات والمأكل الدسمه حتى ان نحافتها اضفت عليها هيئة فتاة عذراء ولكن انخفاض خديها كان ينم عما تتكبد في سبيل ذلك من حرمان ... وبدأت بشرتها بالاسترخاء ومال لونها الى

الشحوب الامر الذي كان يظهر ابنتها بالقرب منها شديدة الحيوية بالغة الفتنة .. فعمدت الى الطرق الاصطناعية في تزيين وجهها كما تفعل الممثلات ... فغدا وجهها فاتناً حقا . . وجه امرأة تجيد التبرج بشكل يسبغ عليها فتنة مصنوعة ولكنها جذابة خلابة .

وكانت تتجنب الظهور في وضح النهار الذي يفضح اساليب تبرجها وتفضل الانوار الاصطناعية التي تخفي ما في وجهها من جمال مجلوب بتطريه . .

وكانت في الايام التي تشعر فيها انحطاطا في قواها واقترابا من الكهولة تنزوي في حجرتها مدعية التوعك .. وما ان تحس نشاطا وحيوية حتى تعود الى تمثيل دور الاخت الكبرى مع ابنتها فترتدي اثوابا شبيهة باثواب ابنتها وتتزين كما تفعل الزوجات الشابات ، اما انيت فكانت قد ادركت بغريزتها ما ترمي اليه امها من تشبه بها فكانت تغذي فيها هذا الامل ولا تعدم مناسبة لتظهر لها كم هي جميلة وفتية وان ليس بينهما فارق كبير .

ولشدة ما اعتاد اوليفيه رؤيتهما سوية انتهى به الامر ان اصبح يخلط بينهما .. فكثيراً ما كان يتساءل وهو يصغي الى الفتاة دون ان ينظر اليها : ايهما تحدثه ؟ »

كم كان يستعذب هذه اللعبة فاذا ما كانوا منفردين في الصالون

طراز لويس الخامس عشر كان يغمض عينيه ويرجوهما ان تخاطباه الواحدة تلو الاخرى . ثم تعيدان السؤال ليحاول معرفة مخاطبته . فكانتا تجتهدان في ان تقلد الواحدة منهما الاخرى في نبرة صوتها . ولشدة تمرنهما على ذلك واتقانهما له تداخل الامر حتى على الخدم : فكانوا يجيبون الام : نعم يا آنسة . ويخاطبون الابنة : اجل يا سيدة . . كما اختلط الامر على اوليفيه نفسه فكان اذا رأى احداهما تعبر في اعماق الصالون : يتساءل : ارأى الام ام الابنة ؟ ومن هذا الشبه الطبيعي والمصنوع ، الحقيقي والمتكلف ، خلقت في نفس الرسام وفي قلبه فكرة ازدواج هاتين المخلوقتين الواحدة قديمة والاخرى جديدة ، الاولى معروفة لديه اعمق المعرفة والثانية مجهولة اكبر جهل .

وأخيراً خيل اليه ان الجسمين قد اندمجا وشكلا جسماً واحداً شاباً كما كانت معشوقته يوم عرفها في الايام الخوالي . وهكذا عاش بين الاثنتين ، موزعاً بينهما ، مضطرباً ، قلقاً ، يحمل للأم حبه القديم المستيقظ ، وللابنه حناناً غامضاً مبهماً . . . .

الكتاب الثاني

- ١ -

باريس في ٢٠ تموز (الساعة الحادية عشر مساء)

يا صديقي . لقد توفيت امي في رونسيير . اننا ذاهبون في منتصف الليل. لا تأت لأننا لم ندع احداً . تحسر علي وفكر فيّ .

حبيبتك آني

٢١ تموز . ظهراً .

يا صديقتي المسكينة . لولم اكن قد اعتدت على اعتبار ارادتك امراً للحقت بك رغما عنك . اني افكر بك منذ امس بمرارة قاتلة . فكرت في هذه الرحلة الصامتة التي قمت بها مع زوجك وابنتك في مركبة ضئيلة النور سارت بكم نحو فقيدتكم . ثم تخيلتكم انتم الثلاثة فوق النعش تبكون وآنيت الصغيرة تذوب حسرات . وتخيلت وصولكم الى المحطة والرحلة الهائلة في العربة ثم دخولكم الى القصر يحيط بكم الخدم ثم اتجاهكم نحو الغرفة حيث ترقد الفقيدة . .

ورأيتك بعين خاطري تنحنين موقها وتطبعين على وجهها الناحل الجامد قبلة .. فكرت في قلبك .. قلبك المسكين .. الذي املك نصفه .. فكرت فيه كيف سحقته هذه الفجيعة .. فكان نصيبي فيها كنصيبك اقبل عينيك الملتثين بالدموع .

اوليفيه .

واستمر تبادل مثل هذه الرسائل العابقة بمعاني الحب الحقيقي الذي صهرته هذه الآلام فاحالته حساسا بالغ الحساسية ، يضطرب للألم كما يضطرب للفرح كالطير احس سكين الذابح فوق نحره وكأن هذا الألم المشترك صهر كل ما كان قد علق بنفس اوليفيه من برم وضجر فراح يكشف لعشيقته عن عاطفة صادقه ملتهبة هي نتيجة حب عاش اعواما لم تزده الا قوة وحرارة واندفاعا وتلقى منها رسالة تعلن فيها قرب عودتها .. ولم يشعر ، كما كان يتوقع ، ان الايام قد خففت شيئا من حزنها بعد ان مرت فترة على موت امها .. وكانت قد اعلنت له ان زوجها سيصل باريس قريبا . وما ان استلم هذه الرسالة المعلنة عودتها المتأخرة ، حتى شعر برغبة عنيفة للسير الى المحطة ثم يركب القطار ليقصد رونسيير ، ثم تذكر ان السيد غيروا سيصل في الغد ، فراح يرقب قدومه بصبر فارغ كما لو كانت هي التي ستصل .

لم يشعر حبا لغيروا كما شعر له في فترة الانتظار تلك

ولما رآه داخلا في اليوم الثاني اندفع نحوه ويداه ممدودتان وهتف :

– آه ياصديقي العزيز كم انا سعيد برؤيتك .

وبدا الزوج شديد الغبطة وخاصة لأنه عاد الى باريس ذلك ان الحياة في النورمندي لم تكن بهجة خلال الاسابيع الثلاثة الماضية .

وجاس الرجلان الى مقعد صغير في زاوية المرسم تحت سجف من قماش شرقي وتناولا ايديهما بحركة توددية وراحا يجددان المصافحة وسأله برتان : – والكونتس ؟ كيف هي ؟

– آه . ليست من ما يرام . كانت الصدمة قوية بالنسبة اليها وهي لا تكاد تسترد روعها . وافكاري مشغولة بها .

– ولكن لماذا لم تعد ؟

– لست ادري فقد استحال علي حملها على العودة .

– وما تعمل طوال يومها ؟

– يالمسكينة .. انها تبكي مفكرة بامها . وهذا لايلائمها وكان بودي لو رضيت تغيير الهوآء وعلى الاخص مغادرة المكان الذي يذكرها بساعات امها الاخيرة .

– وآنيت ؟

– زهرة تتفتح وقد اعتورها بعض الذبول .

وأدرك أوليفيه بعض السرور . وتابع يسال .

– او أحزنها ذلك كثيرا ؟

– اجل كثيراً . كثيراً ولكن . . انت تعلم ان حزن الثامنة عشر لا يدوم طويلاً ...

وعاد غيروا يقول بعد فترة صمت :

– اين سنتعشى أيها العزيز ؟ ان بي لرغبة ملحة الى الاستغراق والاصغاء الى الضجة ورؤية الحركة . .

ولكن ليس سوى قهوة (السفراء) في هذا الفصل ...

وانصرفا وقد تعانقت ذراعاهما واتجها نحو الشانزليزه ، وكان غيروا فرحاً فرح الباريسي الذي يعود الى المدينة ، فتبدو له بعد كل غياب كأنها قد استعادت شبابها وامتلأت بالمفاجئات ، وراح يسائل الرسام عن اصغر التفاصيل وكان برنان يجيبه بعدم اكتراث محاولاً دائما حمله على التحدث عن رونسبير كما يفعل المرء عند ما يقابل شخصا غادر شخصاً حبيباً ويود معرفة كل التفاصيل عن حياته اثناء الغياب كان المساء يبدو ثقيلاً فوق المدينه . فالفصل صيف . وجاس الرجلان في شرفة« قهوة السفراء » وراحا يحدقان في المقاعد المصفوفة في الحديقة تحتها او يشاهدان عن بعد الراقصات في مقصوراتهن تحت الانوار الكهربائية وهن يسوين هندامهن البارع وبين الفينة والاخرى كانت

تدخل سيدة يتبعها رجل يبحثان عن مائدة محجوزة . الرجل في ثياب سود والمرأة تسحب خلفها ضبابا من عطر قوي ينتشر من ثوبها ومن جسمها .

وتمتم غيروا شديد الابتهاج : ـ كم افضل ان اكون هنا وليس هناك .

واجاب برنان : امّا انا فافضل ان اكون هناك وليس هنا !

— دعنا من ذلك !

— اقسم لك . ان حر باريس لا يطاق هذا الصيف .

— ولكنها تظل دائما باريس ...

وظهر النائب كانه في احدى المواقف التي يندفع فيها المرء مع عاطفته فيقول اشياء سخيفه مهما كان ذا مقام رفيع . .

وكان بقربهما ثلاث غادات يتمشين برفقة ثلاثة شبان نحفاء جدي المظهر فسأل غيروا عنهم . كما كان يسأل عن كل فتاة تمر بهم او تدخل المقهى .

ثم تمتم بنبرة فيها الكثير من الاسف :

— من حسن حظك انك مازلت عازبا . . مما يتيح لك ان ترى وتفعل اشياء كثيره

اما اوليفيه فراح يشكو لغيروا ضجره ووحدته .وما ان انتهى

من الشكوى مدفوعا بحاجته الى العزاء والى املاء فراغ حياته بامرأة تبادله الحب وتشاركه الحياة ، ما انتهى من ذلك حتى وافقه الكونت على قوله معدداً ماللزواج من ميزات واندفع ببلاغته الخطابية يصف تلك الحياة العائلية التي لم يذق طعمها الا المتزوجين ، واثنى ثناء طيباً على الكونتس فكان اوليفيه يوافق بهزات متتابعة من رأسه

كان سعيداً بان يسمع من يتحدث عنها . وشعر بغيرة لما يصف زوجها من ضروب السعادة تغدقها عليه . وانتهى بان تمتم بلهجة مفتعلة

— اجل . انك لسيد وافر الحظ .

وعاد النائب الى الحديث بعد ان غمره اطراء جليسه بموجة من افتخار :

— كم اود ان تعود . فهي تشغل افكارى حقا . اسمع . تقول انك ضجر في باريس فما عليك الا السفر الى رونسيير والعودة بها . انها تصغي اليك . لأنك صديقها المفضل .

بينما انا ... لست سوى زوجها ... كما تعلم ...

وطار اوليفيه سروراً لاقتراح للكونت :

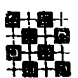
— هذا جل ما ابتغي .. ولكن الا تعتقد ان ذلك قد يسيء اليها ..

— كلا ... مطلقاً .. دعك يا عزيزي ..

اني اوافق اذن. سأسافر غداً بقطار الواحدة . امن الضروري الابراق اليها ؟

— كلاً . دع ذلك لي . سأنبئها بذلك كي ترسل عربة تعود بك من المحطة .

وكانا قد فرغا من الطعام فصعدا سوية الى الشارع وسارا متمهلين ولكن لم تمض نصف ساعة حتى غادر الكونت اوليفيه زاعماً ان لديه مشاغل هامة عاجلة كانت قد غابت عن ذاكرته .



- ٢ -

جلست الكونتس وابنتها الى المائدة وقد ارتدتا ثياباً من حرير اسود ، كانت القاعة فسيحة وقد زينت الجدران بصورتي جدي العائلة احدهما يرتدي درعـا والآخر ثوبا ملتصقا بجسده ، فالاول ضابط في الحرس والثاني كولونيل في عهد حكومـة الشعب وكانت الصورتان في اطارين قديمين مذهبين الا ان تذهيبهاقد ادركه التلف وكان خادمان يقومان بقضاء حاجات المرأتين يسيران بخطى مخنوقة ، والذباب يطوف حول الثريا المعلقة فوق المـائدة فيشكل نقطـا سودا كانها غيمة متحركة ذات ازيز .

وقالت الكونتس : افتحوا النوافذ . اني احس رطوبة .

وفتحت النافذتان المريضتان العاليتان . ودخلت هبة من هواء فاتر يحمل انفاسا حارة عابقة بارج العشب الحار تموج فيها ضجة بعيدة آتية من الريف، فامتزجت بهواء الغرفة الرطب المحبوس بين جدران القصر السميكة .

وقالت آنيت وهي تتنفس على رئتيها :

— ما احسن هذا ....

فاجابتها الكونتس وقد سرحت ناظريها في الجو الازرق الفسيح :

— سنقوم بنزهة طويلة بعد الغداء . نستطيع ان نبلغ برفيل سيراً على الاقدام بان نسير على شاطئ النهر لأن الحرارة تكون اخف منها في السهل .

— اجل يا اماه وسنصحب جوليو معنا ليطارد الحجال .

— انت تعرفين ان اباك يمنع ذلك .

— وبما ان ابي في باريس .. فانه لمن اشد دواعي السرور رؤية جوليو في مطاردته تلك هوذا يهارش الابقار . يا الهي ما اغربه !

ودفعت كرسيها الى الوراء وانطلقت الى احدى النوافذ وصاحت :

تشجع يا جوليو تشجع

كانت ثلاث بقرات ضخام تستريح فوق المرعى وقد شبعت من العشب الندي وحط بها الحر فاستلقت على جوانبها تستريح . وبالقرب منها كلب صيد رشيق ابيض واصهب بقوائب نابحاً نباحاً جنونيا فيه مرح كثير وهو يحاول انهاض الحيوانات الثقيلة وهي لا تريد .

ومكثت آنيت فترة طويلة تراقب الكلب مغتبطة بحركاته

الرشيقة وتوثبه النشيط وهي تهتف به مشجعة الاونه بعد الأخرى .

وفجأة رفعت يدها وظللت عينيها ونظرت بعيداً :

– هو ذا الموزع .. انه يحمل برقية ..

وفي الممر الضيق بين حقول القمح والشوفان بدا قميص ازرق كانه يطفو فوق السنابل سائراً بخطى متزنة .

وهتفت الكونتس : – يا الهي ... لا تجعله خبراً سيئاً ...

وارتجفت كأن جزعها لسماعها خبر موت امها بواسطة البرق مازال فاعلاً في نفسها فهي لا تستطيع فض خاتم الورقة الزرقاء التي قدمها اليها الموزع دون ان تشعر انأملها ترتجف وتضطرب وروحها تتحفز وتتوثب وقد حسبت ان من بين طيات هذه الورقة سيبرز لها حزن غير منتظر .. يستدعي منها بكاءً مريراً ...

اما آنيت فكانت ، بفضل شبابها وتوثبها نحو الحياة ، اقل جزعاً من امها ، فهي لا تنتظر ، تبعاً لنفسيتها الشابة ، الا املاً وسروراً من برقية يحملها موزع البريد .

وانقطعت الكونتس عن تناول طعامها واقامت تنتظر هذا الرجل الذي يحمل كلمات قلائل قد تكون خنجراً جديداً يصمي قلبها . واعتصر القلق فؤادها . فما هو هذا الخبر العاجل المحمول على اجنحة

البرق ؟ وممن ؟ وعبرت خاطرها فكرة عن اوليفيه . اهو مريض ؟ ام تراه قضى ؟

وكأن الدقائق العشر التي مكثتها منتظرة لا تنتهي . واخيراً فضت البرقية وطارت انظارها اولا الى التوقيع فعرفت فيه اسم زوجها وقرأت :

« اعلن لك ان صديقنا برتان سيصل رونسيير بقطار الواحدة ارسلي عربة الى المحطة . لك حبي »

— حسنا يا امي ؟

— انه السيد اوليفيه برتان آت لزيارتنا .

— يا للحظ السعيد ! ومتى يصل ؟

— بعد فترة قصيرة .

— الساعة الرابعة ؟

— اجل

— حقا انه لطيف جداً ...

غير ان الكونتس شحبت ، فان قلقا مبهما نبت في نفسها منذ مدة وراح ينمو نمواً مضطرداً وقد ادركت ان حضور الرسام المفاجيء يخبيء لها خطراً شديداً لم تكن قد فطنت اليه قبلاً .

وقالت لابنتها : ستذهبين لملاقاته مع العربة .

— وانت ؟ الا تأتين معي يا اماه ؟

— كلاً . سأنتظركما هنا

— ولِمَ ؟ فقد يسؤه تصرفك هذا .

— لست على ما يرام

— كنت تبغين السير الى برفيل منذ لحظات ...

— صحيح غير ان الطعام قد ازعجني .

— حتى تلك الساعة تكون حالك قد تحسنت .

— كلا . سآوي الى غرفتي . اخطرني لدى وصولكما .

— اجل . يا اماه .

وبعد ان اصدرت امرها باعداد العربة لتكون جاهزه في الساعة المعينة كما أمرت باعداد شقة للضين ، ثم صعدت الى غرفتها واعتكفت فيها .

لقد مرت حياتها حتى هذه الساعة تقريبا دون هم حقيقي ما خلا حبها لاوليفيه وما تكبدت في سبيل الاحتفاظ به من عناء . وقد قيض لها النصر في كفاحها ذاك . وقد افعم قلبها بهذا الانتصار وبالثناء المستمر ، فكانت كسيدة ارستقراطية ، قد ظفرت بزوج غني، وكان لابد لها من حب لتتم سعادتها به ، فكان اوليفيه الحبيب المنشود، مطيعه بذلك ميولها اكثر من طاعتها لنواهي الدين ، ذلك لتجارى الركب الاجتماعي المتحلل من مثل هذه المعتقدات ... وقد اتاحت

لها الاقدار الانزلاق في علاقتها الآثمة مع اوليفيه ولم تستطع بعد ذلك نكوصا ، بل على العكس ، راحت تتشبث به تشبثا مصرا غير انها شيئا فشيئا ، ويوما بعد يوم ، احست بقلق مبهم يداخل مشاعرها، قلق كأنه ثقب لا يفتأ يتسع ، وجرح لا يعرف الاندمال . وادركت ان تقدم السن لا يمكن ان يقف شيء بوجهه، وبغريزة الانثى المستسلمة اطبقت عينيها وتركت نفسها تنزلق مع العمر على منحدر الحياة . . .

وحافظت على ابتساماتها ، التي شابها شيء مصطنع في الايام الاخيرة ، فكانت عندما تظهر في المجتمعات وبالقرب منها ابنتها ذات الثمانية عشر ربيعاً لا تحس بالحسد او الالم ، بل على العكس ، تشعر بالاعتزاز والفخر ، فابنتها المتفتحة على الحياة ولمّا تنضج بعد ، تضفي عليها هي معاني النضوج ودنو القطاف . . . ولم تكن ابنتها في رواء الصبا الريّق الخلاب الا صورة لما كانت عليه امها قبل ان تبلغ من نضوج الجسم والعقل ما بلغت . . .

وقد اعتقدت ان سعادتها قد اكتملت بهذه الشابة الصارخة الجمال يوم حلّت بها فجيعتها بابيها . . . وفي الايام الاولى التي تلت الوفاة احست آني بيأس لم يترك في قلبها مكاناً لشيء آخر . . .

وذات يوم ، دخلت وصيفتها عليها صباحاً وازاحت السجف ، وسألتها : كيف سيدتي اليوم ؟ اجابت بلهجة محطمة : لست على ما يرام»

واجابتها الوصيفة وهي تقدم لها الشاي : ـ حقاً ان مظهر سيدتي محزن جداً . ان سيدتي تفعل حسناً اذا اعتنت بنفسها وزينت وجهها »

وهبطت قولة الوصيفة على قلب الكونتس هبوط الخنجر . وما ان انصرفت حتى نهضت آني الى مرآة الخزانة وراحت تتأمل وجهها فيها .

وادركتها الدهشه لما رأته من معالم النحول في وجنتيها المنخفضتين فاشد ما اثرت فيها هذه الايام الاليمة ايام الحزن الشديد والبكاء المتواصل . حتى لقد بدا وجهها الذي طالما تأملته في كثير من المرائي والتي تعرف كل تعابيره وابتساماته وفتنته ، بدا لها الآن كوجه امرأة اخرى ...

واقامت مدة تستعرض جمالها بدقه متلمسة بشرة خديها ناظرة الى اسنانها التي أخذ لونها بالاكمداد قليلاً ، وفتح الباب فجأة فادركتها ارتعاشة واستدارت لتجد وصيفتها تقول لها : ـ لقد فات سيدتي ان تأخذ الشاي .

ولحظت الخادم اضطراب سيدتها وخجلها فتابعت :

— لقد بكت سيدتي طويلاً . لا شيء كالبكاء يذيب الجسم وينهك الصحة . انه يحيل الدماء ماء .

واضافت الكونتس بحزن :

— ولا تنسي العمر ايضا .

فهتفت الوصيفة : كلاّ . كلاّ يا سيدتي . ليس هذا هو السبب ! فبقليل من الراحة تستعيدين صحتك وشبابك الذابل . وعلى سيدتي ان تتنزه وان تحاذر البكاء .

وما فرغت الكونتس من ارتداء ثيابها حتى هبطت الى الحديقة وقصدت الخمائل التي كانت تحب الاعتناء بها فتجتني منها الاوراد ، ثم تابعت سيرها بموازاة النهر حتى آن موعد العشاء عندما تلقت الكونتس برقية زوجها معلنة قدوم اوليفيه احست رغبة في الهرب فهي لم تكن تتمنى هذه الزيارة من عشيقها وهي على مثل هذه الحالة بل لو خيرت لفضلت ان يتأخر قدومه اسبوعين آخرين . فبمقدورها ، خلال اسبوع ، وبمزيد من العناية بنفسها، ان تغير من هيئتها الكئيبة تلك ومما زاد من سوء حالها انها ستبدو بالقرب من ابنتها في وضح النهار ، وتحت شمس آب الساطعة كعجوز شمطاء ولذا قررت فجأة عدم الذهاب لاستقباله في المحطة بل في الصالون الظليل ... كان بها الى البكاء رغبة ملحاح ...

ولكنها تمكنت من مقاومتها فما ان تشعر اهدابها مبللة حتى تسارع الى مسحها بسرعة ثم تنهض وتتمشى ، ثم تنظر الى الحديقة او ترنو الى اسراب الغربان التي ترسم في السماء الزرقاء الفسيحة خطوطا

منحنية طويلة فوق رؤوس الاشجار الباسقات .

ثم عادت تخطر امام مرآتها ، فتمسح دمعة او تصلح شيئاً في وجهها بقليل من المسحوق ، ثم تنظر الى الساعة مخمنة اي مرحلة من الطريق بكونان قد قطعا . . وسمعت فجأة فرقعة سوط في البعد ، فخفت الى النافذة ورأت العربة تدور حول الحديقه وقد انطلق جواداها بسرعة كبيره .

كان اوليفيه جالسا في اعماق العربة الى قرب آنيت وقد شرع يلوح لها بمنديل ساعة رآها فردت تحية ملوحة بيديها الاثنتين ونزلت لملاقاته وقد اخذ قلبها يخفق بشدة الأ انها كانت سعيدة ... بل بالغة السعادة اذ شعرت به قريباً منها تستطيع الانصراف اليه ومحادثته .

والتقيا في الغرفة الملحقة بالصالون . وتلقاها بذراعين مفتوحتين بحركة لا تقاوم ، وبصوت حار فيه شوق حقيقي :

– آه ايتها الكونتس المسكينة : اتسمحين لي بان اعانقك ؟

واطبقت عينيها ، وانحنت ، والتصقت به مقدمة له خديها وهمست له وهو يطبع قبلاته فوقهما : – احبك .

ودون ان يترك اوليفيه يديها رفع عينيه اليها وقال :

– كم هو كئيب وجهك ؟

واحست انها تكاد تنهار .. وتابع : ـ صحيح انك شاحبة قليلا .. ولكن لا عليك فهذا شيء عابر ...

وشاءت ان تشكره فقالت : ـ آه يا صديقي العزيز ...

وسكتت لا تجد ما تقول .

وكان قد استدار باحثاً خلفه عن آنيت التي كانت قد اختفت :

ـ اليس غريباً ان ارى ابنتك في ثياب الحداد ...

وسألته الكونتس : ـ لِمَ ؟

وصرخ بحرارة غير عادية :

ـ لِمَ ؟ ولكنها هي اللوحة التي رسمتها لك. انها لوحتي ! انها أنت. التي كنت التقي بها لدى الدوقه ! الا تذكرين ذلك الباب الذي مررت به امام ناظري كما تمر السفينة امام مدفع البرج ! ادركتني آنذاك رغبة في البكاء . ان احداً لم يعرفك كما عرفتك ، ولو فعلوا لاصابهم مس. فانا قد تأملتك ، واحببتك ، ورسمتك ، كما لم يفعل احد من قبل ! آه ... مثلاً .. لقد ظننت انك شئتي مفاجأتي فارسلتي آنيت الى المحطة !! اجل ! اجل ! لقد فوجئت حتى كدت أجن ! ..

ونادى : آنيت ... نانى ...

وجاءه صوت الفتاة من الخارج اذ كانت تقدم قطع السكر للجياد ..

ـــ ها انذا . ها انذا !

ــ تعالى . اذن . الى هنا ..

وجاءت تعدو :

ــ قفي بالقرب من امك .

ووقفت وراح يقارنهما وردد بشكل آلي : مدهش .. مدهش .

ولم يكن الشبه بينهما كاملاً كما كان في باريس . فان هـذا الهندام الاسود قد اعطى للفتاة لماناً اخاذاً بينما كانت جذوة الام قـد خبت منذ امد غير قصير . . . جذوة الشعر والبشرة التي كانت تلهب احاسيس الرسام في الايام الخوالي .

ودلف مع الكونتس لى الصالون . وبدا شديد السرور بالـغ الغبطة . وقال :

ـــ انها فكرة موفقة . فكرة حضورى .. ثم تابع :

ــ كلا .. انه زوجك الذي اوحاهـا الي . كلفني باستصحابك الى باريس . وانا ، اتعلمين ما اقترح ـ كلا طبعـا ؟ . اني اقترح ، عكس ذلك ، ان تقيمي هنا فترة اخرى . ان باريس هائله بحرها ، والريف رائع بجماله . ما اجمل الجو يا الله ! وكان المساء قد جلبب الكون واغدق على الحديقة طراوته ، وداعب اوراق الاشجار واطلق من الارض رائحة لذيذه منعشة وبخاراً شفافا القى على الافق نقابا خفيفا في صفـاء

البلور . وكانت البقرات الثلاث في الخارج ما تزال ترعى العشب بهم واربعة طواويس تخفق باجنحتها وهي تثب الى جـذع شجرة صنوبر اعتادت ان تنام فوقها تحت نوافذ القصر ... وفي البعد كانت تعلو اصوات كلاب تنبح في اعماق الريف ، ونداءات اصوات بشرية تعكر صفو المساء وكان الرسام قد عرّى رأسه وراح يستنشق الهواء ملء رئتيه والى قربه الكونتس تنظر اليه . قال : ـ هذه هي السعادة .

ودنت منه وقالت : ـ ولكنها لا تدوم ابداً ...

ـــ لنغتنمها ساعة تسنح

فابتسمت وقالت : ـــ لم اعرف فيك حبك للريف قبل الآن .

ـــ اني احبه الآن لأنك فيه . لست اقوى على العيش في مكان لست فيه . فعندما يكون العاشقان شابين ، يستطيعان ان يتحابا مفترقين ، بالرسائل ، بتبادل العواطف .. ولعل مرد ذلك انهما يشعران بدفق الشباب في عروقهما وبنزوات الحياة تصطخب بين اضلاعهما .. او ربما كان لهما صبر اكبر على تحمل البعد ... واما في مثل سني فالحب اضحى عادة ... عادة لرجل مقعد .. بلسماً للروح التي لا تصفق الا بجناح واحد وبالتالي لا تقوى على التحليق بعيداً مع الاماني المذاب... لم يعد للقلب ذلك الوجد اللاهب .. وانما انانية بغيضة ..

هذا ومن ناحية اخرى فاني ادرك ان لم يعد لدى الوقت

الكافي لتبديده ...

وقالت وهي تأخذ يده : آه ... ايها الكهل ! ..

واعاد : ـ اجل ! اجل ! اني كهل . وكل شيء في يصرخ بذلك شعري . طباعي المتحولة . الكآبة التي تدهمني .. يا الهي . هذا شيء لم افطن اليه قبل الآن : الكآبة . فلو قيل لي وانا في الثلاثين انه سيأتي وقت احس الكآبة دون سبب واضح معقول . لما صدقت ذلك ... وهذا يدل على ان قلبي ... قد اخذ يكتهل ...

واجابته بثقة عميقة : ـ اما قلبي فما يزال في شرخ شبابه . لم يتغير . بلى . . لقد جدد شبابه .. فقد بلغ العشرين .. غير انه لم يتجاوز السادسة عشر ...

واستمرا في مثل هذا الحديث فترة طويلة امام النافذة المفتوحة وقد امتزجت انفاسهما بانفاس الماء .. وكانا دانيين كما لم يكونا قبل ذلك قط ... وثار فيهما الحب . . في ساعة الشفق تلك .. كما تثور العواطف لدى ولادة النهار ...

ودخل خادم واعلن : ـ المائده ممدة يا سيدتي الكونتس .

فسألته : ـ أأحظرت ابنتي ؟

ـ الآنسة في غرفة المائده .

وجلس الثلاثة الى المائدة . كانت النوافذ مغلقة . وثريتان

بسمت شمعات كل واحدة كانتا تذريان نورهما فوق آنيت التي بدا وجهها الجميل في اطار مذهب من نور المصابيح الممتزج بلمعان شعرها الاصهب . . وكان برتان لايفتأ يتأملها باسماً . . . وقال : ــ ما اجملها في السواد يا الله . . .

واستدار الى الكونتس وهو لا ينفك يتأمل الفتاة كما لو كان يشكرها لما اتاحت له من متعة النظر الى ابنتها . .

وكان القمر قد ارتفع فوق اشجار الحديقة عندما عادوا الى الردهة . وكانت كتلة الاشجار المعتمة تبدو كجزيرة في قلب الريف الشبيه بالبحر المغطى بنقاب من ضباب بعيد يطفو فوق السهول . . .

قالت آنيت : ــ هيا نقم بنزهة يا اماه . . . .

ووافقت الكونتس . .

ــ سآخذ جوليو .

ــ لا بأس .

وخرجوا . وسارت الفتاة في المقدمة تلهو مع الكلب . وعندما دنوا من الخميلة سمعوا البقرات تنفخ كأنها احست دنو عدو فاستفاقت مذعورة . وكان القمر تحت الاشجار البعيدة ، يذرذر اشعة ناعمة تسيل حتى الارض فتبل الاوراق وتبرقع الارض بنقط منيرة لامعة . وكانت

آنيت وجوليو يعدوان كأن قلباهما تشابها بالفراغ والنشوة بهذا الليل الهادئ الساجي ...

كانت الفتاة تمر، في البقع المنيرة بين الاشجار، كأنها طيف في رؤيا جميلة، وكان الرسام يستوعب ذلك المشهد دهشاً بقوامها القائم ووجهها الصبيح . وتناول يد الكونتس عندما ابتعدت الفتاة وراح يضغطها .. واذا ما عبرا بقعة كثيفة الظلام تلمس شفتيها فكأن رؤية آنيت تثير فيه الشوق القديم الكامن ...

وبلغا اطراف المرج ... وظهرت لهم اشجار الحقول بعيدة قائمة لا تكاد تميز . وكان الافق منيراً عبر ستائر الضباب الشفاف وفي اعالي السماء سبحت غيوم رقيقة طويلة كأنها خيوط الفضة ... وكان هدوء الليل يعم الكائنات ويسمع في صمته العميق الغور مئات الاصوات التي تنم عن الحياة المستكينه في اظلام ذاك الليل ... اصوات اشبه في دعتها وهدوئها بالصمت العميق البعيد الغور ...

وقالت الكونتس وكانت هي والرسام منفردين :

— لماذا تنقضي مثل هذ اللحظات سريعة هكذا ؟ الا يمكن المرء ان يوقف عجلة الزمن ولو لوقت وجيز . فليس لدينا الوقت لنذوق اطايب هذه اللحظات العابرة على الاقل .. لقد انتهى كل شيء

ولثم اوليفيه يدها وقال : آه .. لا احب الخوض في الفلسفة

هذا المساء . . لنا الساعة التي نحن فيها .   وتمتمت :

— انت لا تحبني كما احبك .

— آ ه . . مثلاً . . .

وقاطعته : كلاّ . فانت تحب فيّ كما كنت تردد قبل العشاء امرأة تشبع رغاب قلبك امرأة لم تسبب الك اي ارهاق ، امرأة القت في حياتك بعض السعادة . . وانا ادرك هذا تمام الادراك . اني لمرتاحة الضمير . واني لسعيدة لأني لم اقصر يوماً في واجبي تجاهك لقد احببت وما زلت تحب فيّ كل ماتجده جذاباً ، اهتمامي بك ، اعجابي باعمالك ، وصرف همي لارضائك ، اشتياقي اليك واستسلامي الكامل بين ذراعيك . . ولكن ليس شخصي الذي تحب اتفهم ! آه . اني لاحس ذلك كما يحس المرء تياراً من الهواء البارد يلفحه . انت تحب فيَّ الف شيء : جمالي الآخذ بالذواه ، اخلاصي لك ، مرحي ، رأي المجتمع بي ، رأيي بك الذي احتفظت به ضنينة في سويداء قلبي . . ولكن ليس انا ! ليس شخصي فحسب ، الذي احببته وتحبه ! اتفهم ؟!

وضحك ضحكة قصيرة ودية :

— كلاّ ! انا لا افهم جيداً ما تعنين ! فانت توجهين لي طائفة من لوم غير منتظرة .

— آه يا الهي ! لقد شئت ان افهمك كيف احبك . اني احث

دون ان اهتدي الى شيء . عند ما افكر فيك ، وكثيراً ما افعل ؛
احس في اعماق دمى ، وفي صميم روحي ، رغبة لاتقاوم في امتلاكك
وميلاً لا يكبح لاعطائك من نفسي اكثر مما اعطيتك وددت لو
ضحيت بنفسي في سبيلك ، لأنه ، في الحب ، ليس اعذب من ان يهب
المرء كل شيء ، الروح ، والجسد ، والفكر وكل ما يملك ، وان
يكون دائما على اهبة المخاطرة ليهب اكثر مما وهب . اني احبك حتى
لأحب الالم في سبيلك . . احبك حتي لأحب قلقي ، واضطراب
فكري ، وغيرتي ، والشقاء الذي يدهمني اذا ما رايتك فاتراً نحوى ...
احب فيك الشخص الذي اكتشفته بنفسي ، احب شخصك الخاص
بى ، شخصك الذى لا يتبدل ، شخصك الذي لا يهرم ، شخصك الذي
لا اقوى على الانصراف عن حبه ، اذ اني عند ما انظر اليه ، لا ترى
عيناى اللاه . . انه لمن الصعب ان يقول المرء مثل هذه الاشياء . .
فليس ثمة كلمات تقوى على التعبير عن مثل هذا الشعور ...

وكان اوليفيه يردد بصوت خفيض مرات متتالية : - ياعزيزتي
ياعزيزتى ... آني ...

وعاد جوليو لاهثاً بعد ان عجز عن ادراك حجل وثب امامه..
وكانت آنيت في اعقابه لاهثة لشدة ما ركضت .

— لم اعد اقوى على العدو . لقد تعبت . وانت ياسيدي الرسام

وتأبطت ذراع اوليفيه الطايقة . وعادوا ادراجهم . كانوا يسيرون وهو بينهما .. تحت الاشجار الباسقة القاتمة ... ولاذوا جميعاً بالصمت . كان يسير وقد سيطرتا عليه بسحر انوثتهما الطاغية المنتقلة الى جسمه بملامسته لجسميهما . ولم يرفع انظاره اليهما فقد اكتفى بان يجدهما ملتصقتين به .. كانتا تقودانه ، وتسيران به وهو سائر امامهما ، مأخوذ بهما ، بالتي الى يمينه كما بالتي الى يساره دون ان يدرك ايتهما الى يمينه وايتهما الى يساره ، ايتهما كانت الام وايتهما الابنة ، واستسلم متطوعاً الى هذا الاحساس المتداخل المختلط . بل لقد سعى ليمزجهما في قلبه ، كيما يعجز عن تمييز احداهما عن الاخرى في فكره او ليست امرأة واحدة هذه الام وهذه الابنة المتشابهتان ؟ وهذه الفتاة ؟ الا يبدو انها وجدت فوق الارض خصيصاً لتحيي موات حبه لامها ؟

وعندما فتح عينيه لدى دخوله القصر خيل اليه انه عبر خلال احلى سويعات عمرة اطلاقاً .. انه تعرض لأغرب الاحاسيس واشدها استعصاءً على الادراك .. وانه نعم بادق واعذب ما نعم به رجل دب فوق سطح الكرة ... كل ذلك نتيجة انطلاقه مع شذى الاغراء العابق من تينك المرأتين ...

قال عند ما وجـد نفسه بينهما تحت نور الصباح : ـ يا المساء الرائـع !

وهتفت آنيت : ـ لا اشعر برغبـة في النوم . فمن عادتي ان اقضي الليل متنزهة عندما يكون الجو جميلا .

ورنت الكونتس الى الساعة : ـ انها الحادية عشر والنصف يجب ان تأوي الى فراشك يا ولدي .

وافترقوا ومضى كل نحو غرفته . وكان اول من استسلم للرقاد الفتاة التي لم تكن تحس ميلاً اليه .

وفي الغد حضرت الوصيفة كالعادة تحمل الشاي لسيدتها فوجدتها ما تزال بين اليقظة والنوم . قالت لها :

— ان طلعة سيدتي قد تحسنت . — انعتقدين ؟

— آه . نعم . ان وجه سيدتي اشد صفاءً .

ودون ان تنظر الى مرآتها وثقت مما قالته الخادم . كان قلبها نشطاً وهو لم يعد يجب عالياً . لقد عادت اليها الحياة . ولم تكن دماؤها تجري سريعة حارة في عروقها كما كانت ذلك المساء انما كانت تشيع في جسمها راحة فاترة واثقة سعيدة .

وعندما انصرفت الخادم نهضت الى مرآتهـا ورأت ان ليلة واحدة قد اعادتها سنوات الى الوراء . وابتسمت مفكرة : « خلال

بضعة ايام ساصبح على ما يرام . لقد سرت بخطى واسعة .

غير انها اقامت امام طاولة الزينة فترة طويلة حيث استوت ، فوق غطاء من الموسلين مطرز بالدانتلا ، في صفوف مستقيمة ، امام مرآة جميلة من بللور انيق ، طائفة على تلك الادوات الصغيرة اللطيفة ذوات المقابض العاجية وهي تحمل الاحرف الاولى من اسمها متوجة بشعار العائلة .

وعند ما فرغت من زينتها هبطت اخيراً وهي على مثل اليقين ان نظرته الاولى اليها ستكون مرضية . وسألت أحد الخدم :

ــ اين السيد برتان •

ــ ان السيد برتان في الحديقة يلاعب الانسة التنس .

وسمعتهما من بعيد يعدان الاصابات .

ورأت آنيت تلعب وقد رفعت ثوبها الاسود حتى كشف عن جزء من ساقيها وكانت تندفع لتتلقى الكرة وهي طائرة ،فتنحرف ذات اليمين وذات اليسار وتعدو هنا وهناك وعيناها لامعتان وخداها محمران ، تعبة لاهثة ، فقد ارهقها ملاعبها باسلوبه المتقن .

امّا اوليفيه فكان مرتديا سروالاً قصيراً من الفلانلا وقميصاً ابيض وقد غطى رأسه بقبعة عريضة الحافة ناصعة اللون ، وكان ينتظر الكرة ببرود مقدراً بدقة موقعها فيتلافاها ويقذفها دون ان ية كلف

عناءً في سبيل ذلك فهو يجيد هذه اللعبة اجادة محترف كشأنه في كل هواياته .

ولمحت آنيت امها . فهتفت : ـ صباح الخير يا امـاه . لحظة واحدة وننتهي .

لقد اضاعت هـذه اللحظة من عدم الانتباه الشوط عليهـا . فقد مرقت الكرة بالقرب منها ، سريعة منخفضة فمست الارض وخرجت من الدائرة . فصرخ برتان : (لقد ربحت) وفوجئت الفتاة واحتجت بانه استغل عدم انتباهها . بينما انطلق جوليو يعـدو وراء الكرة التي سقطت بعيـداً كما يعدو وراء حجل سقط في الادغال . وادركها فالتقطها بفمه بلطف وعاد مبصبصاً بذيله .

وهنا حيى الرسام الكونتس ، ولكنه لشدة انشغاله باللعب واهتمامه بكسب الشوط لم يعر وجهها المبالغ في زينته كبير اهتمام

ثم سأل : ـ اتسمحين ايتها الكونتس ، اني اخاف ان يأخذني برد فاصاب برشح .

ـ اجل . اجل .

واقتعدت كومة من الشوفان المحصود لتتيح للاعبين ان يكملا شوطهما .

كانت تعاسة خفيفة تعتصر قلبها وهي تنظر اليهما .

كانت ابنتها شديدة الاهتمام باللعب نشيطة تطلق صرخات لدى خسارتها او انتصارها فكانت تطارد الكرة ملوحة بمضربها وهي اشد ما تكون نشاطاً وجمالاً وبهاء .

كان برتان يخاطب الكونتس صارخا من بعد : انها جميلة هكذا طرية كقلب الصباح .

نعم لقد كانت جميلة انها تستطيع العدو فتحمر وجنتاها وتغلي دماؤها وتنطلق خصلات شعرها مع النسيم انها تستطيع ان تعمل كل ما تريد لان كل شيء يضفي عليها جمالا ورونقا .

وعاد الى اللعب بحماسة وكانت الكونتس لا تفتأ تنظر اليهما حزينة مفكره ان اوليفيه لا شك يفضل لعبة الكرة تلك بما فيه من سرور صبياني واندفاع ونشاط على الجلوس اليها والانصراف الى سماعها.

عند ما قرع الجرس معلنا ساعة الافطار شعرت كأن رنينه قد انقذها من افكارها ، كأنه ازاح عن صدرها حملا ثقيلا وقالت له لدى عودتهم الى القصر وهي تستند الى ذراعه : ـ عساك مسروراً فأجاب وفي صوته رنة شباب مستعاد :

لقد تسليت كما لو كنت طفلاً انه لمن اشد دواعي الغبطة ان يجد المرء نفسه ، او يظن ، انه استعاد شبابه . اجل اجل عند ما تموت الرغبة لدى المرء بالركض والوثب فمعنى ذلك انه انتهى .

وعند ما فرغوا من تناول فطورهم عرضت عليهما الكونتس ان ترافقاها الى المقبرة التي لم تكن قد قصدتها منذ قدوم اوليفيه فتوجه ثلاثتهم عبر الغابة حتى بلغوها فركعت المرأتان فوق القبر وراحتا تصليان بحرارة وقد الصقت الكونتس منديلها بعينيها خشية ان تذرفا الدموع فتشوه الاصباغ التي طلت بها وجهها ، كانت تصلي والألم يمزق فؤادها فتتصاعد صلاتها الى السماء التي بدت مغلقة امام رجائها . انها تعبد الله هذا الاله الذي القى الى الارض كل هذه المخلوقات المسكينة لسبب واحد هو بذل العطف لهم كلما ذكروه . ولم تسعفها الكلمات لتطلب منه كل ما تريد فهي تشعر شعوراً مبهما انها بحاجة الى مساعدته والاستعانة به لانها تنتظر احداثا واخطاراً ستعود عليها بالم ممزق .

واما انيت فكانت مغمضة العينين منساقة مع احلامها بعد انتهائها من ترداد بعض المصطلحات الدينية اذ انها لم تشأ ان تنهض قبل امها .

وكان برتان ينظر اليهما وخيل اليه ان امامه لوحة خلابة اسف كثيراً لانه لم يخرجها بالالوان . واثناء العودة راحوا يتكلمون عن الحياة البشرية مرددين افكاراً مرة شاعرية وفلسفية منه ذلك النوع الذي يساعد على نسج حديث بين رجال ونساء صهرتهم الالام فامتزجت

مشاعرهم وتوحدت في حيز الحزن ولم تكن انيت قد بلغت من النضوج درجة تسمح لها بالخوض في مثل هـذه الاحاديث فكانت لدى كل خطوة تبتعد عنهما لتجني من جانب الطريق ازهاراً برية .

وادركت اوليفيه رغبة بالاحتفاظ بها قريبة منه فقد آلمه ان يجدها تتركهما في كل لحظة وقد احزنه عدم اكتراثها بحديثه كاكتراثها بالوان الازهار انها ما تزال صغيرة ليس لها مايحدوها الى الانصات لمثل حديث الموت والحياة غير ان رغبته بالاحتفاظ بها دانية كانت اقوي من ان تقاوم . فراح يتحدث لاجتذابها احاديث اشد مرحا موجها اليها الاسئلة محاولاً ايقاظ حب الاستطلاع النسوي في نفسها غير ان ذلك لم يجده نفعاً واغتنم فرصة اقترابها منه فقبض على ذراعها وضغطها كي لا تستطيع فكاكاً فاضطربت في يده ضاحكة باذلة كل جهدها في الانفلات وبغريزة المستضعف امام عناد المرأة شاء ان يستثير انتباهها فقال .

— الا قولي اي نوع من الازهار تفضلين كيما انظم لك منها عقداً .فترددت مأخوذة :

— عقداً و كيف ذلك ؟ .

— . من حجارة كريمة بلون الزهر المفضل من عقيق اذا كنت تفضلين الشقيق او من لازورد اذا كنت تفضلين الترنجان

او من زمرد اذا كانت خضرة الاوراق هي التي تسحرك . واستنار وجه آنيت بفرح طاغ كما تستنير وجوه النساء اذا ما وعدن بالهدايا والهبات وقالت انما افضل هو الترنجان انه غاية في اللطافة .

— فليكن فما ان نصل باريس حتى اشتري لك العقد الموعود .

وهكذا اقامت بقربه متعلقة به وقد اطربها تفكيرها في الحليه وتخيلها لها وسألته .

— او يستغرق عمل ذلك طويلاً .

فضحك وقد ادرك انه استحوذ على افكارها .

— لست ادرى سنحث الصائغ ما وسعنا ذلك .

وعبرت خاطرة في رأسها فجأة : ولكنني لن استطيع لبس الحلية فانا كما ترى في حداد .

فتأبط ذراعها وجذبها : حسناً تحتفظين بها حتى ينتهي حدادك وتستطيعين خلال ذلك التمتع بها على انفراد .

وكان في المساء بينهما وقد احاطتا به احاطة الشهب بالقمر ناظرتين اليه باعينهما الزرقاء المتشابهة ذات النقط السوداء فكان يحدثهما كلا بدورها . ولم تعد صورتا البنت والام تختلطان في خاطره كالسابق فان النور الساطع يكفي للتمييز بين زهرة بدأ يعتريها الذبول وزهرة لما تتفتح جيداً لندى الصباح . والرغبة الوحيدة التي كانت تثور بين حناياه

هي تقبيل الواحدة والاخرى ود لو يقبل الابنة ليستعيد تلك الطراوة التي كان قد عرفها فوق خديها في ايامها الخوالي ، ود لو يقبل الام لانه مازال يحبها .

وعادت آنيت تجتني الازهار . وراح يمتع انظاره بها دون ان يستدعيها كما فعل سابقاً راح ينظر اليها كما ينظر المرء الى الصباح المنبلج ، وكما يصغي الى نغم عذب متطاير . فهي تحيي فيه صور الماضي ماضيه مع امها ، ذكرى صباه وحبه . لقد حطمت الايام واعادت الليالي القهقرى فرجعت بقلبه سنوات عشرين الى الوراء لقد مزجت يومه بغده وذكرياته بآماله . وراح يتسائل باحثا في اعماق ذاكرته اكانت امها لدى اكتمال فتنتها تتمتع بمثل هذا السحر الطاغي وهذا السناء الجريء الذى لا يقاوم . كلا كانت اقل رواء واكثر تهذيباً . فهي ابنة المدينة ثم سيدة المجتمع لم تملأ رئتيها قط بهواء الحقول الطلق لم تتمرغ ابداً في حشائش المروج الندية انها جميلة بين الجدران المظللة بالسجف وليس تحت الشمس الساطعة في الريف الطليق الفسيح .

وانصرفت الكونتس الى كتابة بعض الرسائل بينما ذهبت ابنتها الى غرفتها فخرج الرسام يتمشى قليلا في الحديقة وقد اشعل سيكاراً والقى يديه وراء ظهره . كان مضطربا ولكنه سعيد ، سعيد ؟ ومما ؟ من كل شيء الهواء نقي والحياة رضية وهو يحس في نفسه خفة

كخفة الاطفال رغبة ،في الانطلاق ومطاردة الفراش المتواثب فوق الخمائل . وكان يتمتم ببعض الاغاني الشائعه مردداً بين الفينة والاخرى قول الشاعر كونود: دعيني اتعبد في محراب عينيك. وقد ادرك في هذا القول معنى عميقا حنونا لم يدركه قبل الان .

وتساءل فجأة كيف استطاع ان يحقق في نفسه هذا التطور السريع فقد كان امس في باريس ضجراً مستاء ثائر الاعصاب وهو اليوم هادىء قانع كأن ارادة علوية قد غيرت جوهر نفسه وقال لنفسه ان الاله الصالح الذي فعل ذلك كان بمقدوره اعادة شبابي كما اعادلي مرحي وصفاء نفسي .

وبعد العشاء لم يخرجوا كما فعلوا امس فامضوا السهرة في الردهة . وقالت الكونتس فجأة :- اعتقد ان لابد لنا من السفر عاجلا فصرخ اوليفيه :

— لم يأن لك الحديث في مثل ذلك ! فما كنت راغبة في مغادره رونسير عند مالم اكن انا فيها وما ان جئت حتى رحت تفكرين في السفر . فاجابته :

— ولكن يا صديقي العزيز ليس بمقدورنا الاقامة الى مالا نهاية له نحن الثلاثة .

-- انا لم اقصد القول الى مالا نهاية انما عنيت بضعة ايام اخر . فكم من المرات اقمت لديكم الاسابيع الطوال ؟ .

— صحيح ولكن في ظروف اخرى فقد كان البيت مفتوح الابواب لجميع الناس .

وتدخلت آنيت قائلة بصوت لطيف :

— ولكن يا اماه بضعة ايام اخرى يومين او ثلاثه . انه يعلمني لعب التنس وانا اتقدم سريعاً ويدركني الحزن اذا ما خسرت .

وكانت الكونتس قد قررت في ذلك الصباح بالذات تحديد تلك الاقامة السحرية حتى الاحد القادم وها هي الآن تنقض قرارها دون مبرر معقول . ان هذا اليوم الذي ظننته يوما مفعما بالسرور قد ترك في اعماق نفسها شعوراً مريراً لم تستطع معه ان تقاوم رغبتها في ابعاد حبيبها عن ابنتها . وعند ما خلت الى نفسها وقلبت الموقف جيدا خرجت بنتيجة هي انها قد تسرعت وان ليس ثمة من داع لمثل هذا الاضطراب .

وشعرت بحركة تحت نافذتها ولما نظرت وجدت اوليفيه يتنزه تحت القصر فتساءلت لقد اخبرني انه سيأوي الى فراشه لاريب في انه غير راغب في مرافقتي في نزهته هذه وهمت باغلاق النافذة لكي لا تراه وتناديه ولكنه رفع عينيه اليها وناداها : ـ اراك تحلمين تحت

النجوم فاجابته وانت تفعل ذلك كما ارى — انا انا ادخن فقط .

ولم تستطع مقاومة رغبتها في سؤاله : ـ وكيف لم تخطرني بانك ستخرج تتنزه .

— الواقع اني وددت تدخين سيكار فحسب وها أني عائد .

— اذاً عم مساء يا صديقي

— عمي مساء ايتها الكونتس ورجعت فاقتعدت كرسيها المنخفض وبكت وقضت ليلتها تلك وقد جفاها النوم محمومة يقض مضجعها كابوس مرعب . ولدى استيقاظها فتحت نوافذ غرفتها بنفسها ودون ان تقرع الجرس لوصيفتها راحت تتأمل نفسها بالمرآة كانت تقاطيع وجهها مسترخية وجفونهامتورمة ولونها منخطفاً فالحزن الذي حط عليها كان ساحقاً ان بها رغبة للعودة الى سريرها والاعلان عن مرضها والاعتكاف في غرفتها حتى المساء .

غير ان فكرةالسفر دهمتها فجأةفلم تستطع مجابهتها انها ترغب السفر ولو باول قطار عليها ان تغادر هذه البقعة ذات الشمس الساطعة شمس الحقول التي تكشف للانظار كل آثار الاحزان المنطبعة فوق الوجه واما في باريس فهي دائماً في ظل فالغرف معتمة والستائر كثيفة لاتسمح بدخول النور الا بمقدار .وستعود الى الظهور في باريس جميلة وقد يزيدها هذا الشحوب فتنة في النور الضئيل اللطيف .وعبرت

صورة وجه ابنتها في مخيلتها بخديها الناضرين وشعرها المفتقر الى العناية انها ريانة متدفقة النشاط فياضة الشباب خاصة عند ما تلعب التنس .
وادركت سبب اضطرابها المجهول الذي اعتصر روحها ايما اعتصار ومع ذلك فهي لا تحس غيرة من ابنتها وكل ما تريده هو الا تظهر بالقرب منها في وضح النهار .

وقرعت الجرس وقبل ان تتناول الشاي القت اوامرها بالاستعداد للرحيل فطيرت برقيات وحتى عشاءهم طلبته برقياً واوقفت حساب البيت الريفي ووزعت تعليماتها الاخيرة ورتبت كل شيء في اقل من ساعة . كانت فريسة لقلق وفراغ صبر متزايدين ساحقين .

وعندما هبطت من غرفتها احاط بها اوليفيه وآنيت وراحا دهشين يسألانها عن سبب قرارها السريع . وادركا ان ليس لديها سبب وجيه يبرر ما فعلت فتمتما غاضبين مظهرين عدم رضاهما لهذا الفراق المفاجيء واستمرا على مثل هذه الحال حتى افتراقهما في ساحة المحطه في باريس .
ومدت الكونتس يدها مودعة الرسام قائلة :

— اتريدان تأتي غداً تتناول الطعام لدينا ؟ فاجابها مستاءً :

— بكل تأكيد سآتي . كما تريدين ولكن ما فعلتينه لم يكن لطيفاً فقد كنا سعداء هناك نحن الثلاثة .

الكتاب الثالث

- ٣ -

وما وجدت الكونتس نفسها في العربة التى اقلتها من المحطة مع ابنتها حتى ادركها هدوء مفاجيء كذلك الهدوء الذي يعم الكون بعد عاصفة هوجاء . . كانت تتنفس بسهولة اكثر ، متعرفة على البيوت التي تمر بها فان بها لشوقاً الى باريس .. بل الى هدوئها واستكانة اعصابها احست انها قد انقذت نفسها . ولكن من اي شيء ؟ انها اطمئنت . ولكن ممَّا ؟ ... وانها احست الراحة ولكن ما الذي كان يشقيها ؟

وسارت الى غرفتها تواً . وشعرت وهي تلجها انهـا اصبحت في مأمن .

وهبطت في ساعة الغداء . فاستقبلها زوجها الذي كان قد عاد منذ فترة . فعانقها بشوق وابتسم قائلا :

— كنت واثقا ان صديقنا برتان يوفق الى جلبكما معه . وهكذا

فانا لم اكن غبيًّا ساعة عرضت عليه القيام بهذة المهمة .

فاجابت آنيت بصوت مفعم هزءاً دون ان تضحك :

— لقد لاقى في سبيل ذلك عناء كبيراً . فامي كانت شديده التردد . »

ولم تقل الكونتس شيئًا . ولاذت بالصمت شبه حانقة .

وقصدت بعد الغداء بعض محال الازياء فهي بحاجة الى اثواب جديدة وانها لتجد متعـة عظيمة في زيارة دور الازياء واختيار الثيـاب الانيقة ، والاستسلام الى ايدى العاملات الانيقات ليختبرن لها ما يلائمها من حديث الازياء .

ولدى عودتها وجدت بطاقة من الدوقة تعلمها انها مرت فما وجدتها وانها ستعود في المساء .

ووصل برتان في المساء للعشاء وهتف لدى وقوع انظاره عليها

— انك رائعة هذه المساء .

فتمشت فيها موجة سعادة حاره لدي سماعها قولته .

وطلب الكونت الى برتان ان يلاعبه البليار بعد العشاء فانتقلوا الى الغرفة الخاصة حيث تناولوا قهوتهم .

وكانا ما يزالان منهمكين باللعب عندما اعلن قـدوم الدوقة . كما حضر كوربيل وزوجته . وبعد اداء واجب التعزية وذرف الدموع

وتبادل عبارات الترفيه ، انصرف الجميع الى احاديث عادية منوعة .
ووصل ميزاديو كذلك حريصا ان يكون اول القادمين لتعزية آل غيروا وقد عرف بقدومهم . ودخل فقدم لهم « احر عبارات تعازيه »

وتناول اوليفيه ذراع الصبية وقادها حتى اوقفها تحت صورة امها متيحاً للحضور تأمل الشبه الغريب بينهما وهي مرتدية السواد كما بدت امها في الصورة . وقد ادهش الجميع هذا الشبه الغريب وراح كل يبدي ملاحظاته باعجاب . حتى ان الكونتس تضايقت غاية التضايق من ذلك ، وعظم لديها مثل هذا الامر ، فصاحت بهم : اصمتوا ! لقد فهمنا ان ابنتي تشبهني .

وكان برتان يتحدث اليها عندما اعلنوا عن قدوم المركيز دي فارندال . وما رآه برتان داخلا حتى اغتنم فرصة انصراف الجميع اليه وانزلق عبر باب قريب واختفى وهو يتمتم : هيا بنا . فها هو ذا الحيوان الضخم يصل .

وبحثت الكونتس عن حبيبها بعد ان تلقت تعازي القادم الجديد فما وجدته . فسألت :

— ماذا ؟ ارحل رسامنا الكبير ؟

فاجاب زوجها : ـ اعتقد انه رحل . فقد شاهدته ينسل على الطريقة الانكليزية .

فعجبت لتصرفه ، وادركها حزن ، غير انها ما لبثت ان انصرفت تحدث الدوقة .

ولم تطل السهرة بالجمع بل سرعان ما انصرفوا .

وعندما وجدت الكونتس نفسها مستلقية في سريرها عاودها كل اضطرابها ، وقلقها ، كما كانت في الريف تماماً . وربما ازداد شعورها بتقدمها بالسن وضوحاً بعد عودتها الى باريس .

لقد ادركت ،هذا المساء ،وللمرة الاولى ،انه اصبح في صالونها من يتربع في المقام الاول فيتلقى الاعجاب دونها ، وتغدق عليه النعوت التي حرمت منها هي ... انها ابنتها ... لقد ادركت ذلك جيداً .. ادركت ان ابنتها قد استوت على عرش الجمال والفتنة الذي خلعت عنه هي ... خلعها السن . والسن هو الذي اجاس فتاتها مكانها كذلك فلم يغب عن فكرها ان كل العيون اتجهت الى فتاتها معجبة ، متمتعة بالصبا الريان والشباب الغض وان كل الالسنة قد دارت في حلوقها معبرة عن اعجابها ، وافتتانها بجمال الصبية ذات العشرين . . اما هي هي .. فقد هبطت عليها غمامة النسيان .. فعاشت ساعاتها تلك في الظل ... بعيدة عن نور المديح والثناء والاعجاب .. فشق ذلك عليها ايما مشقة .. فقد اعتادت على سماع تلك الموسيقى التي تخاب لب النساء في كل زمان ومكان .. الثناء ...

وجاء برتان لزيارتها في اليوم التالي ودخل قائلاً بمرح :

– ها انذا . دائماً انا ... ولا احد سواي ... أأنت مشغولة بامر ما ؟ ..

– كلا . ولماذا ؟

– وآنيت ؟

– ولا آنيت

– او تستطيعان اذاً الحضور الى منزلي حوالي الرابعة ؟

– اجل .. ولكن باي خصوص ؟

– اني ارسم لوحتي « الاحلام » التي حدثتك عنها وبودي لو تسمحين لآنيت بالوقوف امامي فترة قصيرة . ان ذلك يؤدي لي يداً مشكورة . وان ساعة واحدة تكفيني اليوم . او تريدين ؟

وترددت الكونتس ضجرة دون سبب معلوم . ومع ذلك اجابت :

– لا بأس ياصديقي . سنكون لديك الساعة الرابعة .

– اشكرك انك عنوان الرقة والدماثة .

وبعد ذلك خرجت الكونتس ماشية لتكمل بعض مشترياتها ولدى عبورها امام كنيسة سان اوغسطان ادركتها رغبة ملحة في دخولها لتصلي قليلاً . فدفعت الباب ودخلت .

أنها متدينة شأن معظم الباريسيات . انها تؤمن بالله دون اي شك . انها لا تفهم وجود هذا الكون دون خالق ابدعه · ولكنها تخلط ، كما يفعل معظم الناس ، بين القدره الخالقة وبين المادة المخلوقة التي ندركها بالحواس ، فهي لا تستطيع تخيل الله في غير الصورة التي صورها الدين له اي انها تعطيه شخصاً مادياً يفكر ويحب ويبغض ويغضب ويصفح ويحب التمجيد والتقديس . كانت تعتقد بذلك أعتقاداً مبهماً دون ان تعنى بالتفكير عما يكون عليه مثل هذا الخالق الغريب لو صح ما زعمت .

غير انها تعتقد بوجوده اعتقاداً تاماً لا تشوبه شائبة ما وهي تخافه خوفاً مبهماً كذلك ·

ولقد كانت رئيسة لجمعيات دينية عديدة ، وهي لا تذكر انها اهملت الذهاب الى الكنيسة احداً واحداً كما انها لم تغض عن التصدق على الفقراء قط

وكثيراً ما كانت تصلي مدفوعة بواجبها كفعل الجندي القائم بالحراسة امام باب الجنرال ··· وربما صلت احياناً اذ يكون قلبها حزينا او عندما كانت تخشى هجران اوليفيه · غير انها لم تبح يوما بسرائرها امام السماء فهي تعامل الله بنفس الاسلوب الخبيث الذي تعامل به زوجها · وهي تطلب منه عونها دون ان تعنى باعلامه السبب.

وها هي الآن وقد دخلت هذه الكنيسة صدفة قد ثارت فيها رغبة اكيدة في الصلاة .من اجل نفسها وليس من اجل الاخرين فهي بحاجة الى مساعدة من مكان ما . وليس امامها سوى الله .. فلتناده كما ينادي المرء الطبيب ساعة اشتداد العلة .. واستمرت في ركوعها فترة طويلة والهدوء المخيم على المعبد يجليها .. وتنبهت من استغراقها فتناولت ساعتها ونظرت اليها فادركت ان الرابعة باتت قريبة فنهضت عجلى واثقة من ان اوليفيه لا بد مقيم بانتظارها الان.

ووجدناه في مرسمه يضع الخطوط الاولى للوحته « الاحلام » وهو يريدها مطابقة لما شاهده في حديقة مونسو عندما كان يتنزه مع آنيت : فتاة فقيرة تحلم وفوق ركبتيها كتاب مفتوح . وتردد كثيراً بين تصويرها جميلة او قبيحة . فاذا اخرجها قبيحة استطاع ان يضفي عليها الوف المعاني . واما اذا كانت جميلة فتأتي اقدر على الاغراء واثارة الفتنة واستدرار الاعجاب .

غير ان الرغبة في اتخاذ صديقته الصغيرة نموذجاً للوحته جعلته يقرر فستكون « الحالمة » جميلة وستصبح قادرة على تحقيق الحلم الشاعري الذي يشع من عينيها فاما لو كانت جميلة فلا ريب ان حلمها محكوم عليه بالاضمحلال .

وما ان دخلت المرأتان حتى استقبلهما اوليفيه فاركاً يديه وقال .

ـ حسناً يا آنسة ناني سنشتغل اذاً .

وظهرت الكونتس مهمومة. وجلست فوق المقعد وراحت تراقب اوليفيه وقد وضع في النور كرسياً من القش الاخضر ثم فتح مكتبته ليختار منها كتابا وسألها بعد تردد :

ـ ماذا تقرأ ابنتك ؟

ـ الكتاب الذي تريده اعطها احد كتب فيكتور هيكو .

ـ اسطورة القرون ؟

لا بأس وتابع موجها كلامه الى آنيت : اسمعي يا صغيرتي اجلسي فوق هذا الكرسي وخذي ديوان الشعر هذا افتحي الصفحه.. الصفحة ٣٢٦ حيث تجدين قطعة عنوانها البؤساء . استوعبيها كما يستوعب الشارب الخمر الجيد هكذا وئيداً كلمة كلمة واتركي لنفسك الانطلاق مع الشاعر حتى يبلغ بك التأثر مبلغه ثم اطبقي الكتاب وارفعي عينيك وفكري واحلمي ...واكون انا خلال ذلك قد اعددت ادوات العمل .

وذهب الى زاوية بعد الفراشي ويفرغ على قطعة خشبيه من انابيب صغيرة خيوطاً من الالوان كان يستدير من وقت لآخر ويتأمل الفتاة المستغرقة في القراءة . وكانت قد انتهت من دراسة القطعة وراحت تنظر امامها فدنا منها فابصر في عينيها دمعتين لامعتين انفلتتا

وسالتا فوق خديها فانتفض احدى تلك الانتفاضات التي تخرج الرجل عن طوره وتمتم موجها كلامه للكونتس :

— يا الهي كم هي جميلة ! ولكنه بهت امام وجه الكونتس الشاحب المغضن .

كانت عيناها الكبيرتان مليئتين بنوع من الرعب وهي تتأملها فدنا منها وقد استبد به القلق وسألها :

— اريد ان اكلمك. ونهضت وقالت لآنيت بسرعة :

— انتظري دقيقة ياولدي لي كلمة اقولها للسيد برتان ثم سارت سريعة الى الصالون الصغير المجاور . وتبعها والافكار تضج في رأسه وهو لا يفقه لموقفها معنى وما ان انفردت به حتى تناولت راحتيه وقالت بلهجة بالغة الاضطراب :

— ارجوك يا اوليفيه ان لا تصور ابنتي . فتمتم مضطرباً :

— ولكن لماذا ؟ فاجابت بصوت سريع النبرات .

— لماذا ؟ لماذا ؟ انه يسأل ؟ اذن فانت لا تشعر بشيء آه اما انا فقد حدست بذلك انا وحدي التي اكتشفت الامر هذه اللحظة... لا استطيع ان اصرح لك بشيء الان ... لا شيء ... اذهب وعد بابنتي قل لها اني اشعر بالم مفاجيء واطلب لنا عربة ثم تعال بعد ساعة لزيارتي وساقابلك على انفراد !

— ولكن ما بك ؟

وبدت له تكاد تسقط تحت احدى ثورات الاعصاب .

— دعني لا اريد ان اقول شيئاً هنا هيا وجيء بفتاتي وادعو لنا عربة .

وصدع بامرها فعاد الى المرسم فوجد آنيت ما تزال منصرفة الى القراءة وقد غمرت قلبها موجة من التعاسة من جراء القصة الشاعرية المحزنة ، فقال لها اوليفيه :

— ان امك ليست على ما يرام فقد شعرت بالم مفاجيء هيا اليها وساجيؤها بشيء من الاثير ثم خرج وعاد بزجاجة من غرفته .

ووجدهما قد تعانقتا باكيتين فانتظر بعض الوقت وقد دهمه تأثر قوي لدى رؤية دموعهما ممتزجة وتكلم اخيراً ...

— الا تشعرين بتقدم فاجابت الكونتس نعم قليلاً ليس في الامر خطر اطلبت لنا عربة ؟

— نعم وستكون هنا بعد لحظات — شكراً ياصديقي ليس بي شيء ولعل الحزن الذي تعرضت له منذ مدة هو الذي سبب ذلك .

واعلن الخادم ان العربة معدة .

واستندت الكونتس الى صديقها شاحبة متسارعة النبض حتى الباب .

وعندما انفرد بنفسه تساءل . . ولكن ما بها وما هذه النوبة وراح يفتش عن الحقيقة دون الوصول الى شيء واخيراً استنار فكره . . . لعلها تصورت اني اغازل ابنتها ولكن ايعقل ذلك ؟ انه لامر فظيع واحتدم غيظاً ولم يرضه ان تجرؤ الكونتس على اتهامه بمثل هذه التهمة الحقيرة بمثل هذا الفعل الدنيء وقرر ان سيكون جوابه حاسماً وسيعلن ثورته .

وخرج مبكراً ليلتحق بها وقد فرغ صبره للاطلاع على حقيقة الامر وكان طوال الطريق يهيىء الاقوال والعبارات التي ستشكل دفاعه عن نفسه .

ووجدها فوق كرسيها الطويل ووجهها متألم بالغ الالم .فقال لها بنبرة جافة :

— حسناً ياسيدتي العزيزة هلا تكرمتي بشرح الدور الغريب الذي مثلته منذ ساعة .فاجابت بصوت محطم . . .

— ماذا ؟ اما فهمت حتى الآن ؟

— كلا ولك ان تثقي

— حسناً يا اوليفيه ابحث جيداً في قلبك

— في قلبي؟

— اجل في اعماق قلبك .

– انا لا افهم هلاّ افصحت .

– ابحث جيداً في اعماق قلبك فقد تجد فيه شيئاً يشكل خطراً عليك وعلي .

– اكرر لك انني لا افهم شيئاً . لقد حدست ان ثمة شيئاً في خيالك اما ضميري فلم اعثر فيه على اي شيء

– انا لم اعن ضميرك انما عنيت قلبك

– انا لم اتعلم حل الالغاز ارجوك ان تتحدثي بوضوح .

ورفعت يديها بهدوء وتناولت راحتي الرسام ثم راحت تقول وكأن كل كلمة تمزق احشاءها تمزيقاً .

– حذاريا صديقي انك توشك ان تصرع بسهام عيني آنيت .

وجذب راحتيه بشدة وراح يقرعها ويلومها باندفاع البريء الذي يمحو وصمة مخجلة الصقت به . وتركته يتكلم طويلاً محتفظة بكل هدوئها واثقة من كل ما ذهبت اليه ثم عادت تقول ...

– ولكنني لا اشك فيك يا صديقي . انك تجهل العاصفة التى توشك ان تهب في اعماقك كما كنت اجهل ذلك انا في هذا الصباح انك تخاطبني كما لو كنت اتهمك باغراء آنيت . كلا ، كلا فانا اعرف كم انت نبيل كم انت اهل للاحترام والثقة . ولكنني ارجوك بل اتضرع اليك ان تنظر في اعماق قلبك وتقول لي هل هذا الشعور

الذي بدأ يعتلج في صدرك بالرغم منك لا يحمل لابنتي شيئاً غير الصداقة .

وغضب من قولها فقد اثارته اكثر فاكثر ثم راح يؤكد لها نبل عاطفته مكرراً على مسامعها الجمل التي اعدها وهو قادم اليها .

وانتظرته حتى فرغ ثم راحت تقول دون غضب او اضطراب ولكن بشحوب مخيف ...

— انا اعرف يا اوليفيه صدق ما تقول ولقد فكرت كما تفكر وانا واثقة من انني لست مخدوعة ، اصغ الي وفكر بما اقول وتفهم جيداً ما ارمي اليه .. ان ابنتي تشبهني كثيراً انها صورة واضحة تمثلني يوم كنت شابة ، يوم بدأت تحبني ولهذا السبب ستجد نفسك هائماً بها .

وصرخ بعنف .. اذن انت تجرئين على صفعي بمثل هذه التهمة مستندة على استنتاج سخيف .. هو يحبني ، ابنتي تشبهني ، اذن سيحبها .

ولاحظ وجه الكونتس يتغضن اكثر فاكثر فتابع بصوت اكثر لطفاً ..

— ولكن ياعزيزتي آني اذا كانت هذه الفتاة تعجبني فلانها صورة عنك . فانت انت وحدك التي احب عندما انظر اليها .

— صحيح وهذا بالضبط ما جعلني اتألم . اخاف بشدة ان

شعورك لم يتبلور بعد ولا بد له ان يفعل بعد وقت ما .

— آني اؤكد لك انك جننت .

— أتريد ادلة — اجل

— كم رجوتك ان تأتي الى رونسير منذ ثلاث سنوات فلم تستجب لي قط . غير انك لم تتردد عندما عرفت ان آنيت فيها .

— آه ؟ مثلاً ! انت تلومينني لاني حضرت كي لا اتركك وحدك وقد عرفت انك مريضة بعد وفاة امك .

— فليكن فانا اعسك بذلك ولكن ما رأيك بهذا . . ان رغبتك في مقابلة آنيت بالغة لديك شأواً بعيداً حتى انك لم تستطع تمضية يوم دون ان تراها فدعوتنا لزيارتك مبرراً ذلك بانك تريد تصويرها .

— ولماذا لم تفترضي ان دعوتي لكما صادرة عن رغبتي في رؤيتك انت ؟

— انك تناقض نفسك بنفسك محاولا اقناعي ولكنك ان تخدعني اسمع ايضاً لماذا غادرت البيت فجاءة اول امس عندما حضر السيد فاراندال الا تعرفه ؟

فتردد وقد اخذ على حين غرة واشتد اضطرابه وقد جرده اتهامها هذا من سلاحه .

— لست ادري بالضبط ... كنت تعباً ... ومن ثم فلأكن صريحاً ان هذا الاحمق يثير اعصابي .

— ومتى كان ذلك ؟ — دائماً

— معذرة فقد سمعتك تمتدحه . كان يعجبك في الماضي كن صريحاً كل الصراحة يا اوليفيه .

وفكر لحظات كأنه يفتش عن الكلمات وقال . .

— نعم من المعقول ان يحملني حبي لك على ان احب كل انسبائك ولأبدي رأيي بهذا الابله ولم يكن يثير فيّ اي اهتمام لو اقتصرت معرفتي به على لقاء بين وقت وآخر ولا غرو ان اغضب اذ وجدته يكثر التردد عليكم .

— ولكن بيت ابنتي لن يكون بيتي . الا يكفي ذلك ؟ انا اعرف نبل قلبك . واني لواثقة من انك ستفكر طويلاً بكل ما قلته لك . وعندما تقتل الموضوع تفكيراً ستجد انني على حق . انني ارشدتك الى خطر داهم فاعطيتك الوقت الكافي لتجنبه فحذار حذار . لنتكلم بموضوع آخر اتريد ؟

فلم يمانع وبدا شديد الاستياء وهو لا يعرف تماماً فيما يفكر وقد كان في الواقع بحاجة الى التفكير وبعد ربع ساعة من احاديث عادية نهض وانصرف ...

- ٤ -

وبلغ اوليفيه بيته بخطى وئيدة ، وقد بلغ منه الاضطراب كل مبلغ كما لو كان اطلع على سر عائلي مشين . وحاول سبر اغوار قلبه وتحقق من ميوله التي جاءت يد غريبة فقلبت صفحاتها والقت الى النور بسطورها ... انه لا يعتقد ، في الواقع ، ان ماذهبت اليه الكونتس حقيقة او شبه حقيقة فهو لا يعرف في نفسه حباً لآنيت . فالكونتس وقد اعمتها غيرتها العاصفة ، لم تستطع الا الاشارة الى خطر لم يحدث بعد ولكنه ممكن الحدوث . ولكن ... ايمكن ان يصبح هذا الحدس يقيناً غداً او بعد غد او في غضون شهر ؟ ! هـذا هو السؤال الدقيق الذي حاول برتان ان يجد له الجواب الشافي . ومما لاريب فيه ان هذه الفتاة تثير في أعماق برتان حنواً وحـدباً غريزيين . . غير ان هذه العواطف الغريزية من الشدة والتداخل في نفس الرجل حتى ليصعب تمييز الخطير منها عما لا ينطوي على اي خطر ... ان ما يجذبه الى هذه الفتاه لا يعدو كونه احد تلك الميول الغامضة البريئة التي تشكل جزءاً

من مجموع ميول المرء نحو الخير والحق والجمال . أن ما فيها من ريق الشباب ونفحة الصبا ليجذب عينيه كفنان ورجل . وشبهها العظيم بامها في صباها يوقظ في قلبه حبه القديم الذى غفا او كاد يغفو ، بفعل السن ، في اعماق الاوعيه . انها يقظة حب ؟ اجل ! هـذه هي الحقيقة كل الحقيقة ! واستنار عقله عند ما خطرت فيـه هذه الخـاطرة . لقد استيقظ بعد سبات سنوات طوال وكل ما فعلته هذه الصبية يختصر في أنها نفخت فيه ناراً او شكت ان تخبو تحت الرماد .. رماد الزمن انه يحب الام ولا شك . غير ان حبه لها قد تعاظم لدى وقوع عينيه على هذه النسخة الجديده منها .. هذه الفتاة التي تمثلها اصدق تمثيل يوم عاقها قلبه ولخص ما خاص اليه بهذا التحليل الفلسفي :

« لا نحب المرء الا مرة واحدة . امّا القلب فلا يعدم فترات يخفق فيها لمخلوق آخر غير الحبيب ، لأنه ما ان يلتقي شخصان حتى يحدث بينهما مدّ وجزر قد تنجم عنه الصداقة ، او حب الامتلاك ، أو احدى تلك العواطف العابرة الموقتة ، اما الحب الحقيقي فلا يحدث من جراء ذلك ابداً . اما الحب الحقيقي هـذا فلا يولد الا اذ كان الشخصان قد خلق احدهما للآخر فيشعر الواحد ازاء الآخر بجواذب لا تحصى : روحية ومادية ... فالحبيبة ليست السيدة فلانه ، وليس

الحبيب السيد فلان ، انها امرأة وانه رجل ، مخلوقان لا اسم لهما ، قـد خرجا من « الطبيعة » ليسعى كل منهما الى اللقاء بالآخر والاتحاد به والفناء فيه فأن الطبيعة تخلق في الشخص المحبوب شيئاً سحرياً يجتذب من المحبوب عينيه وقلبه وشفتيه وافكاره وكل ما فيـه من حواس وخواطر .فاذا احب رجل امرأة فانما يحب فيها مجموعة الصفات البشرية التي تشكل الجاذب الذى يبعد بنا عن كل شخص آخر ويدنينا من الحبيب دون سواه .

وكانت الكونتس بالنسبة اليه ذلك الشخص الجذاب ، المحبوب غير ان ابنتها تشبهها جسدياً ، فليس ما يمنع ان يعمل هذا الجاذب فيه عمله ، فيميل اليها بقلبه ولكن دون ان يندفع في ذلك المزلق الخطر... لقد احب امرأة حتى العبادة ! ثم جاءت امرأة ثـانية ، من لحم حبيبته ودمها ، بشبه غريب بينهما . افيستطيع ان يقف ازاء الثانية دون ان يغدق عليها طرفاً من وجده القديم وحبه الخـابي المستيقظ . وماذا في مثل هذا العمل ؟ واين الخطر فيه ؟ فالامر لا يتعدى متعـه النظر في هذا (الماضي المنبعث) . غير ان غريزته لم تخنه ، ولم تضل الطريق . فهو لم يحمل للفتاة مطلقاً اى ميل غريزي ! ومع ذلك فها الكونتس تتهمه بغيرته من المركيز . اصحيح هـذا ؟ وعاد يتفحص ضميره ذاك التفحص الصارم فخرج هذه المرة بهذه النتيجه : لاريب في انه يحمل

غيرة من المركيز . ولكن الا نشعر بالغيرة من اي رجل يغازل امرأة امام ناظرينا او لا نحس شيئا مثل هذا حتى في المسارح او قراءة الروايات ؟ فكل من يمثلك امرأة يبدو لنا مزاحما . فما هو الا ذكر متغلب مكتف فحسد الذكور الآخرين له امر طبيعي . ولندع هذا التحليل الفيزيولوجي . فقد خاص الى انه يحمل للفتاة حباً مستوحياً من حبها لأمها ، افليس طبيعيا ان يغار عليها . اليس طبيعيا ان يحمل لزوجها المستقبل شيئا من الكره الحيواني ؟ .

وادركته غصة مريرة اذ فكر ان علاقته بالام سيشوبها الكثير من الشك والقلق فان ايه كلمة يتلفظ بها او حركة يأتي بها قد تحمل في اعين الام معانيا كثيرة . وقصد مسكنه ، واقام مدة يدخن ويلوك مثل هذه الافكار . وعبثا حاول العمل . فكأن يده وعينه قد نسيتا الرسم كما لو لم يكن قد اشتغل به قط . واحس ضجراً ومللاً فكأن الساعات لا تمشي ولا تتقدم فيما سيشغل وقته حتى يأزف وقت الغداء فيقصد النادي . وينهض يذرع المرسم بخطى قصيرة حائرة . ثم عاد يجلس زاعماً انه يستطيع قطع الوقت بالمطالعة ، وكان كتاب (اساطير القرون) ما زال فوق المقعد فتناوله وقرأ صفحتين من الشعر دون ان يفقه للكلمات معنى . ولم يجد افضل من اخذ حمام ساخن يهدئ اعصابه ويقتل الوقت به . وبعد الفراغ منه قصد النادي

فتلقاه رفاقه باذرع ممدودة والاسئلة تزدحم فوق شفاههم . فقد مضت مدة طويلة لم يظهر فيها بينهم . فاجاب باقتضاب :

– اني عائد من الريف .

وكان الغداء مثله في سائر الايام ، كثير الضجيج ، محتدم الجدل بين الرفاق . وراح برتان يكثر من الكلام للترفيه عن نفسه والابتعاد بفكره عن الموضوع الذي يرهقه . ووجده الرفاق غريبا فقد اعتادوا منه الاتزان والاقلال من الكلام .

وما ان فرغ من تناول قهوته وشوط البليار حتى انصرف متجهاً نحو (الايبودروم) ثم غير رأيه واتجه نحو الملعب الجديد ودون اي مبرر استدار عائداً ووجد نفسه يسير في شارع (مالرب) ويدنو من مسكن الكونتس غيروا ... « ستجد زيارتي غريبة ولا ريب هذا المساء » غير انه عاد وفكر ان ليس من المستغرب عودته لاستطلاع احوالها مرة ثانية . ووجدها وحيدة مع آنيت في الصالون الصغير وقد انصرفتا الى حياكة اغطية الفقراء .

وقالت ببساطة عندما رأته واخلاً .

– اهذا انت يا صديقي .

– اجل ان افكاري مشغولة عليك وها قد جئت لأراك فكيف انت .

لا بأس اشكرك وسألته بعد لحظات بلهجة معنوية : وانت ٠

فراح يضحك بانطلاق مجيبا : انا على احسن حال ان مخاوفك لم يكن لها اي مبرر ٠

فانقطعت عن حياكتها ونظرت اليه نظرة حادة فيها رجاء وفيها شكوك .

فقال : اني اروي لك الواقع .

— حسناً

قالتها بابتسامة مغتصبة وجاس وللمرة الاولى شعر بانزعاج يدهمه في هذا البيت كأن شللاً قد اصاب تفكيره كما حدث معه تماماً عند ما حاول انْ يشتغل في مرسمه .

وقالت الكونتس لابنتها .. تابعي عملك يابنيتى فهذا لا يزعجه

وسأل : وماذا تعمل ؟

— انها تحيك صوفاً .

وبعد فترة صمت نهضت آنيت الى البيانو فتبعها بناظريه دون ان يقصد كما اعتاد ان يفعل. واحس بامها تراقبهافانتفض واستدار برأسه كأنه لمح شيئا في زاوية الصالون . وتناولت الكونتس علبة صغيرة مذهبة وكان قد اهداها اليها وفتحتها وقدمت له لفافه ..

دخن يا صديقي فانا احب ان اراك تدخن عند ما نكون سوية .

واطاعها وبدأت آنيت العزف وكانت المقطوعة قديمة خفيفة وعذبة من تلك القطع التي اوحيت الى الفنان في مساء جميل مقمر من امسية الربيع وسأل اوليفيه لمن هذه المقطوعة فاجابت الكونتس انها (لشومان) ليست مشهورة ولكنها جميلة .

وكان بوده ان يتأمل آنيت وهي تعزف ولكنه لم يجرؤ فهو يدرك ان انظار الام المراقبة لا تفارقه . وعند ما انتهت آنيت من العزف نهضت الكونتس واخذت مكانها وراحت تعزف قطعة حزينة متغيرة كأنها نداء مفجع متواصل .

ولم يصغ اوليفيه للعزف لانه كان مشغولا يتأمل آنيت التي عادت وجلست قبالته .

كان ينظر اليها دون ان يفكر وبتشوق المحروم من شيء قد اعتاده وقالت الكونتس أأعجبتك المقطوعة .

فهتف وكأنه يستيقظ .. رائعة مدهشة ولمن هي .

— اولا تعرف — كلا

— كيف ؟ انت لا تعرف لمن هذه المقطوعة .

— أؤكد لك انى لا اعرف .

– انها (لشوبرت) فقال بلهجة اقتناع عميقة ..

– هذا لا يدهشني فهي رائعة انك تحسنين صنعا باعادتها .

وعادت الكونتس تعزف بينما انصرف هو الى تأمل آنيت دون اهمال الاصغاء الى القطعة . متمتعا باللذتين في آن واحد

وانصرف مبكراً فقد شعر بهذا الشلل الذي اصاب فكره ولسانه في آن واحد .

وما وجد نفسه في الشارع حتى ادركته رغبة في التطواف دونما هدف معين فسار ويداه وراء ظهره وراح يستعيد ذكريات نزهته مع آنيت في الحديقة فقصد تلك الحديقة والقى بنفسه فوق احد المقاعد وراح يعب النسيم المعطر باريج الازهار كما لو كان مراهقا عاشقا ونهض فجأة وقد فرغ صبره من سيطرة هذه الذكريات عليه وهو يتمتم ..

– انه لامر مخجل وتصرف صبياني هذا الذي بدر مني.

وعاد الى بيته بالغ الاضطراب وجفاه النوم كأن الحمى تنهش جسده . وكانت ليلته مخيفة فهو لا يفتأ يتقلب في فراشه ملتمسا النوم ولكنه بدا صعب المنال فنهض واشعل النور وتناول كتاباً قرأ فيه صفحات دون ان يدرك لها معنى فاستبدله بكتاب آخر (لبلزاك) المؤلف المفضل لديه ولم تكن النتيجة خيراً فعاد يستبدله بكتاب آخر

(لفيكتور هيكو) ثم بثالث (للامرتين) ولكن دون جدوى وعاد يضطجع في سريره وكانت الساعة تدق الثالثة وهو يتمتم لنفسه .. يالي من كهل مفتون .

ولم يقصد الكونتس في غده وقد قرر بحزم ان لا يزورها قبل يومين . كان قلقا مضطربا لا يقوى على العمل يحمل معه كآبته انى ذهب سواء في نزهاته او زياراته او في بيته فان انشغاله بهاتين المرأتين يكاد يحطمه .

ولما كان قد عزم على عدم زيارتهما لم يجد تعزيته الا بالتفكير بهما وكان يستخلص من تفكيره الطويل .. أأحمل لآنيت غير الانعطاف والحنو ثم يعود يفتش في اعماق قلبه باحثا منقبا دون ان يعثر على شيء فيخاطب نفسه قائلاً .. كلا انا لا احب هذه الصغيرة اني ضحية الشبه بينها وبين امها .

وعاد يستعيد ذكرياته في رونسير حقا لقد كان سعيداً الى قربها واذ كان يتتبع تلك الذكريات نفذ الى ذاكرته وعده لها بالهدية فور عودتهم الى باريس . وتبخرت كل قراراته بعقاطعتهما ودون ان يقاوم وجد نفسه مرتديا قبعته متجها نحو منزلهما مفكراً بالسرور الذي سيجلبه لهما . واخبره الخادم ان السيدة قد خرجت وليس في البيت سوى الآنسة فقال اوليفيه اخطرها انني جئت لزيارتها . وعبر الى

الصالون بخطى خفيفة كأنه يتمشى لم يحس به احد وسرعان ماظهرت آنيت ..

— عم مساءً يا استاذي .

قالتها بشيء من الوقار فراح يضحك وهو يضغط يدها وجلس بالقرب منها ..

— احزري ما الذي جاء بي ؟ فاجابت بعد تفكير لحظات

— لست ادري .

— لاصطحبكما الى الصائغ لنختاري الحلية الزرقاء التي وعدتك بها في رو نسير .

وشع وجه الفتاة بسعادة طاغية وقالت ولكن امي قد خرجت ولن تلبث ان تعود سننتظرها اليس كذلك ؟

— اجل اذا كانت لن تتأخر طويلا .

— اتعني انك تضجر بوجودي انك تعاملني كما لو كنت ما ازال طفلة .

— كلا ليس كما تعتقدين .

واحس رغبة في ملاطفتها والظفر باعجابها كما لو كان شابا يتصدى لفتاته اول مرة مستخدما كل مواهبه لخلب لبها والسيطرة على عواطفها ووجد الاقوال والتعابير طيعة متلاحقة فراح يحدثها بطلاقة بينما كانت هي تجيبه بشيء من الخبث وبكل ما فيها من نعومة ورقة وكان يخاطبها

بصيغة الجمع فانطلقت تضحك وتقول لماذا لا تخاطبني بصيغة المفرد اتحسب نفسك امام امي ؟ فتضرج خداه وتمتم .

— كثيراً ما وجهت الي امك هذه الملاحظة . وفتح باب فهتفت الفتاة هذه امي فاضطرب اوليفيه كما لو كان قد ضبط مرتكبا امراً إداً وراح يفسر لها وجوده ثم قال لدي عربة فهيا بنا ووصلوا محل الجوهري في لحظات وجلست الكونتس وابنتها ثم راح الجوهري يعرض عليهما انواع الحلي ونشر امامهم قطع اللازورد ليختاروا منها اربعاً وطال بالمرأتين تقليبها ثم تناولتاها بعناية وفحصتاها بانتباه صبور وبعد ان اختارتا اربعاً منها كان عليهما انتقاء ثلاث قطع من الزمرد لصنع الاوراق ثم حبة صغيرة من الماس لتثبت في الوسط كأنها نقطة ندى وقال اوليفيه مستطاراً لسروره مخاطباً الكونتس .. اتريدين ان تجابي لي السرور باختيارك خاتمين ؟ .

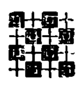
— لي انا ؟ .

— اجل واحد لك وآخر لآنيت اسمحي لي ان اقدم لك هذه الهدية الصغيرة تذكاراً لليومين الذين قضيناهما في رونسير . ورفضت فالح ونشب جدل بينهما انتهى بعد لأي بانتصاره واشترى لهما الخاتمين وبعد فراغهما من هذه المهمة المحببة نهض اوليفيه مفعماً سعادة وقال سأترك لكما عربتي وسأنطلق ماشياً لشاغل هامة غير ان آنيت رجت

امها ان تعودا ماشيتين في ذلـك الطقس الجميل فقبلت الكونتس وشكرت برتان وانطلقت في الشارع مع ابنتها وسارتا صامتتين بعض الوقت وقد سيطر عليهما الفرح بالهدايا التي قدمت لهما ثم راحتا تتحدثان عن الحلي التي شاهدتاها وقالت الكونتس . اشعر بنفسي تعبة فلنأخذ عربة يا ولدي .

فسألتها آنيت مضطربة .. ماذا بك يا اماه .

— لا شيء انت تعرفين انه منذ موت جدتك كثيراً ما اشعر بتعب مفاجيء .



- ٥ -

ان للأفكار الثابتة التي تسيطر على العقول فعل الامراض المستعصية التي تغزو الاجسام . فاذا ما حلّت في نفس ما حرمتها لذة تذوق الحياة وابعدت عنها حرية التفكير تفكيراً سليماً منطقياً . وهذا ما كانت عليه الكونتس ، فهي اين حلّت واني اقامت لا تنفك تفكر كما فكرت اذ عادت مع ابنتها بعد ان غادرهما اوليفيه : ايعقل الا يقارن اوليفيه بينهما ويفاضل اذ يرى الواحدة الى جانب الاخرى ؟

انه لابد فاعل ولو رغماً عنه . وهي تقرأ في عينيه دائماً مثل هذه المقارنة والمفاضلة ... وهكذا راحت تعذبها فكرة غريبة : لابد لها من الاختفاء .. عليها الا تظهر بالقرب من ابنتها ابداً ...

انها تتالم الماً متواصلاً ممزقاً .. وحتى عند ما تكون في بيتها مع ضيوفها ، وتجد ان اعينهم تبحث عن ابنتها دون انقطاع ..ونبتت في ذهنها فكرة ملحة لا ترحم : يجب ابعاد آنيت عن البيت ! عليها اخراجها منه باي ثمن .. كما يسعى المرء لابعاد ضيف ثقيل وقح مبرم

وراحت تعمل لتحقيق فكرتها الهائلة تلك بدقة ودراية علها تتوصل الى الاحتفاظ ، رغم كل شيء ، بالرجل الذي تحب .

ولم يكن حدادها الجديد ليسمح لها بالتعجيل بابرام زواج آنيت من المركيز ، فكانت تخشى ، خلال فترة الانتظار تلك ان تجد جديد يعرقل تنفيذ الفكرة . ولذا راحت بدراية واتئان تعمل جاهدة لاثارة العطف في فؤاد ابنتها على المركيز .

وكانت خطتها محكمة الوضع . فهي تريد الاحتفاظ بالرجلين اوليفيه لها والمركيز لابنتها . ولذا عمدت الى اجتذاب الواحد والآخر دون ان تجعلهما يلتقيان لديها .

ولما كان اوليفيه في هذه الايام منصرفا الى عمله فهو لا يخرج الا مساء لقضاء السهرة بين صحبه ، كانت كثيراً ما تدعو المركيز للغداء . فكان هذا الاخير يأتي دائماً يحمل اخبارا عن المجتمع الباريسي فينثرها امام المرأتين بحديثه اللبق . وقد توصل الى اجتذاب اذني آنيت لما يقول . وانتهى بهما الامر الى نشوء صداقة ، أو صحبة ، بينهما نتجت عن ذوقين متشابهين وميول واحدة كحب الخيول والاعجاب بالاناقة والحياة الاجتماعية الباريسية الرفيعة .

وما ان ينصرف من زيارتهم حتى يبدأ الأب والام في اطرائه

وامتداحه باسلوب خفي . قائلين عنه كل قول محمود لتفهم فتاتهما ان عليها ان تقول كلمتها في الزواج منه .

ولم يطل بها الامر . فسرعان ما ادركت مقاصدهما . وخلصت الى التفكير ان فكرة الزواج من هذا الشاب الجميل الانيق فكرة صائبة ، فهو ، فضلا عمّا يقدم لها من متع عديدة ، تستطيع ان تخرج بصحبته كل صباح راكبين جوادين كريمين ...

ووجدا نفسيهما خطيبين ذات صباح ... وتم ذلك ببساطة متناهية فتصافحا وتبادلا ابتسامة .. ثم راحا يتحدثان عن هذا الزواج كما لو كان شيئاً مقرراً مفروغا منه منذ امد طويل .وبدأ المركيز تقديم هداياه . وبدأت الدوقة تعامل آنيت كما لو كانت ابنتها الحقيقية .

لقد تم كل ذلك وابرم ونفذ في ساعات النهار الهادئة وكان نتيجة طبيعيه لتلك العلاقة الحميمة بين آل غيروا والدوقة ، امّا المركيز فكان كثير المشاغل ، عديد الواجبات ، فلم يكن كل ذلك يتيح له المجيء لقضاء السهرات الاّ نادراً .

واما الامسية فكانت لاوليفيه . فهو يأتي بشكل منتظم لتناول العشاء لدى اصدقائه مرة كل اسبوع . وكثيراً ما يحضر دون سابق انذار فيطلب كأساً من الشاي بين العاشرة ومنتصف الليل .

وما ان يدخل حتى تروح الكونتس تتفحصه محاولة ادراك ما

يعتلج في صدره ، وتنتهي دائماً الى التفكير : انه لا يقبل الا بحبها اذا ما رآها الى قربي ..

وهو ايضاً كان يقدم الهدايا . فما ينقضي اسبوع دون ان يحمل اليهما شيئين احدهما للام والآخر للفتاة . فكانت الكونتس اذ تفتح العلب التي تحتوي عادة ادوات زينة، لا تملك نفسها من الاكتئاب.

لقد مرّ الرسام، في الماضي ، بمثل هذه الحال ، فكان كثيراً ما يدخل حاملاً بيده هديته ، ثم انقطع عن ذلك مدة ، وها هو يعود اليها ، ترى امن اجلها يفعل ذلك ؟ لم تكن لتشك في حقيقة الامر ابداً انه لا يفعل ذلك من اجلها هي ! وكان يبدو تعباً ، نحيلاً ، فلم تشك في انه يتألم . وراحت تقارن مواقفه بمواقف المركيز الذي سحر آنيت قد حرك عوامل حبها هو الآخر . غير ان حالهما لم تكن واحدة . فالسيد دي فارندال كان هائماً . اما اوليفيه فهو مغرم فقط . هذا ما كانت تظنه عندما تجد اوليفيه في اوقات عذابه وشقائه ، فما ان يعود الى نفسه حتى تفكر انها قد تكون مخدوعة .

وكثيراً ما شعرت ان عليها ان تطلب منه عندما يكونان على انفراد ، ان يفتح لها قلبه ، فيصرح لها بكل شيء ، دون ان يخفي عنها اقل خلجة ، فخير الف مرة ان تبكي حبها وهي واثقة من زواله من ان تعيش في مثل هذه الريبة القاتلة وهي تظن ان حباً آخر يعظم وينمو

في فؤاد من تحب ...

هـذا الفؤاد الذي يفوق تعلقها به تعلقها بحياتها . هذا الفؤاد الذي رعته ، وادفأته ، وحركت نبضاته بحبها وحنوها خلال اثني عشر عاماً ، والذي زعمت لنفسها انها امتلكته امتلاكاً ابدياً .. هـذا الفؤاد .. تجده بين ليلة وضحاها ، وقد فر من انامها خضوعاً لقدر محتوم ! !

فما جدوى الحب ، الحب الاعظم الذي حملته لاوليفيه ، الحب الذي جعلها تهبه طائعة مختارة كل ما تملك دون اي تحفظ ، ما جدوى هذا الحب اذا كانت رؤية وجه آخر كافية لاذابته وتبخره حتى ليغدو وجه الحبيب بين يوم وليلة غريباً بعيداً .

غريب ! ايعقل ان يصبح اوليفيه غريباً عنها هي آني ! ولكنها ما زالت تخاطبه بنفس اللهجة ، وبذات التعابير ... غير انه لا يغرب عن بالها ان ثمة اشياء تعترض بينها فتفصل روحيهما وتباعد بين قلبيهما . وما تراها هذه الاشياء ؟ اشياء لا توصف ، ولا تنقطع ، ولا تقاوم .. انها لا شيء .. وهذا اللاشيء مع ذلك يشكل حاجزاً يبدو متكاثفاً يوما بعد يوم ...

انه يبتعد عنها ، يبتعد عنها يوما فيوما . وكل نظرة يلقيها على آنيت تزيد شقة البعد اتساعا . وهو لم يكن يدرك تمام الادراك التفاعل

الحادث في قبله ، او انه لم يشأ ادراك ذلك فلم يكن صريحاً مع نفسه حيالها وحيال آنيت .

واقتصر همه في الايام الاخيرة على السهرات التي يقضيها بين هاتين المرأتين وقد انصرفتا عن المجتمع ، بسبب حدادهما ،فخلصتا اليه. وكان يلتقي لديهما بالوجوه المعتادة : ميزاديو وآل كوربيل حتى ليخيل اليه انه معهما وحده في هذه الدنيا . ولم يكن ليلتقي بالدوقة والمركيز فيها قلما يحضران ليلا فقد خصصا النهار لحضورهما . وخيل الى برتان انه نسي وجودهما او ان موعد الزواج قد ارجئ الى اجل غير مسمى.

ولم تكن انيت لتتحدث امامه عن خطيبها ابداً ، او كانت تفعل ذلك مدفوعة بشعور غريزي ام بشيء من ذلك الحدس النسائي الذي يجعل القلب يتفتح على عوالم مجهولة من العقل ؟

ومرّت الاسابيع تلو الاسابيع دون ان يطرأ اي تغيير على هذه الحياة الرتيبة حتى جاء الخريف . وجاء معه افتتاح المجلس النيابي وما جر ذلك من تقلبات في الجو السياسي . ويوم افتتاح البرلمان دعى الكونت دي غيروا الدوقة والمركيز وآنيت بعد الغداء لحضور حفلة الافتتاح . ولم تشأ الكونتس مرافقتهم رغبة منها في الانفراد في بيتها باحزانها المتزايدة يوماً اثر يوم .

وبعد ان فرغوا من تناول الطعام خرجوا الى الصالون الكبير

لارتشاف القهوة . وراح الكونت يتحدث عن حفله الافتتاح وما قد يجر ذلك من نشاط في الحياة السياسية العامة التي تشكل بالنسبة اليه متعة كبرى . وكانت القهوة قد قدمت ونشرت في جو الصالون اريجها العطر عندما قرع الباب ودخل اوليفيه برتان .

وتردد في الدخول وقد ادهشه ما وقعت علية انظاره ، وقد داخله شعور الرجل الذي يدخل بيته فيجد نفسه امام خيانه زوجية سافرة !.. وشعر بالغضب يكاد يخمد انفاسه ... واحس ، في هذه اللحظة ، انه يحب آنيت ... وكل ما اخفي عنه ، وكل ما اخفاه هو عن نفسه ، برز امامه الى النور واضحاً بيناً عندما شاهد المركيز جالساً قرب آنيت كخطيب قرب خطيبته .. ودخل وقد اعتراه اضطراب عنيف هز كيانه هزاً .. ولم يسأل عن سبب اخفاء امر هذا الزواج عنه ، لم يسأله لانه ادرك ذلك دون حاجة الى سؤال . والتقت عيناه القاسيتان بعيني الكونتس فتضرجت وجنتاها .. لقد تفاهما .

وصمت الجميع بعد جلوسه كأن حضوره شلّ تفكيرهم . ثم انتقلت الدوقة الى قربه راحت تجاذبه اطراف الحديث فكان يجيبها باقتضاب وبنبرة بدت غريبة حانقة .

وكان لا يفتأ يجيل انظاره في هؤلاء القوم الذين عادوا يتحدثون

وهو يردد بينه وبين نفسه : « لقد خدعوني . سيدفعون ثمن ذلك غالياً » .

والتفت الكونت الى الساعة وهتف: آه لقد آن وقت الذهاب.

ثم استدار الى الرسام وقال له : اننا ذاهبون لحضور حفلة افتتاح المجلس النيابي . ان زوجتي باقية في البيت . فاذا شئت مرافقتنا كان ذلك من دواعي غبطتنا .

فاجاب اوليفيه بجفاف : كلا شكراً . ان مجالسكم لا يغريني .

ودنت منه آنيت وقالت بلهجة مرحة : — ولكن تعال معنا يا استاذي مما لا ريب فيه انك ستسلينا اكثر مما سيفعل هؤلاء النواب المحترمون .

— كلا . حقاً ؛ ولكنكم تعرفون كيف تتسلون من دوني .

وادركت انه غاضب ومستاء فالحت عليه بدافع من اللياقة . ولكن .. تعال يا سيدي الرسام ، فانت تعرف ان ليس لي عنك غناء.

وانفلتت من بين شفتيه كلمات لم يستطع لها امساكا او تخفيفا من حدتها :

— بخ ! انك تستطيعين الاستغناء عني مثلك مثل بقية الناس.

وتساءلت بشيء من الاندهاش : — آه . لقد عاد يخاطبني بصيغة الجمع .

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة مغتصبة من تلك الابتسامات التي تنم عن آلام مبرحة تعتمل في نفسه المعذبة .

وعاد يقول بشيء من الهدوء : - عليَّ ان اعتاد مخاطبتك باحترام ...

- ولماذا ؟

- لانك ستتزوجين قريبا . وقد لا يروق لزوجك ، كائناً من كان ، ان يسمع لهجة رفع الكلفة هذه .

وتدخلت الكونتس قائلة :

- لم يحن بعد الوقت لمثل هذا القول . غير اني لا اعتقد ان زوج آنيت سيكون من الخشونه بحيث يسيؤه ان يسمع هذه اللهجة العائلية من صديق قديم .

وصاح الكونت :

- هيا . هيا . سنتأخر ..

وتبعه الذين سيرافقونه . فودعوا الرسام والكونتس وخرجوا .

ها هما على انفراد . هو وهي . واقفان وراء الباب المغلق .

قالت برقة اجلس يا صديقي .

فاجاب بعنف : كلا شكراً . اني ذاهب انا الآخر .

وتمتمت ضارعة : آه .. ولكن .. لماذا !

— لأن هـذا الوقت ليس لي على ما يبدو . اني اعتذر اليك لمجيئ في غير ساعتي

— ما بك يا اوليفيه ؟

— لا شيء . انما انا آسف لازعاجكم في ساعات صفوكم .

وتناولت يده : — ماذا تقصد ؟ انها ساعة انصرافهم اذ انهم سيحضرون حفلة افتتاح الندوة النيابية . وانا لن ارافقهم . فانت ، بمجيئك في هذه الساعة ، كأنك الهمت ذلك الهاماً ... فانا كما ترى وحيدة ...

ولاك بعض الكلمات : — ملهماً ... اجل ملهما ...

وتناولت راحتيه الاثنتين ونظرت في اعماق عينيه وتمتمت بصوت خفيض :

— اعترف امامي انك تحبها .

وسحب راحتيه من كفيها وقد افلت سيطرته على اعصابه :

— انك مجنونة بفكرتك هذه .

وقبضت ذراعه وضغطت بكفيها فوق زنده وقالت بلهجة كلها ضراعة ورجاء :

— اوليفيه ! اعترف ! اعترف يا اوليفيه . كم اود ان اسمع الحقيقة من فمك اني واثقة . واثقة ولكن احب ان اسمعك تقول

ذلك .. أنت لا تدرك مبلغ العذاب الذي يمزق حياتي .

وهز كتفيه وقال : - ماذا تريدين مني عمله اذا كنت قد فقدت كل ادراكك واصبت بمس من جنون ؟

وجرته نحو الصالون البعيد حيث لا يسمعهم احد . وجرته من سترته وهي تتشبث به حتى بلغت به مقعداً مستديراً فالقت به فوقه وجلست بقربه :

— اوليفيه ! يا صديقي الوحيد ! ارجوك . انضرع اليك . قل انك تحبها . انا اعرف انك تحبها ، احس هـذا الحب في كل ما تقول في كل ما تفعل . اكاد اموت .. ولكن اريد ان اسمع ذلك من فمك .

وراح يتخبط محاولاً التخلص من بين ذراعيها . فتداعت فوق الارض على ركبتيها ، وجثت تحت قدميه وراحت بصوت مخنوق تقول : ـ آه ياصديقي . ياصديقي الوحيد ، اتحبها حقاً ! ؟

وصرخ محاولاً انهاضها : ـ كلا .. كلا ... اقسم لك ان كلا...

ومدت راحتها الى فمه والصقتها به لتسكته وتمتمت : ـ آه .. لا تكذب ! لشد ما تؤلمني ...

وتركت رأسها تسقط فوق ركبتي هذا الرجل وراحت في نشيج مر .

ولم يرَ الا عنقها ، كتلة من شعر تخلله عدد كبير من الشعر

الابيض ... وعبرت بكيانه هزة عنيفة من الشفقة .. وموجة هائلة من الألم .

وقبض باصابعه على شعرها الكثيف ورفع اليه وجهها الشاحب بعينيها الشاخصتين والدموع تجري منهما مدراراً ... والقى بشفتيه على عينيها الدامعتين .. يقبل الواحدة تلو الاخرى مردداً :

— آني .. ياعزيزتي .. ياعزيزتي آني ...

وحاولت ان تبتسم ، بصوت طفل مخنوق بالالم قالت : — آه ياصديقي قل انك ما تزال تحبني .. ولو قليلاً ...

وعاد يقبلها : اجل ! اني احبك يا عزيزتي آني ..

ونهضت وعادت تجلس الى قربه وتأخذ يديه بكفيها ،وبصوت مشبع بالحنو راحت تقول :

— ها قد مضى زمن طويل ونحن متحابان .. ايعقل ان ينتهي كل شيء بيننا بمثل هذه السرعة !

وسألها وهو يجذبها الى صدره : — ولماذا تريدين ان ينتهي كل شيء هكذا سريعاً ؟

— لأني قد اكتهلت . ولأن آنيت تشبهني يوم كنت في ريق الشباب . يوم عرفتني واحببتني .

وكان عليه هذه المرة ان يمد يده ليسكت فمها المتألم قائلاً :

— مرة اخرى ! ارجوك . لاتتكلمي في هذا الموضوع . اقسم لك انك واهمة ...

ورددت : — على ان تظل تحبني ولو قليلاً . انا ..

واعاد : — اجل اني احبك .

واقاما مدة طويلة لا ينبثان ، ايديهما متعانقة ونفساهما مفعمتان شعوراً طاغياً مريراً ...

واخيراً قطعت حبل الصمت قائلة : — آه لن يكـون ما تبقى لي من حياتي سعيداً . .

— ساجتهد في اغداق السعادة على الايام الباقية .

وكان ظل قاتم يفعم الجو ، كظل سماء غائمة بعد انقضاء ساعة الشفق . وتكاثف هذا الظل حتى غلف الكون في مساء الخريف ذاك .

وتعالت دقات ساعة . . فقالت : لقد طال بنا المكوث هنـا . وقد آن لهم ان يعودوا . فعليك ان تذهب فنحن لسنا في حالة طبيعية لما نحن فيه من اضطراب .

ونهض . وكما كان يفعل في المـاضي ، طبع على ثغرهـا نصف المفتوح قبلة حارة ثم عبرا الصالونين متعانقي الاذرع كما لو كانا زوجين

— وداعاً يا صديقي — وداعاً يا صديقتي .

واغلق الباب خلفه .

وهبط السلم وسار في شارع المادلين . وراح يمشي دون وجهة معينة . واحس ساقيه تخذلانه . وقلبه خافقا حارا كأن في صدره جمرة متقدة لاهبة . واستمر في سيره وقتا طويلا جداً . ثلاث ساعات او اربع ... وأخيراً لم يعد له من القوة ما يساعده على نقل قدميه فعاد الى بيته ليفكر :

انه يحب هذه الفتاة . . بلى لقد احبها منذ نزهتها في حديقـة مونسو . . يوم ادرك ان صوتها يحمل اليه اريج حب لم تكن قدخبت جذوته تماما في فؤادة .

وما تراه فاعلاً ؟ وما تراه يستطيع فعله ؟ فما ان تتزوج حتى يجتنب لقاءها . هذا كل شيء . وبانتظار ذلك سيتابع زياراتـه للمنزل كي لا يجلب الشكوك اذا فعل غير ما اعتاده ، وسيستمر في اخفاء سره عن كل مخلوق .

وتعشى وحده كما لم يفعل من قبل ، وامر خادمه ان يشعل له المدفأة لأن الليل كان مثلجاً كما امر ان تشعل الثريا الكبرى في مرسمه لانه كان يخشى الظلام ! يا للشعور الغريب المخيف ! يا للالام النفسية والجسمية التي اجتاحته !

وراح يستعرض شريط حياته : ان كل ما يراه في بيته يذكره بحياته كلها كفنان وكرجل . هذه اللوحات التي تذكره بنجاحه في

مضمار الفن .. وهذه الاشياء التي تذكره بحبه امرأة واحدة طوال حياته .. تلك الحياة القصيرة المليئة بالفراغ ...

غير ان حبا آخر تسرب الى سويداء قلبه رغماً عنه . واستوطن ثمة ولم يعد بمقدوره اقتلاع جذوره . حب آخر ؟! كلا انه حبه الاول حبه للمرأة الوحيدة . ولكن جاء محمولاً فوق وجه جديد فتي ...

انه يحبها ! لم يعد مجال للنكران او للدفاع .. يحبها ؟ وهي ؟ أتحبه ؟ لاريب في انها ابعد ما تكون عن مثل هذه الفكر . هي ؟ ولكنها ستتزوج قريبا . وادرك ان لا حول له ولا قوة .. فهو مقيد مسير ، مشدود بسلاسل غلاظ كتلك الكلاب المربوطة الى بيوتها .

وحاول ان يغرق آلامه بذكريات حبه الماضي . باويقات اللذة والانطلاق يوم كانت حبيبته شابه حسناء .. وجه امها الفتى . الواقع ان الام قد اختفت الى الابد تاركة مكانها لابنتها ... اختفت من قلبه لتحل فيه آنيت بشعرها اللامع وابتسامتها الهازئه ومحياها الساحر ...

لقد امتلكته هذه الفتاة كما تمتلك الامواج سفينة غارقة !

وشاء ان يتخلص من هذه التخيلات المريرة فقصد غرفته وفتح درجاً رقدت فيه كل رسائل عشيقته اليه كما يرقد الجسد في نعشه .. وقد اصابعه خلال الرسائل المصفرة التي تنطوي على قصة حب . قصة حياة قلبين ..

وحاول ان يقرأه بعضها فاستخرج من اعماق الجرار قبضة من اقدم الرسائل وراح يقلبها والذكريات تتواثب من بين طياتها مزدحمة متدافعة فتحرك اعماق شعوره فهذه الرسالة تصف له فيها كيف بكت تحت قدميه يوماً لان الغيرة قد ادركتها وهذه اخرى تصور خلجات قلبها وقد فتحته له على مصراعيه يقرأ فيه عواطف حبها كما في كتاب مفتوح . وغيرها وغيرها كثير وكلها تصف مرحلة من مراحل ذلك الحب الذي عمر طويلاً .. ووجد ، لشدة دهشته ، ان كل هذا الحب القديم قد اختمر في اعماق قلبه مكتسبا حيوية جديدة كأن نفسا جديداً حاراً قد جرى فيه ، وخلال كل ذلك يبرز وجه آنيت ، واضحا صريحا ... لقد احب الام ، فاستعبده حبه ، وها هو يجد نفسه امام حب الابنة مستعبداً بل رقيقاً قناً ... وحاول ان يدرك كيف ولماذا سيطرت عليه الصغيرة مثل هذه السيطرة ؟ كيف قيض لها امتلاك ناصية عواطفه بابتسامة بريئة وبخطرات خصلات شعرها المتطاير ... آه ان ابتسامات هذه البنية وخصلات شعرها الشقراء لتدفعه الى الجثو على ركبتيه وتعفير جبهته في الرغام ...

انه لما يدق على الافهام كيف ان وجه امرأة يفعل فينا فعل الدم الزعاف ؟ سما كأننا نعب منه باعيننا .. فاذا بنا نثمل ، بل نجف ، وربما اندفعنا في سكرنا وجنونا حتى الموت ...

وكان اوليفيه قد عاد يذرع غرفته ، وكان الليل قد تقدم ، وناره قد خبا اوارها ، فأوى الى سريره واستمر في افكاره المؤلمة تلك حتى انبثاق الصباح ...

ونهض مبكراً دون ان يعرف لذلك دافعاً ، فما تراه فاعلاً ؟ كان متردداً ، مضطرباً ، كريشة في مهب ريح زعزع . وراح يفكر بطريقة يروح فيها عن نفسه ويهدئ ثائر اعصابه ، وتذكر ان رفاقه في النادي يجتمعون في مثل هذا اليوم من كل اسبوع ليقصدوا المسبح حيث يتناولون غداءهم بعد الاستحمام . وسرعان ما ارتدى ثيابه وخرج آملاً ان السباحة قد تخفف من توتر اعصابه وتقلل من ثورة نفسه .

وما ان وضع قدمه خارجاً حتى احس برداً شديداً ينفذ حتى عظامه ، هذا البرد الذي يأتي ليطرد ماقد يكون تبقى من اثار الصيف في الطبيعة ، وعلى طول الشارع كانت الاوراق المصفرة ، تنتثر فوق الارصفة كأنها مطر غذير مدرار . وكان هذا السيل من موات الاوراق قد كسا الارصفة بطبقة صفراء كثيفة تخش تحت الاقدام خشيشا ثم تحملها هبات الريح فتسير بها كأنها موجة طاغية من فناء واضمحلال ...

كان هذا اليوم من تلك الايام التي تحدد نهاية فصل وبداية

فصل آخر . . من تلك الايام التي تحمل معانياً فريـدة في كآبتها وآثارتها لكوا من الاحزان ...

وبلغ الحمام فاسرع يخلع ثيابه ويرتدي لباس الاستحمام ثم قاده خادم زنجي متين البنيان الى غرفة الاستحمام حيث تهب نفحات ساخنة من ابخرة المياه الحارة المتدفقة . واول من التقى بـه من صحبه كان الكونت دي لاندا فبادره هذا الاخير قائلا : ـ اسعدت صباحا يا بر تان وتصافحا . ثم تابع لاندا : ـ ان الطقس بارد . والاستحمام طيب

ـ اجل . انه رائع .

ـ الم ترَ روكديان ؟ انه هناك . ها هو آت :

وكان روكديان يتجه نحوهما وقد لمح الرسام .

وجلسوا حول مائدة رخامية وراحوا يتحدثون كأنهم في صالون

وفي كل لحظة كان يصل احد الرفاق فيحيي الثلاثة او يدنو ليصافحهم .

وهتف روكديان فجأة : ـ انظر . هو ذا دي فاراندال .

وكان المركيز يتقدم ويداه الى خاصرتيه ، سائراً بثقة رجل لا يزعجه شيء .

وتمتم لاندا : ـ انه لاعب سيف ماهر ! هذا غلام !

وعاد روكديان يقول : اصحيح انه سيتزوج ابنة اصدقائك .

فاجاب برتان : ـ اظن ذلك .

ولكن هذا السؤال ، في مثل هذا الموقف ، وامام هذا الرجل ، قد ولد في قلب اوليفيه انقباضاً شديداً وثورة ويأساً . فقد برزت امامه الحقيقة السافرة القبيحة المنتظرة . حتى لقد راح يقاوم في نفسه رغبة حيوانية في ان يثب على المركيز . ثم نهض قائلاً : ـ اني احس تعباً وسآخذ حمامي سريعاً .

ومر بهم خادم مغربي فناداه برتان :

ـ ألست مشغولاً يا احمد ؟

ـ كلا ايها السيد برتان

فنهض وتبعه متحاشياً الاستضام بفارندال الذي كان يقوم بجولة حول باحة الحمام .

ولم يقم في غرفة الاستحمام اكثر من ربع ساعة . ووجد نفسه مرة اخرى في الشارع تحت الاوراق الصفراء المتطايرة . وفكر برتان . ماذا سيحدث لي ؟ ماترانى فاعلا ؟ الى اين اقصد ؟ . وعاد ادراجه الى البيت دون ان يخرج بنتيجة ما . ولفت انظاره كشك لبيع الصحف ، فابتاع سبع جرائد او ثمانياً آملاً ان يجد فيها مايشغله عن نفسه ساعات .

وقال لخادمه : سأتغدى هنا .

وصعد الى مرسمه .

ولكنه ادرك لدى جلوسه انه لن يستطيع بقاءً فهو يحس في جسده سعيراً هائلاً كأنه حيوان مسعور .

ولم تقوَ الصحف على الترويح عنه دقيقة واحدة . فكان مايقرأه لايتجاوز انظاره لينفذ الى عقله . وكان يطالع مقالاً دون ان يحاول فهمه . ووجد نفسه ينتفض بعنف لدى وقوع عينه على كلمة (غيروا) . . . وكان المقال يتحدث عن حفلة افتتاح الندوة النيابية حيث القى النائب غيروا خطبة .

وكأن هذه الانتفاضة قد ايقظت عقله الغافي فقرأ ان الموسيقي الكبير مونتروزي سيقدم في نهاية كانون الاول حفلة موسيقية رائعة اذ انه قد غادر باريس منذ ستة اعوام لاقى خلالها في معظم عواصم اوروبا واميركا نجاحا منقطع النظير . فضلا عن انه سيكون مصحوبا بالمغنية الشهيرة السويدية هيلسون والتي لم تكن باريس قد سمعت شدوها منذ خمسة اعوام .

والتمعت في عقل اوليفيه فكرة : يجب ان يوفر لآنيت متعة حضور هذا الحفل الفريد . واجفل اذ تذكر ان الحداد قد يشكل حاجزاً صعبا اقتحامه في سبيل تحقيق فكرته . وبالرغم من ذلك لم

يدركه يأس . ثمة طريقة واحدة وهي ان يحجز مقصورة فوق المسرح مباشرة حيث لا يتاح لاحد رؤيتهم بوضوح . واذا لم تشأ الكونتس الحضور فسيصحب آنيت واباها والدوقة . وفي هذه الحالة لا بد للمركيز من الحضور .

وادركه التردد وفكر طويلاً ..

مما لا ريب فيه ان الزواج قد قرر بل ربما حدد موعده . فلم يغب عنه تسرع الكونتس في ذلك . فهي تبغي اعطاء ابنتها لفارندال باسرع وقت مستطاع . وهو ، برنان ، لن يستطيع شيئاً . هو لا يستطيع منع او تعديل ، او ارجاء ، ذلك الحدث المخيف ...

ولما كان لا بد مما ليس منه بد ، اليس من الافضل ان يكبت عواطفه ، ويخفي آلامه ؟

سيدعو المركيز اذاً . اوليس من الافضل ، وهو لا يستطيع شيئاً في سبيل الحيلولة دون الزواج ، ان يحتفظ لنفسه بصداقة الزوج العتيد كيما يتاح له باب ينفذ منه الى البيت ، بيت حبيبته آنيت !

وما ان تناول فطوره حتى اسرع الى الاوبيرا ليستوثق من موعد الحفلة وليحجز منذ الآن احدى المقصورات الخفية . وقد فعل . ثم اسرع الى بيت آل غيروا .

وسرعان ما استقبلته الكونتس وكانت ما تزال تحت تأثير فيض عواطفها مساء اليوم السابق .

وبادرته قائلة : ـ انه لطيف منك حضورك اليوم .

فقال : ـ إني احمل اليك شيئاً ما .

— وما هو ؟

— بطاقة لحفلة المغنية هيلسون والعازف العالمي مونتروزي .

— آه يا صديقى ، انه لأمر محزن انسيت حدادي .

— ان حدادك قد عمّر اربعة اشهر .

— اؤكد لك انه ليس بمقدوري ...

— وآنيت ؟ فكري ان مناسبة كهذه لا تسنح كل يوم .

— وبصحبة من ستذهب آنيت ؟

— مع ابيها والدوقة التي سأدعوها . وأميل الى دعوة المركيز كذلك .

ورنت اليه باعماق عينيها بيناً داخلتها رغبة عنيفه في عناقه كادت ان تنتقل الى شفتيها . ورددت وهي لا تكاد تعي ما سمعت اذناها :

— المركيز ؟

— اجل .

ووافقت فوراً على كل هذه الترتيبات .

وعاد يقول بلهجة عدم اكتراث .

— هل حدد تم موعد الزواج ؟

— كلا . يا الله . بل اجل . تقريباً . ولدينا من الاسباب ما يجعلنا نعجل موعده . اتذكر متى كنا قررناه قبل وفاة والدتي ؟

— اجل . ولكن الى اي تاريخ ؟

— اول كانون . واني لأعتذر منك اذ اننا لم نخطرك بذلك قبل الآن .

ودخلت آنيت . واحس قلبه يذب بين حناياه . وحدجها بنظرة تقطر مرارة . بمثل تلك النظرة التي تعبر عن حب مزقته سياط الغيرة واثخنت فيه . وقال لها :

— اني احمل اليك شيئا . .

— اراك عدت الى لهجتك الجدية معي . .

فاجاب بصوت ذي نبرة عطف ابوي :

— اسمعي يا صغيرتي . لقد احاطتني امك علما بالحدث المنتظر الذي تهيئون . وأؤكد لك ان مخاطبتي لك بمثل هـذه اللهجة امر مفروغ منه بعد زواجك . فلا أعتد عليه منذ الآن .

فهزت كتفيها بحركة استياء . بينما لزمت الكونتس الصمت وسألته آنيت : وماذا تحمل ؟

فاخبرها بالاحتفال وبالدعوه التي عزم عليها · فاستطارت فرحا وقد استخفها الطرب لدرجة ان وثبت بخفة الاطفال الى كتفه وطبعت على وجنتيه قبلتين ·

وشعر اعصابه تكاد تخذله تحت وطأة قبل هذا الثغر الندي ذي الارج الفواح ...

وانتفضت الكونتس وقالت :

— اتعلمين ان اباك ينتظرك .

— اجل · وها اني ذاهبة .

وانطلقت وهي تلقي الى الرسام قبلاً من اطراف اصابعها ...

وما اختفت حتى سأل اوليفيه :

— هل سيسافران ·

— اجل · ولثلاثة اشهر ·

وتمتم رغما عنه : — حسنا يفعلان ·

— وسنعود نحن الى حياتنا الاولى ...

فعاد يتمتم : — اظن ذلك .

— وليس معنى ذلك ان تهملني بانتظار ذلك ·

— كلا يا صديقتي ·

ان تصرفه امس عندما بكت بين يديه ، ومجيئه لدعوة المركيز هذا اليوم ، اعاد للكونتس شيئاً من الامل الذاوي ...

ولم يطل بها الامر كثيراً ، فقد عادت تقرأ على وجه عشيقها آلامه المبرحة ، بكثير من الغيرة المرة . . وهي لا تستطيع التعامي عن شيء . فذلك اوضح من ان تتغاضى عنه عين . و كل ما وقعت عيناها على آنيت ادركت انها لن تستطيع شيئاً في سبيل وقف ذلك التيار الجارف العنيف ...

وبدأ كل شيء يحط عليها ليسحق شبابها سحقاً . كر السنين وهذا السواد الفارقة فيه. لا شك في ان فتنتها الطاغية التي كانت كافية لتسوق اليها الظفر بحبيبها دائماً قد ادركها الاضمحلال ...

وها هي تلمس ان كل الاشياء المحببة التي تضفي على الحياة معاني الجدة والاستمرار والرواء ،ان كل هذه الاشياء تفر منها فراراً لسبب واحد .هو ان الهرم او شك ان ينقلها الى زوايا النسيان والاهمال لقد انتهى كل شيء بالنسبة اليها ... وبالرغم من كل ذلك فهي ماتزال تشعر في قلبها عواطف شابة خضلة العود او امرأة فتية وثابة الى الحياة لم يهرم فيها سوى جسمها . بشرتها الملمسة تغضنت . هذا الغطاء الحريري الذي كان يغلف عظامها ها قد تخلق كما يتخلق غطاء الاثاث فوق الخشب . امّا قلبها . . قلبها فمازال خفاقا نشيطا متدفقا حباً وحنواً وحرارة ...

ولكثرة ما عذبت هذه الافكار نفسها .. انقلبت الى الم جسماني حقيقي ينخر جسدها ويهد كيانه هداً مروعاً ...

- ٦ -

لم يكن يتردد في باريس سوى اسمين : اءا هلسن وموتتروزى وبقدر ما كان المرء يدنو من الاوبرا بقـدر ما كان هذان الاسمان يصكان مسامعه . بينما كانت اعلانات ضخمة تحمل اسم الفنانين منشورة على اعمدة الاوبرا وفي زاوية كل شارع .

وكنت تشاهد على جانبي الشارع المفضي الى الاوبرا ذات البناء الضخم الحرس الجمهوري فـوق جيادهم ينظمون حركة السير والوف العربات قد تقاطرت من جميع نواحي باريس تطل منها ، خلال النوافذ المفتوحه ، رؤوس غارقة بفـاخر الثياب . ثم كانت كل عربة تتوقف امام المدخل الرئيسي ليهبط ركابها ثم يبتلعهم الدهليز الواسـع المفضي الى الصالات الفساح .

وعلى طول الدرج الفخم كان سيل لا ينقطع من سيدات غارقات في الفراء ورجال في ثياب السهرة السوداء . .

وفي اللوج الواقع فوق المسرح كانت تجلس الدوقـة وآنيت

والكونت والمركيز وبرتان وقد لحق بهم ميزاديو . وكانت الضجة تعلو من وراء الستار المسدل ، ضجة عميقة مبهمة تنم عن اشخاص في نشاط دائب . وكانت الانظار متجهة الى ذلك الستار كأنها تحاول اختراقه والنفاذ الى ما ورائه .

ان الستار سيرفع عن رواية (فوستا)

وراح ميزاديو يحدثهم عن الحفلة التي اقيمت قبل ذلك في (التياتر ليريك) وما لاقت من نجاح منقطع النظير .

وكانت آنيت تصغي اليه بنهم صبياني بينا ترشق خطيبها ، ذلك الذي سيصبح زوجها ، بين الفينة والاخرى بنظرة تقطر حنواً . . . انها تحبه الآن ، تحبه كما تحب القلوب الساذجة ، تحبه لأنها تجد فيه كل آمال غدها المأمول . . .

ان اولى نشوات الحياة ، ورغبتها المنيفة في ان تنال السعادة كانتا تحركان قلبها بالحنو والانتظار . . انتظار ولوج باب الحياة السري

امّا اوليفيه فكان واقفاً في المقصورة ينظر كل ما يجري ، ويدرك كل هذه البواعث . لقد هبط درجات سلم الحب المكبوت وقد بلغ بهبوطه الى ذلك الاتون الذي يصهر القلب البشري كما تصهر نار حامية لحماً يشوى فوقها . كان ينظر الى الخطيبين نظرة فيها غيرة مريرة وفيها ضراعة متخاذلة . . .

وقرع المسرع ثلاثاً .. وارتفع الستار عن الفرقة الموسيقية ، وبعد فترة قصيرة من صمت عميق رفع العازفون اقواسهم وتماوجت في الجو انغام بالغه الروعه نفذت من السامعين حتى الاعماق ...

وجلس اوليفيه في طرف اللوج ، وقد عضه اللالم والحزن كما لوكانت جراح قلبه قد نكأتها هذه الالحان البالغة حد الروعة والجمال

وكان الجمهور يصغي الى العزف الفريد بانتباه صارم ، وتذوق صادق . وراح اوليفيه يصغي كما يصغي الجميع وكان لكثرة ما استمع الي هذه الاوبرا قد حفظها عن ظهر قلب ومع ذلك انطلق يصيخ باسماعه واجداً فيها كل مرة متعة جديدة .لقد قرأ هذه المسرحية الشعرية قبل اليوم ، وتذوق فيها فن (غوته) وتلك الافكار التي حاول وضعها في قلب بطاله (فوستا) .. ولم يكن قد تأثر بها قبل الآن ... امّا هذه المرة فخيل اليه ان الاقوال والانغام تمس من قلبه وترأشديد الحساسية .. ذلك انه تصور نفسه ،هذا المساء ،انه هو الآخر(فوستا)

كانت آنيت منحنية قليلاً على مسند المقصورة منصرفة بكل قوتها وكانت تمتمات اعجاب قد بدأت تنفلت من شفاه السامعين ذلك ان صوت مونتروزي كان ابلغ وقعاً منه في جميع الاوقات ...

واغمض برتان عينيه . فمنذ شهرين اصبح لا يرى شيئاً ولا يسمع بشيء الا ويقارن حالاً بين احساسات الاشخاص واحساساته

ويجد دائماً شبهاً غريباً بين عذاب الآخرين وعذابه الذي يصلى بناره منذ عرف قلبه هـذا الحب الغريب ... حب شخص مزدوج .. الام والابنة .

وها هو الآن يصغي بجماع نفسه الى صدى تضرع فوستا وقـد برزت فكرة الموت في اعماق نفسه . تلك الفكرة التي تقوى دون سواها على وضع حد نهائي لكل ما ينتابه من آلام ممزقة ، وكل ما يحسه من بؤس في حبه الشقي .

وتطلع صوب آنيت بهيكلها الدقيق فوجدها مستندة الى مقعدها ومن ورائها خطيبها يتأملها كذلك . وادرك انه شاخ ، وانتهى ! فما تراه ينتظر ؟ ما تراه يأمل ؟ اما بقي له حق في ان يترجى شيئا .. لقد قلبت له الحياة ظهر المجن ، فالقت به من حالق .. كأنه موظف احيل فجأة على التقاعد فلم يعد له ما يعمل .. يا للعذاب المريع ! .

وعصف التصفيق يهز جدران الصالة الكبرى . لقد انتهى مونتروزي ، وكان انتصاره رائعا . وبرزت من وراء الستار المغنية (لا باريير) ولم يكن اوليفيه قد سمعها من قبل ، فاستفاق من استرساله مع احلامه المريرة وصفعت اذنه جملة يقولها فوستا (لابليت) : اريد كنزاً يضم كل اطاييب الحياة ومسراتها ، اريد الشباب ! واعاد اوليفيه هذه العبارة بين اسنانه . وانشدها بالم بالغ في اعمـاق نفسه ، وكانت

عيناه عالقتان بعنق آنيت الابيض الاتلع ، فادركته كل معـاني تلك العبارة المرة المريعة .

وهبط الستار وعاد فارتفع وقد ضجت الصالة بالتصفيق ، ليتاح لقائد الفرقة تحية الجمهور ، وكانت آنيت والدوقة تصفقان بحرارة وقد استمرتا بعد انتهاء كل المصفقين ، وكأن حركتهما هذه قد لفتت انظار مونتروزي الذي حياهما تحية خاصة . قالت آنيت :

— لقد رآنا فهتفت الدوقة :

— يا له من فنان عظيم !

وراحوا يتحدثون عنه ، لاريب في ان نجاحه يفوق مواهبه . ولكن مما لاريب فيه انه قد لاقى في كل العواصم نجاحا

— لم يسبق له مثيل حتى لقد كانت النساء يشعرن بقلوبهن تنفطر لدى وقوع انظارهن عليه . وعقبت الدوقة .

— ومن ناحية ثانية .. كيف يمكن مقاومة سحر صوته الطاغي .

وحنق اوليفيه ، ولم يدرك كيف يمكن الاعجاب بمثل هذا العرض المردد لنموذج من البشر لايتغير . فاين الفن . والعبقرية في اعادة مشهد واحد سنين عديدة ؟

واجابته الدوقة : ـ لاريب في انك تحس حسداً منه . انكم انتم

الرسامين تحقدون على الممثلين لأنهم يفوقونكم نجاحاً . ثم استدارت نحو آنيت وقالت :

— الا قولي ، انت التي ستدخلين الحياة قريبـا ، ان لك عينين بريئتين ونظرة ما تزال طاهرة ، قولي الم يعجبك هذا الفنان ؟

فاجابت آنيت بصوت مقتنع : ـ وكيف لا . اني اجده عظيما جـداً .

وقرعت الضربات الثلاث معلنة بدء الفصل الثاني :

وكان دور هيلسن رائعاً حقاً : فان صوتهـا قد تحسن كثيراً واكتسبت ، لطول المران ، نعومة رائعة جعلتها تستحق تلك الشهرة الطائرة التي لا تعادلها الا شهرة بسمارك ودي ليسبس من عظماء الاحياء وانطلق فوستا اليها وخاطبها بعبارات عابقة بالاغراء :

الا تسمحين لي ايتها الآنسة الجميلة

ان اقدم لك ذراعي ، لأسير في الطريق

وما ان اجابته مرغريت الجميلة الشقراء الرشيقة ، والتي تقوم بدورها هيلسن : ،

كلا يا سيدي ، فانا لست آنسة ولست جميلة

ولست بحاجة الى يد تقدم الي ..

ما ان اجابته بهذا القول حتى عاد التصفيق يكاد يقوض اركان الصالة ...

ولما هبط الستار كان الهتاف يعلو والتصفيق يتزايد حتى ان آنيت انطلقت تصفق بحرارة جعلت برتان يكاد يجذبها ليمنعها عن متابعة التصفيق . كان قلبه مفعماً بألم جديد . فلاذ بالصمت خلال فترة الاستراحة . وكان الفصل الثالث والاخير .

وظل برتان حتى نهاية التمثيل لائذاً بالصمت المطبق ، وقد انشبت تلك الافكار برائنها في سويداء فؤاده .

وما هدأت ضجة الاستحسان والاعجاب حتى قدم ذراعه للدوقة بينما تناول المركيز ذراع آنيت وهبط الجميع السلم بين امواج من رجال ونساء . وصعد الكونت والدوقة والمركيز وآنيت الى عربتهم بعد ان ودعوا برتان الذي بقي هو وميزاديو في باحة الاوبرا

وشعر فجأة نحو ميزاديو بمثل مايشعر الغريب اذا التقى باحد ابناء وطنه . فهذا هو الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يحدثه عنها .

وتناول ذراعه وقال : ــ الطقس جميل . فما رأيك بنزهة قبل النوم .

ــ لا بأس .

وانطلقا نحو المادلين . كان الف موضوع في رأس ميزاديو . فراح يحدث صديقه بها بطلاقة واندفاع .

وكان ميزاديو ما يزال في انطلاقه بالحديث عن التمثيلية والحفلة الموسيقية عندما سأله برتان :

— لقد كانت آنيت رائعة هذا المساء ؟

— اجل كانت بالغة حد الفتنة .

وتابع الرسام كي لا يتيح لرفيقه استعادة الحديث المقطوع :

— انها اجمل مما كانت عليه امها .

فاجابه ميزاديو بلهجة غير ارادية : ـ أجل . اجل . أجل .

وتابع برتان : ـ سيكون لها بعد زواجها صالون كأحسن صالونات باريس .

وكانت هذه الملاحظة كافية لاجتذاب انتباه ميزاديو الرجل الاجتماعي ومراقب الفنون الجميلة : فاندفع يصف لرفيقه مركز المركيز دي فارندال في المجتمع الباريسي .

واصغى اليه برتان وهو يتخيل آنيت في صالون مشعشع الانوار بين حشد من رجال معجبين ونساء جميلات وهذه الرؤيا ايضا اوقدت في قلبه جذوة الغيرة .

وكانا قد بلغا شارع مالرب ومرّا ببيت غيروا ورفع الرسام عينيه فرأى النوافذ تبعث منها الاضواء وادركه شك في ان الدوقة وابن اخيها يتناولان العشاء لدى آل غيروا . وعصف في اعماقه غضب

جملة يغلي كالمرجل ... ولما بلغا بيت برتان . قال برتان : ادخل .

— كلاً شكراً . الوقت متأخر . اريد ان آوي الى فراشي .

— تعال نقضي نصف ساعة اخرى في الثرثرة .

— كلاً . الواقع ان الليل قد تقدم .

كانت فكرة بقائه وحيداً بعد هذه الصدمات العاطفية التي مني بها تريعه وتبعث فيه قشعريرة . انه يريد احداً يبعد الوحشة عنه . وعاد يقول لرفيقه :

— اصعد . اريد ان اقدم لك لوحة . تعال انتخب مايعجبك .

وادرك ميزاديو ان الفرصة سانحة للظفر باحدى لوحات الفنان الكبير فلم يشأ ان يضيع السانحة . وهو بصفته مراقب الفنون الجميلة ، قد اقتنى مجموعة بديعة لا بأس بان تضاف اليها احدى لوحات برتان .

— حسناً اني اتبعك .

وقدم لهما الخادم الذي استيقظ شيئاً من شراب ثم جاء برتان. بلوحات عدة عرضها على ميزاديو عله يختار ما يعجبه منها . وبعد مفاضلة طويلة اختار اخيراً لوحة تمثل فتيات صغيرات يرقصن فوق الجبل وشاء ان ينصرف حال حصوله على الهدية . وقال برتان

— سأرسلها اليك

— كلاً افضل ان احصل عليها هذا المساء لا تمتع بها قبل ان ارقد

ولم يقو شيء على امساكه . وها هو الرسام يجـد نفسه من جديد حبيس هذا البيت العابق بذكرياته المريرة .

ودخل خادمـه في الصباح يحمل اليه الشاي وبعض الصحف اليومية فوجده ما زال في مقعده . فسأل :

— لعل سيدي على خير ما يرام ؟

— لا شيء . انها وعكة بسيطة .

— الا يبغي سيدي شيئاً ؟

— كلاً . كيف الطقس ؟

— انه ممطر يا سيدي .

— حسناً هذا يكفي .

فوضع الرجل الشاي والصحف على الطاولة الصغيرة وخرج .

وتناول اوليفيه صحيفة (الفيغارو) . وكان في رأس الصفحة الاولى مقال بعنوان « الرسم المصري »

ولم يكن المقال سوى مدح وتقريظ لثلاثة او اربعة من الرسامين المحدثين الذي لم تكن لهم سوى موهبة تشبه موهبة (الدهانين) ومع ذلك زعموا انهم يحدثون في عالم الرسم ثورة جديدة .

وككل الرسامين الكبار ، غضب اوليفيه ، لدى قراءتها

مثل هذا المديح ويغدق على هؤلاء القادمين الجدد الذين يزعمون خلق مدرسة جديدة لعصر جديد .

وتضاعف غضبه عندما لمح في مكان آخر من المقال جملة كان وقعها عليه كوقع النبل في غلس الظلام :

« لقد غدا فن اوليفية برنان فناً قديماً لا يوافق الذوق المصري ... »

كان دائماً برماً بالنقد ، شديد السرور بالتقريظ . غير انه شعر هذه المرة ، في اعماق ضميره ، بوخذ مريع لهذا التحدي السافر . فقد اعتاد ، ايام مجده ، ان يتلقى حرق البخور امامه بغبطة فائقة تنسيه بعض الغمزات التي توجه اليه . اما اليوم ، فها طبقة جديدة من الفنانين تبرز الى الوجود ، وها الثناء ينهمر عليها انهماراً ، اما هو ، الفنان الشيخ فلم يعد من يذكره الا ليعرض بعبقريته وفنه ...

لقد وجد نفسه في فيلق من صغار الفنانين المحدثين الذين لا يعترفون له بسبقه وبعلو كعبه . وهذا ما جعله يتعذب عذاباً اليماً لم يكن ليحسه لو هاجموه هجوماً سافراً .

لم تكن الطعنات ابداً لتثخن كبرياءه كفنان كما تفعل الآن . وعاد يقرأ المقال ويستوعب كل كلمة فيه واستخلص منه ان الكاتب حاول القاءه مع غيره من كبار الفنانين في سلة المهملات ... ونهض

وهو يقضم شفتيه غيظاً ويردد :

« اصحيح ان فن اوليفيه برتان لم يعد من ذوق العصر ؟ ان هذا الشيء مؤلم حقاً . افلا يكفيه اخفاقه في حبه كرجل، حتى يأتي من ينعى اليه فنه ، فكره ، عصارة روحه ... لقد اسقط في يده . .

وبقي حتى الساعة الثانية في كرسيه ، وقد مد نحو المدفأة ساقيه ، وقد فقد كل قوة فلا يستطيع حراكاً ...

وتحركت فيه الرغبة في الترويح عن نفسه ، رغبة في ضغط ايد مخلصة ، والنظر في عيون موالية ، وسماع كلمات مشفقة ، وهدهدة صوت حنون . فنهض وذهب ، كما اعتاد ان يفعل ، قاصداً الكونتس .

ودخل فوجد آنيت واقفة وقد ادارت الى الباب ظهرها وراحت تكتب بسرعة عنواناً على ظرف ، وكانت فوق طاولة بالقرب منها جريدة « الفيغارو » . ووقع نظر برتان على الصحيفة في نفس الوقت فتسمر في مكانه لا يتقدم . واستدارت اليه ، منشغلة ، مضطربة الفكر وقالت معتذرة :

— نعم مساء يا سيدي الرسام . انك تعذرني فاني سأتركك . ان الخياطة بحاجة الي في الطابق الاعلى . انت تدرك اهمية الخياطة ليلة العرس . سأرسل اليك بامي ، التي تستطيع ان تحادثك كفنان واذا

ما احتجت اليها ناديتها الي . وانطلقت راكضة ...

ان هذا الانطلاق المفاجئ، دون كلمة وداد او نظرة حنو منها .. هي التي يحبها ... يحبها بجنون . هذا العمل تركه بالغ الاضطراب ... وعادت عينه تقع من جديد على «الفيغارو» وفكر: لقد قرأته ! انهم يهزؤن بي ، انهم يستهينون بفني ! لم اعد بالنسبة اليها شيئا مذكوراً !

وتقدم خطوتين نحو الصحيفة كما يتقدم المرء نحو رجل يريد صفعه ثم عاد يقول لنفسه : لعلها لم تقرأه . انها شديدة الانشغال هذا اليوم . ولا بد ان يتحدثوا بالموضوع هذا المساء بعد العشاء وستحس رغبة في قراءة المقال . »

وبحركة آلية ، دون اي تفكير ، تناول الصحيفه واغلقها وطواها واخفاها في جيبه بحذر كحذر السارق .

ودخلت الكونتس وما رأته مصفر الوجه لاهث الانفاس حتى ادركت انه يتألم ألما بالغاً .

وتقدمت نحوه ، تقدمت بكل نفسها الممزقة هي الاخرى . وبكل جسدها المعذب ايضا . والقت بيديها على كتفيه ونظرت في اعماق عينيه وقالت : آه كم انت تعيس !

ولم ينكر هذه المرة وتمتم والعبرات تخنق صوته :..

– أجل . أجل . أجل .

وشعرت به يكاد ينتحت . فسارت به الى زاوية الصالون الاشد اظلاما واجا متة وجاست فكانا فوق كرسيين متقاربين وراء ستار من حرير قديم . جلسا وراء هذا الجدار الحريري المطرز بالوشي في ظلال يوم ممطر من ايام الشتاء .

وعادت تقول ثائرة الاعصاب موجهة اليه اللوم :

– يا اوليفيه المسكين ! كم تتألم !

والقى برأسه الابيض فوق كتف حبيبته :

– اكثر مما تستطيعين التصور .

فتمتمت حزينة : – آه . اعرف ذلك . لقد ادركت كل شيء لقد رافقت عاطفتك تنبت وتنمو ثم تكبر .

فاجاب ، وكأنها توجه اليه اتهاما : – ليس ذلك ذنبي يا آني !

– اعرف جيداً . انا لا الومك انت .

وبلطف دنت بوجهها من وجهه وطبعت قبلة على احدى عينيه فوجدت فيها دمعة مرّة . .

وانتفضت كأنها تذوقت قطرة يأس محرقـة وراحت تردد مرات متتابعة : – آه ياصديقي المسكين . . ياصديقي المسكين .

ثم اضافت بعد لحظة صمت : ـ انه ذنب قلبينا الذين لم يهرما ... اني احس ايضاً في قلبي حرارة وشباباً ...

وحاولت ان تتكلم فلم تفلح لأن العبرات كانت تخنقها . وكانت تصغي الى اختلاج صدره فوق صدرها ...

ثم عاودتها انانية الحب التي كانت منذ امد طويل تنهش صدرها نهشاً وبلهجة جارحة ناجمة عن الم هائل :

— يا الهي . كم تحبها !

واعترف مرة اخرى : ـ اجل . ان حبي لهم لعظيم !

وفكرت لحظة ثم قالت : ـ انك لم تحبني انا مثل هذا الحب ابداً!

ولم ينكر لأنه كان يجتاز احدى تلك الساعات التي لا يخفى فيها المرء شيئاً من الحقيقة وتمتم :

— كلاً . فقد كنت آنذاك صغير السن .

ودهشت : ـ صغير السن ؟ وكيف ذلك ؟

— لأن الحياة كانت هينة لينة . ففي مثل سننا يحب المرء حبه المنيف الميؤس .

وسألته : ـ ايشبه ما تحسه نحوها ما كنت تشعر به نحوي ؟

— نعم . ولا . ومع ذلك فيكاد الامر لا يختلف . لقد احببتك كما يستطيع رجل ان يحب امرأة . اما هي فاحبها كما احببتك لأني احبك

فيها ! غير ان حبي لها قوي عنيف لا يقاوم . انه جارف مخرب . انـه اقوى من الموت . انها قد امتلكتني كما تمتلك النار بيتاً يحترق ...

وشعرت بشفقتها تجف تحت وهج الغيرة اللاهبة .. وقالت بصوت معز :

ـ يا صديقي المسكين .. لن تمر ايام قلائـل حتى تتزوج وتمضي في سبيلها المخطوط . ولا ريب في انك ستشفى سريعاً اذ انك لن تراها بعد ذلك ابداً ...

وهزّ راسه وقال : ـ آه . اني رجل مضيَّع ... مضيَّع

ـ ولكن لا . لا .ستمرا شهر ثلاثة دون ان تراها . الا يكفي ذلك لتنساها . الم تكفك ثلاثة اشهر لتحبها اكثر مما احببتني خلال اثني عشر عاماً !

وحينئذ تضرع اليها وهو يكاد يذوب وجداً : آه لا تهجريني انت الاخرى !

ـ وما استطيع ان اعمل في سبيلك .

ـ لا تتركيني وحيداً.

ـ سأزورك قدر ما تشاء .

ـ كلا احتفظي بي لديك قدر ما تستطيعين .

ـ لتكون قريباً منها .

– وقريباً منك .

– يجب الاّ تقع انظارك عليها قبل زواجها .

– آه ! يا آني .

– او اقل ما يمكن .

– او استطيع البقاء هنا هذا المساء ؟

كلاً . ليس على مثل الحال التي انت فيها . يجب ان تروح عن نفسك . اذهب الى النادي . اقصد المسرح . . اذهب انى تشاء شرط الاّ تبقى هنا .

– ارجوك .

– كلاّ يا اوليفيه . هذا مستحيل . ومن ثم سيتمشى عندنا اناس وجودهم يسيؤك .

– الدوقة ؟ و . . ؟

– اجل .

– الم امض سهرة امس معهم ؟

– دعنا من ذلك . ان نفسك على حال غير حسنة هذا اليوم ؟

– اعدك ان اكون هادئاً .

– كلاّ هذا مستحيل .

– اذن انا ذاهب .

— ما الذي يعجل رحيلك هكذا ؟

— اني بحاجة الى المشي .

— اصبت . امشِ كثيراً ، حتى يرهقك التعب فتنام جيداً .

ونهض : ـ وداعاً يا آني .

— وداعا يا صديقي العزيز . سأمر بك غداً صباحا . اتريد ان ارتكب حماقة كبيرة كما كنت افعل في الماضي اذ اتغدى هنا ظهراً ثم آتيك لأتغدى معك في الواحدة والربع ؟

— اجل . كم اتمنى ذلك . انك صديقتي .

— ذلك اني احبك .

— وانا كذلك احبك .

— آه . دعنا من هذا .

— وداعاً يا آني .

— وداعاً يا صديقي العزيز . الى الغد .

— وداعاً .

وقبل يديها الواحدة تلو الاخرى . ثم قبل عنقها واخيراً زاوية شفتيها . ورافقته حتى الباب وقبل ان يخرج تناولها بين يديه وجذبها الى صدره بكل قوة واطبق بشفتيه فوق جبينها وراح يغدق عليها القبل كأنه يعب كل ما تبقى من حبه الماضي ..

وانطلق سريعاً .. دون ان يلوي على شيء ...

وما وجدت نفسها وحيدة حتى القت بجسدها فوق مقعد وراحت تنشج . ولو لم تأت آنيت فجأة تستدعيها لبقيت هكذا حتى هبوط الليل .

ولم يتاح للكونتس تخفيف دموعها المنسكبة اجابت ابنتها :

– علي انا اكتب رسالة قصيرة يا ولدي . سأتبعك بعد لحظة

وحتى المساء انصرفت لاعداد (جهاز) ابنتها .

وكانت الدوقة وابن اخيها على مائده آل غيروا ذلك المساء .

وما كادوا يجلسون الى المائدة حتى ادخل رئيس الخدم ثلاث اضمامات كبيرة من ازاهير جميلة .

وتساءلت الدوقة مندهشة : – يا الهي . ما هذا ؟

وهتفت آنيت : يا الهي كم هي جميلة ! فمن ترى ارسلها الينا ؟

فاجابت امها : – انه اوليفيه برتان ولا ريب .

فمنذ ذهابه ما انفكت تفكر فيه فقد بدا لها شديد الانقباض واضح التعاسة ، ولمست شدة آلامه ، وبالغ حزنه . وادركت انها تحبه كثيراً .. حباً حانياً ، كاملاً حتى لقد سحق قلبها باحساسه المؤلم

ووجدوا في كل اضمامة بطاقة من الرسام تحمل لواحدة اسم الدوقة والثانية اسم الكونتس والثالثة اسم آنيت وقد كتبت بالقلم الرصاص .

وسألت الدوقة : اتراه مريضاً صديقكم برتان ؟ لقد لاحظت امس ان هيئته متغيرة جداً .

فاجابت الكونتس : اجل . ان افكاري مشغولة عليه بالرغم انه لا يشكو .

واجاب زوجها : انه مثلنا يمشي الى الشيخوخة . واغلب ظني ان العازبين يسقطون فجأة . ان سقطاتهم اسرع من سقطات سواهم انه قد تغير في الواقع كثيراً .

وتنهدت الكونتس قائلة : اجل . اجل .

وانقطع فارندل عن الهمس في اذن خطيبته وقال لقد نشرت صحيفة الفيغارو مقالاً قبيحاً بحق برتان .

ان كل هجوم او انتقاض من قيمته الفنية ، كان كافيا لاخراج الكونتس عن طورها . قالت :

— ان الرجال العظام امثال برتان قلما يهتمون بمثل هذه الصغائر ...

وعقب غيروا دهشاً : مقال يسيء الى برتان ؟ ولكن لم اقرأه في اي صفحة ؟

وشرح المركيز : — في الصفحة الاولى . في اعلاها . تحت هذا العنوان « الرسم العصري »

وانقطعت دهشة النائب : حقاً انا لم اقرأه لانه يبحث في الرسم .

وابتسم الجميع . فهم يعرفون حق المعرفة ان كل مايخرج عن نطاق السياسة والزراعة قلما يثير في النائب المحترم اي اهتمام .

ثم تشعب الحديث حتى نهاية العشاء . وانتقلوا الى الصالون لتناول القهوة . وكانت الكونتس غائبة الانتباه فهي تفكر عما عسى برتان ان يفعل . اين هو الآن ؟ اين تناول عشاءه ؟ اين ينتقل في هذه اللحظة بفؤاده الدامي الجراح ؟ ودهمها ندم كوى جسدها كياً لسماحها له بالذهاب دون ان تحاول امساكه . وتخيلته يطوف في الشوارع حزيناً شريداً وحيداً هارباً من احزانه .

ولم تنبث بكلمه حتى ذهاب الدوقة وابن اخيها . ثم اوت الى سريرها وسياط الالم لاتنفك تثخن قلبها فتمزقه شر ممزق . ولم تجد الى الرقاد سبيلاً مفكرة فيه مفتوحة العينين .

وكان وقت طويل قد انقضي عندما خيل اليها انجرس الباب يقرع . وانتفضت بشده وجلست في سريرها واجفة . وعاد جرس الباب يدق في قلب الليل .

وقفزت خارج السرير وبكل قوتها راحت تضغط الزر الكهربائي الذي يوقظ وصيفتها . وحملت شمعة مشعلة واسرعت الى المشى .

ونادت عبر الباب : — من تراه هناك ؟

فاجابها صوت مجهول : — اني احمل رسالة .

ـ رسالة ؟ وممن ؟ من طبيب . ـ اي طبيب ؟

— لست ادري . بسبب حادث .

ودون تردد فتحت الباب . ووجدت نفسها امام سائق عربة ذي قبعة من مشمع . وقدم اليها رسالة يحملها بيده وقرأت عليها : « عاجل جداً حضرة الكونت دي غيروا .

كان الخط مجهولا . وقالت للرجل : ادخل ياصديقي . اجلس . وانتظر قليلا .

ووقفت امام غرفة زوجها ووجيب قلبها يعلو دون ان تجرؤ على قرع بابه. واخيراً قرعت الخشب بأسفل الشمعدان ولم يسمع الكونت اذ كان غارقاً في سباته . وفرغ صبرها فراحت تضرب الباب بقدمها واجابها بصوت كله نعاس : من هناك . كم الساعة الآن ؟

— انا . اني احمل اليك رسالة عاجلة جداً . بخصوص حادث وعاد يقول من خلف الباب : تريثي . اني انهض . سآتيك ولم تمض دقيقة حتى خرج بردائه المنزلي . وفي نفس الوقت خف خادمان كان رنين الجرس قد ايقظهما . وكانا مذعورين وقد شاهدا في غرفة المائدة رجلا غريباً ينتظر جالساً فوق كرسي .

وتناول الكونت الرساله وراح يقلبها بين يديه وهو يتمتم :

ماهذا ؟ اني لم احزر !

وقالت بعصبية : ولكن ... اقرأها .

ومزق الغلاف وفتح الورقة واطلق صرخة استفهام ثم نظر الى زوجته بعينين خائفتين . فقالت :

— ياالهي . ماهو الخبر المشؤوم ؟

وعاد يتمتم وهو لا يكاد يقوى على النطق لشدة مااعتراه من انفعال :

— آه ياللمصيبة . ياالمصيبة ! لقد سقط برتان تحت احدى العربات ...

وندت عنها صرخة هائلة : — امات ! ؟

— كلاّ . كلاّ . انظري بنفسك .

ونزعت الرسالة من بين يديه وراحت تقرأ :

سيدي لقد حدثت مصيبة كبرى . ان صديقنا الرسام الكبير اوليفية برتان قد سقط تحت عجلات عربة وقد مرت عجلة فوقه ولن استطيع الآن ابداء الرأي فيما ينتج عن مثل هذا الحادث . فهو قد لايكون خطراً كما قد يكون قاضياً . ان السيد برتان يرجوك كما يرجو سيدتي الكونتس دي غيروا ان تأتي لرؤيته الساعة .

وآمل ان سيدتي الكونتس وانت لن تتقاعسا عن تلبية هـذه الرغبة

الصادرة عن صديقنا المشترك الذي قد بلفظ انفاسه قبل انبلاج الصباح .

الدكتور دي ريفبلي

وتطلعت الكونتس الى زوجها بعينين كبيرتين ثابتتي النظرة ، مليئتين بالرعب ، وفجأة اضطربت كما لو مسها تيار كهربائي فعاودتها شجاعتها بمثل تلك السرعة والقوة التي تستعيد المرأة فيها شجاعتها عندما تدلهم الخطوب .

واستدارت الى وصيفتها وقالت : ـ هيا سريعاً . اريد ان ارتدي ملابسي .

وسألتها الوصيفة : ماذا ترغب السيدة بارتدائه ؟

ـ اي شيء الذي تريدينه . وتابعت : ـ جاك كن على استعداد خلال خمس دقائق .

ومرّت بالسائق الغريب فسألته : امعك عربتك .

ـ نعم ياسيدتي ـ حسناً سنأخذها .

ثم انطلقت نحو غرفتها .

وبحركات مجنونة راحت ترتدي ملابسها كما اتفق . ووقفت لحظة أمام مرآتها فرفعت شعرها وتركته دون اية عناية .

وكانت تنظر الى وجهها الشاحب وعينيها المكسرتي الاهداب في المرآة ، دون ان تفكر في ذلك هذه المرة .

وما القت بمعطفها فوق كتفيها حتى وثبت الى غرفة زوجها الذي لم يكن قد استمد تماما فاهابت به : ـ عجل . فكر انه يمكن ان يقضي في اية لحظة .

وتبعها الكونت مذعوراً وهو يتعثر لدى كل خطوة فوق السلم المظلم وهو يسعى الى تامس الدرجات متفاديا السقوط . وقطعا المسافه بصمت مطبق وكانت الكونتس ترتجف بشدة واسنانها تصطك وهي تشخص الى مصابيح الغاز المغلفة بالضباب والمطر . ووجدا باب مسكن الرسام مفتوحا وغرفة البوابة منارة وفارغة .

واستقبلهما على رأس الدرج الطبيب دي ريفبلي . وحيى الكونتس بانحناءة عريضة وصافح الكونت .

وسألته لاهثة كأن صعود الدرج قد استنفذ كل قواها : ـ حسناً يادكتور ؟

ـ حسناً ياسيدتي . آمل ان الاصابة اقل خطراً مما خيل اليّ اول الامر .

وصرخت : ـ لن يموت ؟

ـ كلا . او على الاقل لا اعتقد ذلك .

ـ اواثق انت ؟

ـ كلا . انما اقصد فقط اني كبير الامل بذلك . اذانني امام حالة

لاتتعدى كونها اصابة خارجية قد لا تتبعها اشتراكات داخلية .

ـ ماذا تعني بالاشتراكات ؟

ـ اعني تمزقاً داخلياً .

ـ وكيف عرفت ان ليس ثمة تمزقاً .

ـ افترض ذلك افتراضاً .

ـ واذا كان تمزق ؟

ـ سيكون الامر خطيراً ...

ـ فقد تقتله ؟ ...

ـ اجل . ـ سريعاً ؟ ـ سريعاً . في بضع دقائق او حتى في بضع ثوان . ولكن لتطمئن سيدتي فسيشفى خلال اسبوعين .

كانت تصغي بانتباه عميق لئلا يفوتها شيء من التفصيلات وتابعت تسائل :

ـ وأي تمزيق يمكن ان يحدث له ؟

ـ تمزيق في الكبد مثلا .

ـ سيكون بالغ الخطر ...

ـ اجل ... ولكن مما يدهش ان تحدث له اشتراكات الان لندخل عليه . فان رؤيتك تفيده لانه ينتظرك بفراغ صبر .

ان اول ماشاهدته لدى دخولها الغرفه هو رأسه الواهي بوجهه

الشاحب فوق وسادة بيضاء . وكانت بضع شمعات ونور المدفأة ينير الغرفة فترسم ظلالاً على الجدران . ولمحت الكونتس عينين تنظران اليها لدى دخولها ،

ووجدت كل شجاعتها ، وكل قوة ارادتها بل كل ما فيهامن قوى تنهار فجأة . وتمتمت بين شفتيها : يا الهي . ومشت نحوه والهلع يهز كيانها هزاً .

وحاولت ان تبتسم لتشجعه فكانت تكشيرتها مخيفة . وما اصبحت بقرب السرير حتى القت بيديها فوق يدي اوليفيه الممدودتين الى قرب جسمه وعادت تتمتم : – آه يا صديقي المسكين .

واجابها بصوت منخفض دون ان يحرك رأسه : .. ليس بي شيء .

وراحت تتأمله وقد اضاع صوابها هذا التغير الذي اعتراه كان بالغ الشحوب حتى لكأن دماءه قد نزفت كلها . وكانخداه منخفضين داخل وجهه وعيناه غارقتين في محجريهما كأنهما قد سحبتا بخيط من الداخل .

ولمح الرعب الذي حلّ بصديقته فتنهد وقال .

– ها اناذا في حالة حسنة . فسألته : – .. كيف حدث ذلك ؟ وبذل جهوداً جبارة ليتوصل الى الكلام وكانت انتفاضات

عصبية تجتاز وجهه بين فترة واخرى :..لم انتبه الى ما حولي ... كنت افكر باشياء اخرى ... باشياء كثيرة اخرى آه نعم ومرت عربة مسرعة فدهمتني واجتازت عجلتها فوق بطني ... كانت تصغي اليه متخيلة الحادث وقد ثار فيها الرعب:.. وهل نزفت منك دماء .

— كلا اني فقط مرضوض... محطم.وعادت تسأل ..وفي اي مكان حدث ذلك

فاجاب بصوت خفيض .. لست ادري في مكان بعيد جداً .

وقدم لها الطبيب مقعداً انحطت عليه بجسدها بينما ظل زوجها واقفاً عند قدمي السرير مردداً بين اسنانه .. آه يا صديقي المسكين يا صديقي المسكين ياله من حادث تعيس !

كان في الواقع يحس حزناً عميقاً لانه كان يحب اوليفيه كثيراً.

وعادت الكونتس تقول:ولكن اين حدث ذلك فاجابها الطبيب لا ادرى او بالاحرى لم افهم . والارجح ان ذلك حدث في ضواحي باريس فقد اخبرني سائق العربة الذي التقطه انه حمله الى صيدلية في تلك الضاحيه ثم جاءوا به الى الساعة التاسعة .

ثم انحنت فوق اوليفيه .. اصحيح ان الحادث وقع في الضواحي واغمض برتان عينيه كانه يتذكر ثم غمغم .. لست ادرى.

— ولكن اين كنت ذاهباً .

ـ لااتذكر كنت اسير دون وجهة .

ولم تستطع الكونتس امساك زفرة ندت عنهـا ثم بعد شبه اختناق اخرجت منديلها وغطت عينيها وراحت تبكي بكاء مراً .

اقد عرفت لقد حدست ! ان شيئا مخيفا محطماً سقط فـوق قلبها . الندم لعدم تشبثها ببقاء او ليفيه عندها لطردها اياه ، لالقائها به في الشارع حيث سقط وهو سكران بحمى الحزن تحت هذه العربة وقال بصوته الذي غدا دون جرس . . لا تبكي ان ذلك يمزقني .

وبقوة ارادة انقطعت عن النشيج و كشفت عينين ثبتتهما عليه دون ان يختلج وجهها حيث كانت الدموع تسيل ببطء .

وتبادلا النظر وهما جامدان وايديهما متعانقة فوق غطاء السرير كان الواحـد منهما ينظر الى الآخر كأن ليس في الغرفـة سواهما وكانت نظراتهما تنقل الى قلبيهما شعوراً اسمى من شعور البشر .

وقد بعثا بسرعة وبصمت رهيب كل ذكريـاتهما ، كل حبهما المحطم كلـا شعرا به سوية ، كلـا وحد ومزج حياتهما ، في تلك الفترة الطويلة التي عاشها حبهما .

وكانت انظارهما ما تزال متبادلة واحسا حاجة ملحة للافضاء بالف شيء حميم حزين كان لابد لهما من اخراجها الى النور . شعرا ان عليهما باي ثمن ان يبعدا هذين الرجلين الواقفين في الغرفة . عليهما ايجاد

طريقة او حيلة لاتمام ذلك والمرأة هي دائماً ينبوع لاينضب لاستنباط الحيل • وراحت تفكر بطريقة مجدية وعيناها لا تفارقان عيني اوليفيه

كان زوجها يتحدث مع الطبيب بصوت خفيض . يدور حديثهما عن العناية الواجب تأمينها لاوليفيه .

واستدارت وقالت للطبيب هل جئت بمن يسهر عليه •

— كلا وافضل ان ارسل ممرضة لتستطيع مراقبة حالته الصحية

— ارسل ممرضاً وممرضة فالعناية يجب ان تكون بالغة او تستطيع ان تأتي بها الليلة بالذات اذ لا اعتقد انك ستبقى هنا حتى الصباح ؟

— في الواقع انه يجب ان اعود فانا هنا منذ الساعة الرابعة تقريباً

— وترسل لنا الممرضين .

— ذلك امر صعب في قاب الليل وعلى كل حال ساحاول

— يجب ان تحاول .

— قد يعدان بذلك ولكن اتراهما يحضران .

— ان زوجي سيرافقك وسيأتي بهما ان طوعاً او كرهاً .

— ولكن اتستطيعين البقاء هنا وحيدة يا سيدتي .

— انا ؟ قالت بشبه صراح واحتجاج ثم عرضت واقع الحال بلهجة آمرة لم يجرؤ احد على الرد عليها •

نهضت بعد خروج الرجلين وبها لهفة الى خلو الجو . واصغت الى الباب وهو ينطبق خلفهما ثم سمعت ضجيج عجلات العربة وهي تنطلق في الشارع ومكث الخادم والطاهة في الغرفة الثانية بانتظار الاوامر وعادت تدنو من السرير ثم تلقي بيديها على طرفي الوسادة حول الرأس الحبيب وتحو لتتأمل وجهه ثم سالته وقد دنت بشفتيها من وجهه حتى احس لفح انفاسها . . لقد القيت بنفسك تحت العربة فاجاب محاولاً دائماً ان يبتسم . . كلاً انما هي التي القت بنفسها فوقي

ـ ليس صحيحاً انك انت الذي فعلت ذلك .

وبعد لحظات خيم فيها الصمت عادت تقول . . آه ياعزيزي اوليفيه قل اني تركتك تذهب، اني لم اتشبث بك .

فاجابها باقتناع . . سيحدث لي ذلك اليوم او غداً .

وتبادلا نظرة اخرى محاولين ان يدركا اسرار تفكيرهما . وعاد يقول لم اتصور اني سأعيش بالالم المبرح !

تمتمت . . انك تتألم كثيراً ؟ .

ـ اجل

وانحنت فوقه وغمرت جبهته وعينيه وخديه بقبل بطيئة خفيفة رقيقة . لقد لمسته باطراف شفتيها كما يقبل الاطفال امهاتهم . واستمر ذلك طويلاً طويلاً . وقد تركت خلال هذه الفترة سيلاً من القبل

ينهمر عليه فيخفف آلامه وقد بدا ذلك فوق وجهه الذي استعاد شيئاً من هدوئه .

ثم قال .

— آني ؟ فانقطعت عن تقبيله لتصغي اليه : .. ماذايا صديقي

— اتعدينني وعداً ؟

— اني اعدك بكل ما تريد .

اذا لم امت حتى انبلاج الفجر اقسمي لي ان تصحبي معك آنيت مرة واحدة مرة واحدة فحسب كم اريد الا الفظ انفاسي قبل ان اراها ... فكري اني غداً في مثل هذه الساعة سأكون قد اطبقت جفني ولن يعود بامكاني ان ارى شيئا لا انت ولا هي .

واسكتته وقلبها يتمزق .

— صه صه اني اعدك باحضارها .

— او تقسمين .

— اقسم لك يا صديقي بشرط ان تسكت وان لا تقول شيئا انك تسبب لي الماً هائلاً وعاد يقول .

— اذا لم يكن لدينا سوى لحظات قلائل نعيشها سوية فليس لنا ان نضيعها . لطالما احببتك . وتنهدت قائلة .. وانا لشد ما احبك دائماً ! . وقال ايضا .. لم اشعر قط بالسعادة لولاك . ان الايام الاخيرة

فقط ما كانت قاسية ... وليس ذلك بسببك يا آني المسكينة ...
كم تكون الحياة تميسة وكم يكون الموت صعباً ... صه يا اوليفيه
ارجوك ...

— كم كنت اكون رجلاً سعيداً لو لم ترزقي بابنتك !

— صه ... يا الهي ! صه .

وبدا كأنه يحلم اكثر منه يتحدث .

— آه ان الذي خلق هذا الوجود وهؤلاء الناس كان اعمى
او خبيثا ...

— اوليفيـه ارجوك ... اذا كنت تحبني فاصمت ... لا
تتكلم قط .

وراح يتأملها وهي منحية فوقه شاحبة هي الاخرى وعليها
سمات الاموات ، وصمت .

وعادت تجلس فوق المقعد مقابلة سريره متناولة يده المسترخية
فوق غطاء السرير ..

والآن اني امنعك من الكلام لا تتحرك ابداً فكر في كما
فيك . وعادا يتبادلان النظرات جامدين وقـد اتصل احدهما بالآخر
بتلامسهما باليدين . وكانت تضغط بلطف اليد المحمومة التي تقبض عليها
مجيبة نداءه بين الفينة والاخرى . وقال فجأة كانـه يستيقظ من حـلم

وبانتفاضة رعب شديد .. ـ رسائلك ؟وسألته : ماذا م رسائلي ؟

ـ لو ادركني الموت دون ان اتلفها • وصرخت وماذا بها او تهتم الان بان احداً قد يجدها ويقرأها اني لا اهتم بذلك ! واجاب اما انا فلا اريد انهضي يا آني وافتحي الدرج الاخير في خزانتي الدرج الكبير فهناك تجدينها كلها • خذيها واطرحيها في النار ولم تتحرك فعاد يقول ارجوك يا آني فاذا لم تصدعي بما اقول سيبقي لي اضطرابا واثرني اعصابي فكري انها قد تقع بيد احد الناس ، كاتب العدل او احد الخدم او بيدي زوجك ... انا لا اريد •

ونهضت مترددة : كلا هذا بالغ القسوة هـذا فظيع • يخيل الي انك ستحرق قلبينا •

وعاد يرجوها وادركت ان لامندوحة عن اللاستجابة لرغبته وعادت بالرسائل فاستدار برأسه فوق الوسادة يشاهدها وعاد يقول احرقيها سريعاً واخذت الرسائل بين راحتيها واحتفظت بها لحظة . ان هذه الرسائل هي عصير روحها وسويداء قلبها وعاد اوليفيه يردد احرقيها احرقيها يا آني . وبحركة واحدة من يديها الاثنتين القت حزمه الرسائـل في المدفأة فشبت فيهـا النار والتهمتهـا التهاماً واستدارت الكونتس وعلى ضوء اللهب شاهدت صديقها منحنيا محطماً فوق السرير وسألها افعلتي ؟

ـ اجل كلها .

وقبل ان تنتهي النار من التهام تلك الاوراق القت عليها نظرة اخيرة كانها تودع شخصاً حبيباً يغيب في باطن الارض ثم عادت الى الجريح فرفعت رأسه بحنو واعادتها الى الوسادة . كان يلهث ووجهه قد تغضن بالالم البالغ وبدا كأنه لا يعرف هذه لوافقة الى قربه .

وانتظر ان يهدأ روعه قليلاً فيرفع رأسه ويفتح جفنيه ويخاطبها وسألته وقد طال سكوته .. اتتألم كثيراً ؟ . فلم يجب . وانحنت فوقه ووضعت اصبعها فوق جبينه . ففتح عينيه الزائغتين ، عينيه الضائعتين ورددت باضطراب عظيم اتتألم ؟ اجبني اوليفيه اتريد ان استنجد ... ابذل جهداً قل لي شيئا.

سمعته يتمتم : لم تاتني بها ... لقد اقسمتي لي ...

ثم اضطرب تحت اغطيته فعادت تقول : اوليفيه ! يا الهي ! اوليفيه ! ماذا بك ؟ اتريد ان انادي ...

وسمعها هذه المرة واجابها ... كلا ليس بي شيء .

وبدأ فعلا كما لو كان قد استعاد قواه وخفت الامه ثم سقط في شبه غيبوبة وقد ظنت انه يوشك ان ينام فعادت تجلس بالقرب من السرير وتتناول يده وتنتظر ولم يعد يتحرك وذقنه فوق صدره وفمه

نصف مفتوح تتردد منه انفاسه التي تشخب في حنجرته . فلم يكن يتحرك فيه سوى اصابعه التي كانت بالرغم عنه تتشنج تشنجاً خفيفا فيمس ذلك الكونتس فيكاد شعرها ينتصب من الهلع لقد ادركها الخوف، خوف مريع ورغبة جنونية في الهرب فيطلب النجدة ولكنها لم تبد حراكا خوفا من ان تقلق راحته .

كان ضجيج العربات يأتي من الشارع فينفذ عبر الجدران وهي تصيخ بسمعها لعل احداها تتوقف امام الباب فيصل بها زوجها وينقذها من هذا الانفراد الهائل .

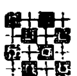
وحاولت استخلاص يدها من يد اوليفيه ولكنه شد عليها واطلق تنهدة قوية ! فابقتها له لكي لا تزعجه

كانت النار تحشرج في الموقد فوق رماد الرسائل الاسود والشمعتان قد اخذتا تنطفآن .

كل شيء كان صامتا ، كل شيء خيم عليه ظل الموت ، ما عدى الساعة الكبيره المعلقة فوق السلم التي كانت تدق بانتظام معلنة الساعات وانصافها وارباعها وهي تحدو الليل الى غايته

واحست الكونتس بالهلع يعظم في نفسها كأن اشباحا تحدق

بها وافكاراً هائلة تعكر نفسها وظنت ان اصابع اوليفيه قد تجمدت في كفيها. ايمكن ذلك ! كلا ولا ريب ! من اين جاءها اذا هذا الشعور بانها تلامس جليداً ! ونهضت وقد اضاع الخوف صوابها ونظرت الى وجهه : كان مسترخيا لا حراك فيه ولا خلجة من حياه . لم يعد يشعر بكل آلامه فقد غلفه النسيان الابدي ...



توطئة

كانت الغاية من الرواية والقصة - قبل جي دي موباسان - الموعظة وإزجاء النصح واغداق الدروس الاخلاقية ، لذا نجدها قليلة الجدوى عديمة النفع ، ذلك ان المرء بطبعه يكره الامر والنهي ان ينصبا عليه كما ينفر ممن يتشح بمسوح الواعظ ويعلو المنابر ليضع في مسمعيه قوله : لا تفعل هذا وافعل ذاك !

أما « موباسان » فقد اتجه الى الغاية نفسها منتهجاً سبيلا أقصر واكثر استقامة إذ جعل شاغله تصوير جمال الحياة وقبحها جميعاً ، فخرج الخير والشر متعانقين ، في كتاباته ، غير مفترقين ؛ لانهما في حياة الناس كما خطهما بقلمه البليغ .

واكتفى بان يريك القبح باسمج أشكاله دون ان يقول لك : لا تفعله !

واكتفى بتركك تعيش الجمال الخالد بابدع الوانه دون ان يدفعك اليه قائلا : دونك إياه ! هذا هو العبقري الروائي موباسان الذي فهم الحياة كما لم يفهمها كاتب من قبل .

* * *

يعتبر الكاتب الروائي الفرنسي « جي دي موباسان » علماً من أعلام القصة في الأدب العالمي الحديث ، فهو صاحب مدرسة مجددة طوحت بالأساليب القديمة وعصفت بالطريقة الكلاسيكية وأرغمت الرومنطيكية على الانحناء ! ولم تكن هذه المدرسة الجديدة التي ابتدعها موباسان إلا المدرسة الواقعية التي تجنح الى تصوير الانسان كما هو لا كما يجب ان يكون ! فكأن الكاتب الواقعي ذاك الرسام الصناع الذي ينقل عن الطبيعة مظاهرها وخلجاتها على علاتها ، فلا يمسح

بيد الرفق على جراحاتها ليلثمها ، ولا يشوه حقائقها باصبغة زائفةدخيلة وانما عليه ان يعطيك صورة صادقة عن الحياة فتراها جميلة في قبحها وقوية في ضعفها ومرة في حقيقتها ، فليس من طبعه ولا في خلقه ان يهول لك المعايب ولا ان يعظم لك الفضائل ولا ان يجعل لك من الابطال أنصاف آلهة ، وجل قصده انه يمر بالقلم على القرطاس فيقول لك ما تراه تحت ناظريك بقلم حي وفكر خالد !

« أحب السماء كحب الطائر لها ... وأحب الغابة كحب الذئب لها . . وأحب الصخرة كحب الوعل الذي اتخذها له ملعباً ... »(١)

ومعني الحب عند موباسان هو الرغبة العارمة في الامتزاج ، والفناء فيماهو محبوب . ومن ثم استرسل موباسان يمتزج بتلك الامواج الذاخرة التي تضطرب في محيط الحياة ، يعلو متونها تارة ، ويهبط الى اعماقها تارة ، لايضيق بشيء مما يكون ، ولا ينشد الاستقرار فيمايجري ، فقد فني في هذه الحركة الدؤوب كل فناء ! ولكن ... غفر الله للحياة ! فلشد ما تشبث بها فنبذته عنها بعيداً ! !

* * *

ولد موباسان سنة ١٨٥٠ من عائلة تمت الى العراقة بسبب قـــوي وبدأ حياته المدرسية في كلية مدينته « روان » فكان تلميذاً غير مرغوب فيه ، فهو لا يأبه الا لنزعات نفسه الطليقة فلا يملك عن الاسترسال معها محيداً ، فضاقت المدرسة بقصوره وما هي الا فترة حتى الفى نفسه يخرج الى الحياة الصاخبة شبه طريد ...

وانتقل الى الريف يرتع فيه ويمرح ، يحيا مع الزراع ، ويختلط بهم في حياتهم الخشنة الطلقة فيجد في ذلك انساً وسلوى .. ولكن الريف ضاق به ، فهو يأخذ منه ولا يعطيه ، فما لبث ان الفى نفسه طريد الريف ...

وقضى حقبة اخرى من حياته موظفاً في وزارة البحرية ، وكان من فضائل وظيفته القليلة ما تركته له من فراغ .. فانصرف الى الأدب ، واتصل بغوستاف فلوبير الذي كانت تربطه بعائلة موباسان اواصر متينة ، فتلقاه بذراعين ممدوتين ، واخذ عنه اول اساليب التأليف الروائي ، وبغفلة عرف موباسان

(١) من « رسالة الى موباسان » لمحمود تيمور .

كبار الروائيين اتباع المدرسة الواقعية . ولم ينقطع موباسان بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩١ عن نشر القصص والروايات التي امتازت بقوه اسلوبها وصدق تصويرها والمتسمة بسمة الواقعية المغرقة التي كادت ان تنقلب سبة عليه !

أحب موباسان في الحياة متعها اشكالا والوانا ، فأغرق نفسه في لجة الحسن : فهصر القدود جهد طاقته ، واعتصر الكؤوس اعتصار ظامىء لا يروى له غليل ... وكان يصور كل ما أحب الصورة الصادقة التي علقت في ذهنه منه ساعة أحبه . .

لذا ترى في كتابة موباسان كل لون يخطر لك في بال ، وتجد بين ابطاله كل نموذج يمكنك ان تلتقي به في اي مجتمع وفي اي زمان .. ومن هنا تأتي القيمة الانسانية لأدبه ، بيد أنه آنس من الحياة إباء عليه وتملصاً من بين يديه . ولم تكذب الايام ظنه فما بلغ الاربعين من عمره حتى انفصم ما بينه وبين عالم الاحياء من صلات واتخذ لنفسه سكناً بين القلم والقرطاس .. يعمل ليل نهار دون ان يدركه تعب او يحس مللا .. يا لها من غرائب ، فإن حبه للحياة هو الذي حرمه دوام وصالها ، وكلما هم بها صدت وكلما مال اليها بعدت . . فلا بدع ان يحقد عليها حقداً مريراً ، حقداً يخالط ذاك الحب المكين كما يخالط السم الناقع رطب الشراب !

ورأى المجتمع تتحكم به عادات ومعتقدات عليها غلائل فاخرة من نسج المخادعة والرياء ، فجرى يحطم القيود ويمزق الاغلال لايصده عائق عن هـــدفه المرموق ، فنضا الاستار عن تلك الغرائز البشرية الـــتي تعمل في السرائر وتجعل من الناس دمىً تبعث السخرية والاشمئزاز .

وريع المجتمع مما جابهه به من مساوئه ونزعاته الدنيئة ، واذهله ما صفعه به من حقيقة علقمية الطعم ، فظيعة في بشاعتها ولكنها متناهية في صدقها واخلاص اهدافها ... فصاح به المجتمع بنفس واحد : مكانك ايها الفاجر السليط ! الا ان ذلك المجتمع كان في قرارة نفسه مقراً بصدق ما ذهب اليه ، معترفاً ان الحق ما قاله . . فكأنه يستزيده ولا يحاول خنق انفاسه كما تظاهر .

ولم تمهل الحياة موباسان حتى يحقق كل غاياته واهدافه ، فما لبثت متـــع

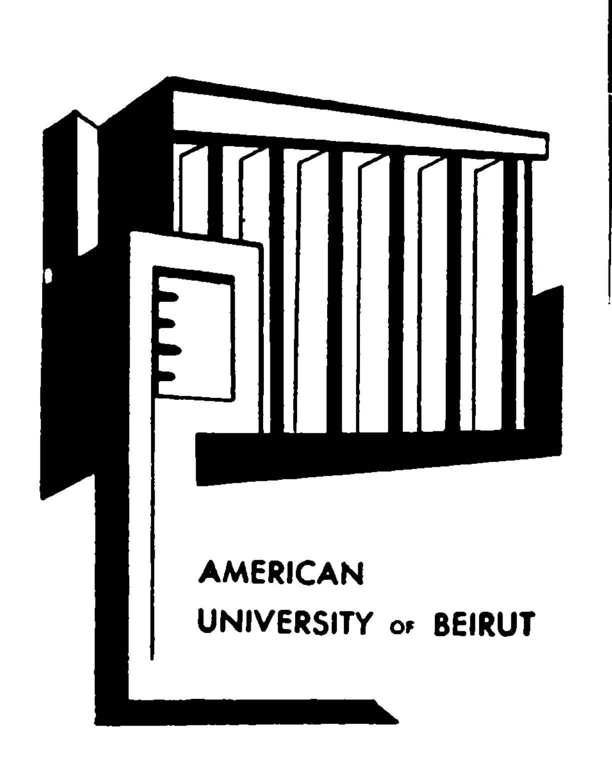
الحياة ، واستهتار الشباب أن سرت في دمه سماً زعافاً ، وحل يوم شعر فيه ان عقله ينزف ، وانه موشك ان ينضب .

واصيب موباسان بالجنون ، فأقام سنوات ثلاثاً في مصح للامراض العقلية وقضى نحبه في نهايتها سنة ١٨٩٣ بعد ان كان قد وهب المكتبة الفرنسية ثروة طائلة خليق بها ان تزهو وتفخر بهذه الهدية الكريمة . كما كان قد اهدى للادب الحديث طريقته الجديدة الواقعية اذ انه ابدع فناً يكاد ان يكون جديداً في الادب الفرنسي آنذاك هو فن القصة القصيرة التى احدثت ثورة فعلية في الادب العالمي فيما تلا ذلك من اعوام .

واذا كانت المكتبة الفرنسية قد اتحفت بهذه الروائع التى قدمها لها القصاص الكبير موسابان فإن المكتبة العربية ما زالت ظامئة الى هذا الادب الرفيع تضيفه الى ذخيرتها الخالدة ، وها هي ذي دار اليقظة العربية تسهم - على عادتها - في بناء المكتبة العربية فتقدم للقارىء العربي هذا الاثر النفيس من آثار موباسان الذي يغلو بعض النقاد فيرى فيه خير ما انتجته قريحة موباسان وافضل ما خطه يراعه !

دمشق - حزيران ١٩٥٣

المعرب


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

